جائزة الكتاب الأوروبي
2011



ليكن قلبكم مستعداً

حكاية أسرة ألمانية شرقية

مكسيم ليو



ترجمة:
د.نبيل حفار

رواية



مكسيم ليو

ليكن قلبكم مستعداً

حكاية أسرة ألمانية شرقية



ترجمها عن الألمانية:

د. نبيل الحفار



ليكن قلبكم مستعداً



ليكن قلبكم مستعداً – رواية

حكاية أسرة ألمانية شرقية

Haltet euer Herz bereit

Eine ostdeutsche Familiengeschichte

تأليف: مكسيم ليو

by: Maxim Leo

ترجمها عن الألمانية: د. نبيل الحفار

التدقيق اللغوي: عمر الخولي

الإخراج: فايز علام

تصميم الغلاف: ليلى شعيب

ISBN: 978 - 9933 - 540 - 29 - 6



هاتف–فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

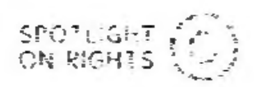
الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com /AdwanPH

fb.com /Adwan.Publishing.House



The translation of this work was supported by a grant from the Goethe-Institute, which is funded by the German Ministry of Foreign Affairs.



تم إصدار هذا الكتاب بمساعدة منحة تقدم بها برنامج
«أضواء على حقوق النشر» في أبو ظبي

This edition has been produced with a subsidy by the *Spotlight on Rights* program in Abu Dhabi




أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

مدخل

عندما دخلتُ غرفة المريض، ضحك غِرهارد. قال شيئاً ما. تدفقت من فمه كلمات غريبة، جافة من عمق حلقه، ثم ضحك ثانية. لا أذكر إن سبق لجدي أن فرح لرؤيتي كما في هذه المرة. شرح لي الطبيب أن الجلطة الدماغية قد عطبت مركز اللغة في دماغ غرهارد، وأنه لم يعد قادراً الآن على التعبير إلا عن عواطفه، أما الجانب العقلاني فهو معوق. خطر في بالي أن الوضع كان حتى الآن معكوساً تماماً. أخذ غرهارد يكلمني، وتظاهرت بأني أفهم بعض الشيء، لكني في لحظة ما قلت له إني للأسف لا أفهم شيئاً إطلاقاً. أومأ برأسه بحزن، لربما كان يأمل أن أكون قادراً على تحريره من عجزه عن الكلام، مثلما سبق لي أحياناً أن أنقذته من جموده العاطفي بنكتة أو بملاحظة وقحة ضعضعت سلطته. كنت مهرج الأسرة الذي لا يشك أحد بسلامة نيته. كان في مقدوري تجاوز الحد تجاه بطل أسرتنا الذي لم يجرؤ أحد على مخالفته.

من نافذة غرفة المريض كان ثمة نور ربيعي صافٍ، ووجه غرهارد كان خامداً وخاوياً. صمتنا. كم كان بودي لو أدردش معه الآن، أعني أن أتبادل معه الحديث حقاً. غالباً ما كانت الأحاديث مع غِرهارد تتحول بعد عشر دقائق كحد أقصى إلى مونولوجات حول نجاحاته الأخيرة؛ فكان

يتحدث عن كتب يقوم الآن بتأليفها، وعن محاضرات ألقاها مؤخراً، وعن مقالات صحفية تحكي عنه. حاولت عدة مرات أن أعرف منه أكثر، أكثر من القصص التي يعرفها الجميع. لكنه لم يرغب في ذلك. يُحتمل أنه كان يخشى أن أقترب منه أكثر من اللازم، فقد اعتاد أن يكون نصباً تذكارياً.

الآن فات الوقت. هذا الرجل الذي كانت اللغة عنده هي الأهم، بات عاجزاً عن الكلام. لم يعد في إمكاني سؤاله شيئاً، وهو سيحتفظ بأسراره.

كان غرهارد بطلاً حتى قبل أن يبلغ سن الرشد. كان يناضل في صفوف المقاومة الفرنسية وهو في السابعة عشرة من عمره. تعرض للتعذيب على أيدي "إس إس"[1] وحرره الفدائيون. بعد الحرب عاد إلى ألمانيا منتصراً وبنى جمهورية ألمانيا الديمقراطية، هذه الدولة التي كان يُفترض أن يصير كل شيء فيها أفضل. صار غرهارد صحفياً مهماً، جزءاً من السلطة الجديدة. آنذاك كانوا في حاجة إلى أناس مثله، إلى رجال أنجزوا جميع مهامهم في الحرب على نحو صحيح، مهام يمكن الاستناد إليها عند شرح ضرورة قيام هذه الدولة المناهضة للفاشية. لقد أرسلوه إلى المدارس والجامعات، فكان يحكي المرة تلو الأخرى عن نضاله ضد هتلر وعن التعذيب وعن النصر.

لقد نشأتُ على هذه القصص. كنت فخوراً بانتمائي إلى هذه الأسرة، وإلى هذا الجد. كنت أعرف أن غرهارد كان يملك مسدساً ذات يوم ويحسن التعامل مع المواد المتفجرة. عندما كنت أزور جديَّ في حي فريدْريكْس هاغن في برلين كنت أحصل على كعك بالتفاح وسلطة فواكه. وكنت أرجو غرهارد دائماً أن يحكي لي عن الماضي، فكان يحكي عن

---

(1) قوات الحماية، منظمة عسكرية نازية كانت تحت قيادة هتلر، لها دور كبير في عمليات الاعتقال والتصفية.

نازيين يبثون الرعب وعن فدائيين شجعان. وأحياناً كان يقفز واقفاً ويمثل مشهداً مع توزيع الأدوار، وعندما يؤدي دور النازي كان يلوي سحنته ويكشّر ويتكلم بصوت عميق مثل الغرغرة. وعند انتهاء العرض يمنحني لوح شوكولاتة بالحليب. وحتى اليوم عندما آكل قطعة من هذه الشوكولاتة تدهمني صور الوحوش النازيين.

في حضور الكبار لم يكن غرهارد مسلياً بهذا الشكل، ولم يكن يحتمل "تخبيص" أحد أفراد الأسرة بالسياسة، حسب تعبيره. والواقع هو أن جميع الذين لم يؤمنوا بجمهورية ألمانيا الديمقراطية (ج.أ.د) مثل إيمان غرهارد، كانوا يخبّصون بالسياسة، وكان أشنعهم أبي، فولف، الذي لم يكن حتى عضواً في الحزب، لكنه زوج أنيت، أمي، وابنة غرهارد المفضلة. كانوا يتناقشون كثيراً، وغالباً حول موضوعات لم أستوعبها جيداً إلا لاحقاً. حول الدولة والمجتمع وحول القضية، حسب التعبير المتداول حينها. أسرتنا كانت نموذجاً مصغراً عن (ج.أ.د). هنا كانت تجري المعارك غير المسموح بها في أي مكان آخر. هنا كانت الإيديولوجيا تلتقي بالحياة. وطوال تلك السنوات بقيت هذه المعركة صاخبة، وكانت السبب في ارتفاع صوت أبي في البيت وبكاء أمي سراً في المطبخ واغترابي عن غرهارد.

بقيت جالساً مع غرهارد فترة طويلة في هذا النهار الربيعي، في غرفة المرضى هذه، التي تعبق بروائح طعام المستشفيات ومواد التعقيم. وفي الخارج بدأ الظلام يهبط متمهلاً. كان غرهارد غارقاً في نفسه. جسمه كان ماثلاً أمامي، أما هو فتراءى لي غائباً في مكان آخر. قد يبدو الأمر غريباً، ولكن انتابني شعور بأن (ج.أ.د) لم تنتهِ حقيقة إلا في هذه اللحظة. بعد ثماني عشرة سنة من سقوط الجدار غاب البطل الصارم. أمامي كان يجلس رجل عاجز يستحق المحبة، جد. عند الوداع تعانقنا، ولا أذكر أننا قد فعلنا ذلك سابقاً. مشيت عبر دهليز المستشفى الطويل وشعرت بنفسي حزيناً

ومرحاً في الوقت نفسه. في هذا اليوم تمنيت، لأول مرة، لو كان في إمكاني العودة ثانية إلى (ج.أ.د)، كي أفهم ما الذي حصل حقيقة هناك، مع جدي، مع والديَّ ومعي أنا. ما الذي أدى إلى تباعدنا؟ ما الذي كان على تلك الدرجة من الأهمية، حتى جعلنا غرباء عن بعضنا إلى اليوم؟

لقد مضى وقت طويل على موت (ج.أ.د)، أما في إطار أسرتي فإنها ما زالت حية، وإلى حد كبير، مثل روح هائمة لا تجد إلى الراحة سبيلاً. في وقت ما، بعد أن انقضى كل شيء، توقفت الأحاديث عن معارك تلك المرحلة. لربما أملنا بأن الأمور ستحل نفسها بنفسها، بحيث يشفي الزمن الجديد جراح الماضي. لكن المسألة لازمتني بإلحاح، فراجعت الوثائق الرسمية ونبشت في خزائن وصناديق. عثرت على صور ورسائل قديمة وعلى دفتر يوميات منسي وعلى ملفات سرية. سألت أفراد أسرتي واستجوبتهم الواحد تلو الآخر، طوال أيام وأسابيع. طرحت أسئلة ما كنت في الأحوال العادية لأجرؤ عليها قط. وقد سُمح لي بذلك لأني بت باحثاً في تاريخ الأسرة. وفجأة التأم شمل (ج.أ.د) المصغرة، وكأنها كانت في انتظار الظهور مرة أخرى لتُبدي نفسها من جميع الجوانب، ولتصحيح بعض الأمور، وربما للتنفيس عن بعض الغضب والحزن الذي ما زال قائماً. من خلال هذه الرحلة إلى الماضي تعرفت من جديد على غرهارد وڤولف وأنيت. واكتشفت ڤِرنر، جدي الآخر، الذي ما كنت أعرف عنه شيئاً حتى ذلك الحين. أعتقد أن ثمة ما تحرك بعد هذا اليوم عند غرهارد في المستشفى. فالعاجز عن الكلام دفعنا إلى الكلام.



1. المتجر

في عائلتي، أعَدُّ أنا شخصاً تقليدياً. السبب الرئيس في ذلك يعود إلى أن والديَّ لم يكونا تقليديين إطلاقاً. عندما كنت في العاشرة من عمري كان أبي يتجول بشعر مصبوغ بالأخضر تارة وبالأزرق تارة أخرى، لابساً سترة جلدية لوّنها بنفسه. وكان ينبح عندما يلتقي في الشارع بأطفال صغار أو بنساء جميلات. وأمي كانت تفضل ارتداء طاقية طيار سوفييتي ومعطفٍ بخّه أبي بحبر صيني أسود. فكانا يبدوان معاً وكأنهما قد هبطا للتو من خشبة أحد المسارح لزيارة قصيرة في الحياة الحقيقية. وجد زملائي أن أبويّ رائعان، واعتبروني إنساناً سعيداً. أما أنا فوجدتهما مُحرجين وكانت أمنيتي الوحيدة أن يأتي ذلك اليوم الذي يتصرفان فيه بصورة طبيعية مثل سائر الناس الذين أعرفهم. والأفضل مثل والدَي سِفِن، أقرب أصدقائي. لوالد سِفِن صلعة وكرش صغير، وكان يسمح لسِفِن بأن يناديه بابا بدلاً من يا أبي، وأن يساعده في غسيل السيارة في نهاية الأسبوع. أما أبي فكنت أناديه باسمه، ڤولف، وليس بابا، وكان يفترض بي أن أنادي أمي أنيت، مع أن اسمها هو أنّيتّه Annette. ونادراً ما كنا نغسل سيارتنا الرمادية، ماركة "ترابانت"، لأن ڤولف كان يرى أنه لا جدوى من تنظيف سيارة رمادية اللون. إضافة إلى أنه قد رسم فوق أغطية الدواليب دوائر سوداء –

بيضاء، كي يرانا الناس قادمين من بعد. وقد اعتقد بعض الناس أنها سيارة عميان. وكان لدى والديّ سفِن جهاز تلفزيون ملون وطقم كنبات مُنجّد وخزائن جدارية، أما في غرفة جلوسنا فلم يوجد سوى رفوف كتب وزاوية للمطالعة، ركّبها أبي من قطع غرفة نوم باروكية الطراز. كان الجلوس هناك متعباً لقساوته، فعندما تريد أن تخبرك نفسك شيئاً من خلال المطالعة لا يجوز أن تكون مستغرقاً في الراحة، حسب رأي فولف. وذات يوم رسمت مخططاً لمسكننا حسبما أرغب أن يكون عليه، لمسكن بطقم كنبات منجد وتلفزيون ملون وخزائن جدارية. سخر مني فولف عندما رآه، لأن عائلة الشرطي التي شغلت الشقة قبلنا استخدمت المخطط نفسه تماماً، وشرح لي أن من السخافة، بل من الخطورة أحياناً أن أفعل مثلما يفعل الجميع، لأن الإنسان عندها لا يعيش حياته الفردية. لا أدري ما إذا كنت حينها قد فهمت ما قصده.

على كل حال، منذ البداية لم يكن أمامي خيار آخر، إلا أن أكون إنساناً متعقلاً ومرتباً. في الرابعة عشرة صرت أكوي بناطيلي وقمصاني، وفي السابعة عشرة أخذت أرتدي جاكيتاً وحاولت التكلم بالألمانية الفصيحة. كانت هذه هي الطريقة الممكنة الوحيدة للاحتجاج ضد والديّ، فهما مَن يحمل ذنب أني صرت شاباً ثورياً مؤدباً وبلباس مرتب. في الرابعة والعشرين من عمري بدأت أعمل، وفي الثامنة والعشرين تزوجت، وفي الثلاثين صرت أباً. في الثانية والثلاثين امتلكت مسكناً خاصاً. إني رجل اضطر إلى أن يبلغ سن الرشد مبكراً.

عندما أقف على شرفتي وأميل على الدرابزين، يمكنني رؤية المتجر الذي ولدت فيه. إنه يبعد مسافة عمارتين فقط، يميناً تحت على الزاوية. فيمكن القول، إذاً، إني لم أتحرك كثيراً خلال حياتي، ثلاثين متراً في ثمانية وثلاثين عاماً. ليس لديّ ذكريات عن المتجر، فقد كان عمري سنة واحدة

عندما انتقلنا منه. يقول ڤولف إنهما كانا كثيراً ما يتركانني في عربة الأطفال في الشارع أمام الباب، لأن الهواء داخل المتجر كان رطباً جداً. والمتجر كان أول مسكن يملكه ڤولف، وعنوانه هو: شارع يلبيين 26، برنسلاوربرغ - برلين.

كان محترفه في مقدمة المتجر، وفي الخلف باتجاه الفسحة هناك غرفة مظلمة لتظهير الصور ومطبخ صغير. كان شتاء عام 1969 -عندما التقى ڤولف بآنيت- قاسياً جداً، ففي الشارع بلغ ارتفاع الثلج متراً، وفي كؤوس تنظيف الأسنان كان الماء صباحاً متجمداً. عندما جاءت آنيت لزيارته أول مرة أوقد ڤولف المدفأة البرلينية في غرفة النوم ووضع على السرير قطعة شوكولاتة، كما في الفنادق. ولأن بقية غرف البيت كانت باردة جداً فقد وصلا إلى السرير بسرعة. بعد شهرين تبين أن آنيت حامل. وهي تقول دائماً أني قد جئت بالخطأ. والطريقة التي تقول بها ذلك توحي بكارثة مفاعل تشرنوبيل أكثر مما تُبدي شيئاً من السعادة. لربما كانا في حاجة إلى وقت أطول مع بعضهما البعض.

حالياً يشغل مكان المتجر مكتبُ هندسة. كلما مررت من أمامه أرى رجلاً أشيب الشعر يجلس إلى طاولة مكتب بلا حراك. لا يظهر منه سوى رأسه وقدميه، لأنه في منتصف زجاج واجهة المكتب الهندسي هناك خط عريض مغشى. يخطر في بالي أحياناً أن الرجل ما هو إلا دمية مانيكان. مهندس بلا جزء سفلي. ربما لهذا السبب لم أجرؤ على السؤال، عما إذا كان ممكناً أن ألقي نظرة على المتجر.

في البناء المجاور كانت هناك دكان لبيع اللحوم، والبائعة الصبية كانت ترسل لأبي بين الحين والآخر صرة لحم خنزير للشواء، لعلمها أن لا مال لديه لمثل هذه الأشياء. قبل ستين اشترى البناء كله محام من نبلاء جنوبي

ألمانيا، وصار يعزف على الساكسفون أحياناً في الدكان الخاوية، ذات الأرضية المبلطة والجدران المغطاة بالسيراميك.

في الجهة المقابلة تقريباً كانت هناك دكان لبيع الصابون، المسؤولة فيه كانت تسجل بدقة النساء اللواتي يترددن على ڤولف وتستجوبه بين الحين والآخر بشأنهن. اليوم يوجد هناك مكتب لتصميم الأزياء تديره امرأة أمريكية ذات تسريحة شعر غير متناظرة وتسمع موسيقى أوبرالية بصوت عال.

في الصور التي التقطها ڤولف للشارع حينذاك، يرى الإنسان جدران أبنية رمادية خربة، ويرى حافات الأرصفة دون سيارات متوقفة، ودراجته النارية الفِسْبا أمام محله. كل شيء يولّد انطباعاً بالخواء والهجران. أما اليوم، فيبدو الشارع مثل حلم بألوان الباستل. صفائح الذهب تلمع من واجهات بعض الأبنية ومن الصعب إيجاد مكان فارغ لتركن السيارة. وفي المساكن يعيش أزواج شارفوا على الأربعين، لكنهم يشعرون بأنفسهم ما دون الثلاثين من أعمارهم. إنهم رجال بنظارات شمسية غالية ونساء يرتدين فوق تنانيرهن القصيرة سترات تدريب رياضية. يسقن أمامهن عربات أطفال بعجلات رياضية، ويشترين اللحم من متجر اللحوم الصحية، ويبثون هذا الشعور المتعب، إلى حدٍ ما، بالارتياح الكلي. هنا أعيش، وأنا بصراحة متجانس إلى حد كبير مع هذا الجو.

هذا هو رأي ڤولف أيضاً، الذي يسخر مني أحياناً، لأني أحتاج إلى أمور كثيرة لأكون سعيداً، ولأني الآن أنتمي إلى الآخرين، إلى "الغربيين". ويتساءل حول ما صار إليه ابنه وشارعه.

في الحقيقة أنا أيضاً أتساءل. لا أدري كيف حصل كل هذا، كيف اختفى "الشرقي" من داخلي، وكيف صرت "غربياً". لا بد أنها كانت عملية

تسلل بطيئة، مثل تلك الأمراض الاستوائية شديدة العدوى، التي تنتشر في الجسم غير محسوسة عبر سنوات طويلة، لتتمكن في لحظة ما من التسلط عليه كلياً. الزمن الجديد غيّر شارعي وغيّرني أنا أيضاً. لم أكن مضطراً إلى التحرك، الغرب هو الذي جاء إليَّ. احتلني في بيتي، في بيئتي المألوفة، ومهَّد لي الطريق لبدء حياة جديدة. عندي زوجة من فرنسا وطفلان لا يعرفان مطلقاً أن جداراً كان ذات يوم منتصباً في برلين. لدي عمل براتب جيد في إحدى الصحف، وهمّي الرئيس يتمحور الآن حول: هل أفرش أرضية مطبخنا بالخشب أم بالبلاط؟ لم أعد في حاجة إلى اتخاذ موقف، ولا إلى الالتزام بقضية، ولم أعد مضطراً إلى إبداء رأي. يمكن للسياسة أن تكون موضوعاً للحديث، فقط إن لم يخطر في بال المتحدثين أي موضوع آخر. لم يعد المجتمع، بل أنا نفسي، موضوع حياتي الرئيس، سعادتي، شغلي، مشاريعي، أحلامي.

يبدو الأمر طبيعياً جداً، ولربما كان حقاً كذلك. وعلى الرغم من ذلك أشعر أحياناً بتأنيب الضمير وأحس بنفسي مثل مَن التحق بالعدو، أو مثل مَن خان ماضيه. وكأني مازلت مديناً بشيء ما لحياتي الأولى، أو كأن نسيان الماضي أمر محظور. هذه الحياة في (ج.أ.د) تبدو لي اليوم غير حقيقية ومستغربة. وكأنني أتكلم عن ماض سحيق، لم يعد له أي علاقة بي. أتصور نفسي مثل أحد أولئك الرجال العجائز الذين يظهرون في برنامج غويدو كنوب التلفزيوني، أمام جدار الاستوديو الأحمر الشاحب، لأتحدث عن حصار ستالينغراد. لقد غدوت شاهداً على عصر، رجلاً عاش سابقاً تجربة ما، تماماً مثل جدي ومثل جميع الآخرين الذين كانوا في شبابهم أشخاصاً مختلفين.

لكن في واقع الأمر، لا تبدو ألمانيا الشرقية نائية إلى هذا الحد. إنها عالقة بي وترافقني. إنها مثل أسرة لا يستطيع المرء نفضها عنه، لأنه يُسأل

عنها، إضافة إلى أنها تقرع بابه بين الآونة والأخرى. وحتى في إطار عائلتي الصغيرة، ألمانيا الشرقية ماثلة دائماً هنا. إني أحس بها عندما أزور ڤولف، الذي يقيم الآن على مسافة شارعين مني، في طابق علوي تحت الجمالون، كان سابقاً محترفه. انتقل إلى هناك بعد انفصاله عن أُنّيت قبل خمس سنوات، لأن العلاقة الزوجية بمفهومها البرجوازي كادت تخنقه. إلى جانب زاوية شغله ثمة سرير وطاولة طعام مستديرة وكرسيان، ودوش ركّبه بنفسه ومرحاض معزولان بستارة، ويقول إن هذا يكفيه تماماً. إنه ضد كل مظاهر الرفاهية والاستهلاك والتبعية للمال والوضع الاجتماعي. يريد أن يعيش قنوعاً وحراً، تماماً كما كان في بدايته في المتجر الصغير. كل ما عدا ذلك كان توفيره في الواقع صعباً، لأن ڤولف منذ سقوط الجدار لم يعد يكسب ما يكفي، وراتبه التقاعدي لا يتعدى ستمئة يورو في الشهر. من حيث الأمور المالية، يقول ڤولف، كانت الأوضاع في (ج.أ.د) أكثر معقولية بمراحل من الآن، لأن أموراً كالسكن والطعام كانت تقريباً مجانية، والرفاهية وحدها كانت مكلفة. كنا نحثه دائماً على التفكير في المستقبل والشيخوخة، لكنه رفض إيلاء المستقبل أي اهتمام. «آمل أن أموت في الستين، فلا رغبة لدي في أن أتعفن في دار المسنين»، كان يقول لنا. إنه الآن في السادسة والستين وصحته ممتازة.

كان يصعب عليَّ رؤية ڤولف في تلك العلّيّة البائسة، لذلك كنت غالباً أدعوه إلى بيتنا. ومقارنة بفقره يبدو لي وضعنا المرفه مبالغاً فيه جداً. فيتنابني دائماً الشعور بضرورة أن أجد تبريراً لوضعي. لربما كنت أنا مَن يعاني هذه المشكلة أكثر منه، فهو فعلاً يكتفي بالقليل. لديه الآن صديقة شابة إلى حد كبير، والكثير من الوقت. ويقول إنه منذ مدة طويلة لم يشعر بجمال العيش كالآن.

وفي (ج.أ.د) أيضاً، كان لدى ڤولف الكثير من الوقت، أو هكذا بدا

الأمر لي دائماً. كان يكسب جيداً، ولهذا كان بمقدوره أن يعمل بضعة شهور في السنة فقط. وفيما تبقى من الوقت كان ينتج فناً ويذهب في إجازات؛ إذ كان لدينا بيت صغير بحديقة كبيرة في باسدورف شمالي برلين، حيث كنا نمضي إجازة الصيف طوال شهرين، وغالباً شهر إجازة الشتاء أيضاً، فولف وآنيت وأنا وأخي الصغير موريتس. كنا نخرج في مشاوير طويلة على الدراجات أو في الزورق أو على الزلاجات. اليوم تبدو لي طفولتي كلها إجازة بلا نهاية. كان فولف يجيد اللعب بكرة القدم وتسلق الأشجار وبناء المغاور والغطس طويلاً. وقد أردت أن أغدو مثله ولو قليلاً، حراً وقوياً.

كانت آنّيت أهدأ من فولف بكثير وتفوقه تعقلاً، ويبدو أنها لم تكن تعتدّ كثيراً بأهميتها، ربما لأن هذا هو شرط العيش مع رجل يعتبر نفسه مركز الكون. عندما أعود بذاكرتي إلى طفولتي أرى أمامي امرأة تجلس في الزاوية مع كتاب وكاس شاي وهي تبث من حولها هدوءاً عميقاً ورضى، بحيث أن إخراجها من استغراقها يتطلب، بلا شك، أن يكون الأمر على شيء من الأهمية. تقول آنّيت إنها في بداية الأمر لم تعرف كيف عليها التصرف حيالي، فقد كانت في الحادية والعشرين عندما وُلدتُ، وفي صور تلك المرحلة بدت آنّيت مثل أميرة هشة، يُفضَّل ألا تختلط بالعالم الحقيقي حفاظاً على سلامتها. هناك صورة تحملني فيها على ذراعها، ووجهها الجميل الشاحب ملتفت عني قليلاً، وعيناها السوداوان تنظران بحنين إلى الخواء. وعندما بدأتُ بالقراءة أخذت تبدي اهتماماً حقيقياً تجاهي، فوضعت بين يدي الكتب، التي قرأتها بحماسة كبيرة في طفولتها، وكان يسعدها جداً أن أبدي الحماسة نفسها في قراءتها.

عندما تَعرفتُ على فولف تأثرت بطبعه المتمرد الخشن. فقد كان مختلفاً كلياً عن الرجال الذين التقتهم حتى ذلك الحين؛ كان وقحاً، فناناً، يكسر القواعد التي كانت هي تراعيها دائماً. ثم إنه رجل وسيم بعينين

مرحتين وسكسوكة وصَمْته بشيء من الجسارة. عندما خرجا معاً أول مرة، مشيا عبر الحديقة العامة المغطاة بالثلج، التي تبدأ عند نهاية شارعي. كانت الدروب زلقة وأنّيت كانت كعادتها دائماً ترتدي الحذاء غير المناسب. أمسك ڤولف بيدها وقادها عبر الحديقة، وبطريقة ما تبين لها أنها قد وجدت حاميها الذي لن يتركها بعد الآن.

تحدثا في السياسة وعن البلد الذي يعيشان فيه. أوضح لها ڤولف أنه يجد (ج.أ.د) مريعة وأنه يشعر باستياء كبير وبعبء يثقل على كاهله لكون هؤلاء الرجال العجائز أوصياء عليه. أخبرته أنّيت أنها عضو في الحزب، فتوقف ڤولف وترك يدها وسكت. لاحقاً قال: «من المستحيل أن تكتمل الأمور الجيدة». كانت بداية حب طويل وخلاف طويل. وهذان الجانبان كانا دائماً متداخلين عند والديّ.

حكت له أنّيت عن أبيها غرهارد، الشيوعي الذي ناضل في فرنسا ضد النازيين. رسمت له صورة بطل رقيق يحب الحزب وابنته. وحكى لها ڤولف عن أبيه ڤرنر، النازي الصغير الذي تحول إلى ستاليني صغير. عن رجل لا يعرف عنه الكثير وقد قطع علاقته به. قال ڤولف إنه تمنى حينها لو يجد أباً جديداً. وقد أعجبه البطل الرقيق، الذي حكت أنّيت عنه.

عندما دعي ڤولف أول مرة من قِبل والديّ أنّيت، استفسرا منها عما إذا كان عضواً في الحزب، ولما نفت ذلك، اكفهر وجه غرهارد، وقالت الأم ناصحة: «ما كل حب جديد يجب أن يؤخذ على محمل الجد». واليوم يقول ڤولف إن الأمر في جوهره قد بُت فيه منذئذ، حتى قبل أن يقابل أبويها، فيما تقول أنّيت إنه يبالغ.

على كل حال، كانت هناك حفلة عيد ميلادها مع عشاء عند والديها في فريدريكس هاغن. في الليلة السابقة لم تنم أنيت كفاية، لأنها استدعيت

مع طلبة آخرين في مهمة اشتراكية هدفها تقديم المساعدة في مؤسسة الخطوط الحديدية، وتحديداً لإزالة الثلج عن بعض التحويلات. لكنهم عملياً لم يفعلوا شيئاً لأن عدد المجارف كان قليلاً. ووجدت أنيت أن من الغباء استدعاءهم كطلبة إلى مثل هذه المهمات، ما أدى إلى إثارة غضب غرهارد، وعلق قائلاً: «في الحياة الاشتراكية، عندما تواجهنا مشكلة فعلى الجميع تقديم المساعدة». وكان صوته قاسياً على غير عادته، ولم تفهم أنيت ردة فعله هذه. دافعت عن موقفها، وتوالدت الكلمات من بعضها، وفولف يتابع صامتاً متسائلاً في نفسه عما إذا كان هذا الرجل هو حقاً ذاك الذي حكت عنه أنيت كل تلك الأشياء الإيجابية. وفي لحظة ما التفت إلى أنيت قائلاً: «عندما تحتد المواجهة بهذا الشكل تكونين إذاً على الجانب الآخر من المتاريس». سمعتُ هذه الجملة لاحقاً مرات عديدة، غالباً من فولف، الذي كان يستشهد بها مراراً وتكراراً كدليل على أن غرهارد يتحمل مسؤولية عدم لم شمل الأسرة وعدم منحها الفرصة لتنمو مع بعضها. عندما تناولنا في المدرسة موضوع الثورة الفرنسية رأيت في كتاب التاريخ صورة للمتاريس في شوارع باريس، فتخيلت والدي على هذا الجانب وجدي على الجانب الآخر، ولم أعرف إلى أي جانب أنتمي. كل ما أردته هو أن يتحمل الجانبان أحدهما الآخر فنغدو أسرة حقيقية، من دون متاريس.

جمعت أنيت ثيابها وأخذت لحافاً سميكاً وانتقلت إلى متجر/ مسكن فولف. حاولت أمها جهدها لإقناعها بعدم جدوى الحب الجديد. قالت لها إن فولف فنان لعوب، لا يمكن الاعتماد عليه، ثم إنه من وجهة نظرها لا يتمتع بذكاء لافت. ولم يوقف والداها المعركة إلا عندما علما بأنها حامل. تمت عملية الزواج في دائرة الأحوال الشخصية في منطقة برنسلاوَربرغ. في صورة الزفاف تظهر أنيت مرتدية ثوباً قصيراً موشى بالورود، ومن تحته يظهر انتفاخ بطنها قليلاً. وقد عقصت شعرها في أعلى رأسها فبدت مثل

صبية صغيرة. بدا ڤولف في بدلة داكنة اللون، وعلى وجهه ابتسامة ساخرة، وإلى جانبه يقف غرهارد بنظرة جادة.

أقيمت حفلة الزفاف في البيت الصيفي لوالدي آنيت، حيث أشرف صديق فرنسي للعائلة على شي السمك المتبل إضافة إلى حلزون مقمَّر وخبز فرنسي طويل وزيتون وزجاجة نبيذ بوردو أحمر. تحدث الضيوف بالإنكليزية والفرنسية، وكانوا يرتدون بزاتٍ ثمينة ويحكون النكات عن (ج.أ.د). وقد أعجب ڤولف بهذا المجتمع، لا سيما وأنه لم يحضر حفلة شواء سابقاً. لم يكن يعرف أن الحلزون يؤكل، ولم يسبق له أن رأى مطحنة فلفل يُخرِج منها حبات الفلفل، ثم لا يدري ماذا بعد. ضحك الآخرون فاحمر خجلاً. عرّفته آنيت على أصدقاء والديها، الذين كانوا كتّاباً أو صحفيين عاشوا خلال الحكم النازي في المنفى، في فرنسا أو أمريكا أو المكسيك أو الصين. استمع ڤولف إلى قصصهم عن النضال والهروب والآلام. إنهم نوع من البشر الذين لم يسبق له الالتقاء بهم. أبطال وناجون من أطراف الدنيا الواسعة والنائية وجدوا وطنهم الجديد في (ج.أ.د) الصغيرة. فهم هنا لم يعودوا ملاحقين، بل آمنين مطمئنين. وحكاياتهم مختلفة كلياً عن حكايات أسرته. بدا له كل شيء غريباً. تساءل في نفسه، عما إذا كان سينتمي ذات يوم إلى هؤلاء الناس، إلى هذه العائلة، إلى هذه الزوجة التي تزوجها تواً. رفع غرهارد نخبه دون أن ينظر إليه. شربوا نخب الزواج السعيد والحياة المديدة.

2. أسرار

كنت أجد الأمر رائعاً، كون آنيت أصلاً من الغربية. لقد منحها هذا خصوصية ما، ولي أيضاً. في طفولتي كنت أحياناً أفرغ حقيبة يدها وأتفحص كل ما بداخلها من أشياء. قرأت في بطاقتها الشخصية: من مواليد دوسلدورف بتاريخ 25/ 2/ 1974. وشرحت لي آنيت أن المدينة تقع في محافظة راينلاند وأنها ثرية جداً. كنت أعرف أن الخالة هَنّا والخال باول يعيشان هناك في دوسلدورف. عندهما سيارة ماركة فورد كومبي بيضاء، وقد أهدياني مرة قطاراً ماركة كريرا، ما زلت شاكراً لهما إياه حتى اليوم. لكني لم أفهم قط كيف خطرت في بال آنيت هذه الفكرة الغبية للانتقال إلى الشرقية. كنت أعرف بوجود أناس انتقلوا من هنا إلى الغربية. لكني لم أسمع مطلقاً بأناس مشوا بعكس الاتجاه بمحض إرادتهم. فقالت آنيت إن عليَّ أن أفرح بذلك، إذ لو أنها بقيت في الغربية لما كنتُ ولدت. وبدا قولها منطقياً.

عندما كانت آنيت تعيش في دوسلدورف، كانت تقف أحياناً مع جدة أمها بِرتا على النافذة لتشاهدا المشاة المتجولين في الشارع. كانت برتا تقسم المشاة إلى مُرَتبين وغير مرتبين، وتميز غير المرتبين منهم بكونهم يطوّحون بأذرعتهم في أثناء مشيهم.

كانت عائلة آنيت تسكن في منزل فخم واسع جداً في ساحة يورغن، خُصص لغرهارد عقب عودته من فرنسا. فاعترافاً بنضال غرهارد في صفوف المقاومة الفرنسية، تم ترفيعه لرتبة ملازم في الجيش الفرنسي، والضابط في سلطة المنتصرين كان يُخصص في ألمانيا بمسكن يليق بمكانته. قبل ذلك كانت تقيم في المسكن عائلة نازية اعتقلها الجيش الإنكليزي. فحاز والدا آنيت على المفروشات، إذ لم يكن لديهما أي شيء. لا شك في أن العيش بمفروشات العدو يبدو مستغرباً جداً، ولكن لربما كانت مشاكلها آنذاك مختلفة كلياً. هناك صور طفولية لآنيت تظهر فيها مستلقية على فروة دب بني اللون، سمّاها غرهارد "فروة دبنا الآري". كان يعمل صحفياً في جريدة "حرية"، حيث كانت نورا، والدة آنيت، تشغل منصب سكرتيرة أيضاً. في عطلة نهاية الأسبوع كانت آنيت تذهب مع أبيها غرهارد إلى المسبح، فترمي مشطها في البركة، فيلتقطه لها من القعر مثل فقمة مدربة. مساء قبل النوم، كان غرهارد يغني أغنيات الفدائيين القديمة أو يعزف على الأكورديون. وهو يجيد رواية القصص ورسم صورٍ لها في الوقت نفسه. فكان بالنسبة إلى آنيت أروع أب في الدنيا.

ذات يوم اختفى غرهارد. وقالت الأم إن عليه إنجاز عمل في مدينة أخرى وسيعود قريباً. كان الوقت دون غرهارد مملاً، فالأم لا تجيد العزف على الأكورديون ولا رغبة لديها في رواية القصص. بعد أسبوعين، في شباط / فبراير 1952 سافرت آنيت مع أمها في إجازة للتزحلق على الثلج إلى أوبرهوف في غابة تورينغن. نزلتا في الدار الحزبية "إرنست تِلمَن" المخصصة لإجازات الحزبيين وانتظرتا غرهارد الذي جاء بعد يومين. احتفلوا معاً بعيد ميلاد آنيت الرابع. في مساء اليوم نفسه جرى حديث بين الأبوين. قال غرهارد إنهم لن يعودوا إلى دوسلدورف، لوجود خطر أن يُعتقل هناك. ومنذ الآن سيقيمون في برلين الشرقية، والرفاق قد هيؤوا كل

شيء. لم تطرح نورا أية أسئلة، فقد اعتادت على وجود أمور من الأفضل ألا تعرفها. أتاهم سائق ونقلهم إلى برلين في ڤولغا سوداء وأوصلهم إلى منزل في شارع پريغل في حي پرنْسلاوربِرغ. المنزل مؤثث ومفروش بكامله، إضافة إلى بعض الأغراض التي وصلت من دوسلدورف. حصلوا على بطاقات هوية جديدة بأسماء جديدة. منذ الآن سيحملون اسم أوزڤالد، وثمة رفيقان شرحا لهم أن من الأهمية بمكان نسيان الاسم القديم بأسرع ما يمكن. بعد شهرين جاءت جدة آنيت من دوسلدورف للزيارة، وأخبرت آنيت بأن من المألوف جداً استخدام اسم جديد عند الانتقال إلى مدينة جديدة، فوجدت آنيت الكلام معقولاً جداً.

لاحقاً، وفي إطار العائلة، كان الانتقال المتعجل إلى برلين يُشرح دائماً بأن غرهارد، بصفته شيوعياً في الغرب، كان ملاحقاً، ولهذا رأى الحل الأفضل في المساهمة في بناء (ج.أ.د) بدلاً من التعرض لمضايقات وإزعاجات الرجعية. وأنا لم أعرف السبب الحقيقي للفرار إلى الشرقية إلا بعد انهيار (ج.أ.د)، عندما رُفعت السرية عن أسرار جدي.

قرب المنزل في برلين هناك فسحة واسعة للعب، يتجمع فيها كثير من الأطفال بعد العصر ويسرحون في الجوار دون آبائهم. بالنسبة إلى آنيت كان هذا جديداً ومثيراً، وسرعان ما نسيت دوسلدورف. وفي الجوار توجد مجموعة طلائع، حيث يمارس الطلائعيون أشغالاً يدوية ويغنون. والداها كانا يحكيان لها أنهم يعيشون الآن في بلد، كل الناس فيه أحرار ومتساوون، بلد يحكمه الأخيار، حيث لا حاجة حتى لأبيك إلى أن يشعر بالخوف. وبعد سنتين انتقلت العائلة إلى حي فريدريكس هاغن في برلين واستعادت فجأة اسمها الأصلي ليو، وقال لها أبواها إن عليها ألا تخبر أحداً إطلاقاً أن اسمهم كان أوزڤالد، كي لا يعثر الأشرار عليهم. كان لدى آنيت كتاب أطفال مفضل، عنوانه "القرد أوزڤالد"، فلم تعد تجرؤ على

قراءته. وفي فريدريكس هاغن أخبر الوالدان الجيران الجدد أنهم قادمون من دوسلدورف مباشرة. وذات مرة صادفت مالكة البيت آنيت على الدرج وسألتها، لماذا تتكلمين بلهجة برلين؟ تجمدت آنيت رعباً ثم قالت: «في دوسلدورف أيضاً يتحدث الناس هكذا».

بعد ستين سافرت آنيت مع أبويها وأختيها بالقطار إلى دوسلدورف، وكانت تلك آخر زيارة للعائلة في الغرب. على الحدود في هِلمْشْتِت فُتح باب المقصورة في القطار ودخل رجل سمين وطلب الهويات، قلّب صفحات كتاب أسود بين يديه وسأل الأم عن الاسم الأول لزوجها. ولدهشة آنيت الكبيرة رفضت أمها إعطاءه أي معلومة. غضب الرجل وكرر السؤال عدة مرات. وفي لحظة ما توقفت نظراته عند آنيت، فأخذت هذه تتحرك في مقعدها جيئة وذهاباً وضغطت شفتيها على بعضهما بشدة. كانت خائفة، إنْ هي شقت شفتيها ولو قليلاً، أن تبوح باسم أبيها السري، على ما يبدو. مرت الثواني طويلة وغير محتملة تحت النظرة المتفحصة للرجل ذي البذلة الرسمية. أخيراً أغلق موظف الحدود الألماني الغربي الباب وراءه بغضب وذهب.

كل هذه الأسرار، وهذا الخوف من أن الأشرار سيأخذون أباها الحبيب، لا شك في أنها قد وسمت آنيت بطابعها بعمق. وقبل أن تتمكن من استيعاب ما يجري حولها بوقت طويل، كانت الحرب الباردة قد تسللت إلى عالم طفولتها وجعلت منها رفيقة حزبية. العالم بالنسبة إلى آنيت يُقسم إلى معسكرين. هناك الأخيار، الذين يأتي أبوها في مقدمتهم، وهناك الآخرون الذين يخشاهم المرء ويكافحهم، مثلما فعل أبوها ومثلما فعل أصدقاء أبيها، ومثلما يجب أن يفعل في الواقع كل مَن يشعر ولو بذرة أخلاق في نفسه. ولفترة طويلة كانت آنيت تفكر في أن (ج.أ.د) مليئة بأمثال هؤلاء المناضلين الشجعان، إلى أن أدركت، أنها وعائلتها ينتمون

إلى أقلية صغيرة، أمسكت بزمام أمور السلطة في (ج.أ.د) وتشعر بنفسها رغم ذلك غريبة في ألمانيا هذه، التي طُردت منها منذ مدة ليست بعيدة.

في فريدريكس هاغن يعيش في الجوار رجل بالغ الطول، أبيض الشعر، عنده كلب صيد إنكليزي، يسمح للأطفال أحياناً أن يربّتوا عليه، ويسمح لأنيت تحديداً بأن تقوده من رباطه. كان المسنُّ يفتح مع أنيت أحاديث جادة، ودعاها ذات يوم إلى بيته. لا بد من أنها كانت حينها في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها، وشعرت بنفسها موضع مجاملة سخية. قدَّم لها شراب الشوكولا ساخناً مع قطع بسكويت، وأخذ يحكي فجأة عن ليلةٍ احترق خلالها في برلين عدد كبير من الأبنية. كان الرجل منفعلاً وأكد مراراً: «كم أسفتُ لرؤية متاجركم والنيران تلتهمها!». استغربت أنيت حديث الرجل. كانت يداه تشقان الهواء وهما ترسمان حركة تطاير لفائف القماش المشتعلة في الهواء، وخُيِّل إليها أنها ترى في عينيه لهيب حريق تلك الليلة. فعارضته قائلة إن أبويها لم يسبق أن امتلكا أية متاجر. «لكن المتاجر كلها كانت ملككم». قال الرجل، وتابع كلامه عن فتاة كانت تعيش في منزله، وتشبه أنيت كثيراً، ويؤسفه أنها قد "ذهبت".

عادت أنيت إلى البيت مرتبكة حائرةً، وأخبرت والديها عن اللقاء الغريب. فانفعلا هما أيضاً إلى درجة كبيرة وفسَّرا لها الأمر بأن الرجل يقصد ليلة الكريستال بلا شك، «فبما أننا يهود، يعتقد الرجل أننا كنا نملك متاجر». قال غرهارد. لكن أنيت لا تعرف معنى أن يكون الإنسان يهودياً. كل ما تعرفه هو أن غرهارد اضطر إلى مغادرة ألمانيا وهو لايزال طفلاً. انتابها توجس غريب، إحساس بالعجز والغربة.

في الطابق الأسفل من العمارة التي يسكنون فيها، تسكن عائلة هولتسمَن التي يقول والدا أنيت إنها يهودية. السيد هولتسمن كان في معسكر الاعتقال آوشفيتس وفقد عائلته هناك. بعد مدة تزوج مجدداً وجاءه

صبي أسماه بنيامين وهو في عمر أنيت. ذات يوم دق آل هولتسمن بابهم، حاملين معهم خبز الفصح اليهودي المربَّع الشكل. تمنوا للعائلة فصحاً سعيداً وصحة وافرة. لم يرتح غرهارد ونورا لهذه الزيارة إطلاقاً، الأمر الذي لم تفهمه أنيت، لأن آل هولتسمن ودودون وقد أحضروا معهم طعاماً تعبيراً عن ودهم. سألت أنيت أمها عن معنى الفصح، فأجابتها بأنه مثل فصح المسيحيين واكتفت بذلك. من الواضح أنهم لا يريدون لأنفسهم أن يكونوا يهوداً.

شرح لي غرهارد مرة أنه قد ناضل في الحرب بصفته شيوعياً وليس يهودياً. وأنا أعتقد أن كون الإنسان يهودياً، يعني بالنسبة إليه، ألا تستطيع الدفاع عن نفسك، أن تكون ضحية. وحكى لي ذات مرة كيف هرب في تموز/ يوليو 1942 من قوات الجيش الألماني المتقدمة في فرنسا، بأن اختبأ لفترة في ملجأ للأطفال اليهود أقيم في قسم من قصر قرب ليموج. ذات يوم جاءت قوة من الشرطة الفرنسية إلى الملجأ لتأخذ جميع الأطفال معها. اختبأ غرهارد في غرفة في أحد أبراج القصر وأقفل الباب وأخذ يراقب من الأعلى مطاردة الشرطة للأطفال. إذ حاول بعضهم الهروب، لكن الشرطة اصطادتهم كلهم وحملتهم في شاحنات إلى معسكر اعتقال درانسي. عندما روى لي غرهارد هذه التجربة كان منفعلاً جداً. من المحتمل أن يكون منذئذ قد قرر ألا يكون طريدة سهلة، وأن يناضل في سبيل قناعاته. فأن يموت شيوعياً اعتبرَه أمراً مشرفاً، أما أن يُطارَد بصفته يهودياً فلا كرامة في ذلك.

لم تكن أنيت في طفولتها تعرف شيئاً عمَّا عانته عائلتها خلال العهد النازي لأنهم يهود. فهي لا تعرف ما مرت به أمها التي نجت من الترحيل القسري بأعجوبة في راينلاند. هي تعرف أن جدها مات في معسكر آوشفيتس، إلا أنها لا تعرف السبب إطلاقاً. كما أنها لم تطلع على قصة

أبيها إلا تدريجياً. لم يكن يروي لها إلا أحداث المغامرات التي تنتهي بانتصاره. مثل حكاية تفجير سكة الحديد، التي كان يُفترض أن تمر عليها قوات الاحتياط الألمانية، وسهره مساء حول نار المخيم مع الفدائيين ومشاركته في أغنياتهم الغزلية الماجنة، وحادثة قتله جندي من "إس إس" كان يطارده في الغابة. وكانت تشعر بالسرور لكون أبيها بطلاً ظريفاً. فالأبطال الآخرون الذين كانت تسمع عنهم في المدرسة، كانوا غالباً كباراً في السن وجديين. أما القصص المؤلمة والحزينة فكان غرهارد يحتفظ بها لنفسه. ذات مرة دخلت أنيت إلى الحمام فيما كان ينظف أسنانه، ولاحظت أن فكه العلوي خال من الأسنان القاطعة. وعندما سألته عنها وضع الجسر بسرعة فائقة في مكانه وسألها ضاحكاً: «أين تنقصني الأسنان؟». عندها عرفت أنيت أنها طرحت سؤالاً من الممنوعات وأن هناك أموراً لا يريد الخوض فيها.

كانت أنيت تفضل لو أنها مثل جميع الأطفال الآخرين؛ لكن الأمر ليس بهذه السهولة، وهناك دائماً ما يذكرها بأنها مختلفة. فهي الوحيدة في صفها التي لا تحضر درس الديانة، وهي الوحيدة التي يلقي أبوها في المدرسة محاضرات سياسية، ولأنها منذ البداية رئيسة مجموعتها في منظمة الطلائع. إنها مشحونة بشعور أنها تخدم القضية الصحيحة، إلى حد أنها كانت تُصوّب كلام المعلمين، إذا شعرت أن هذه العبارة أو تلك ليست ملتزمة تماماً بالخط الحزبي. بعض زملائها التلاميذ تجنبوها، فهي برأيهم تلك "الحمراء" الطموحة.

كانت أنيت قد بلغت الثالثة عشرة عندما انتقلت مع والديها إلى جنيف. إذ صار غرهارد مراسل وكالة الأنباء الألمانية الشرقية لدى منظمة الأمم المتحدة، ولأن الرفاق في برلين قرروا أن المدارس السويسرية غير ملائمة لأطفال ألمانيا الشرقية، بقيت أنيت في البيت وصارت أمها معلمتها.

ومن الشارع تعلمت أنيت الفرنسية، ثم الروسية عندما التحقت بمدرسة السفارة السوفييتية. في نهايات الأسبوع كانت العائلة تقوم بنزهات إلى الجبال أو إلى بحيرة جنيف للسباحة. بالنسبة إلى أنيت كانت تلك مرحلة مثيرة ومريحة. لكن ما استغربته هو أن الناس في الغرب ليسوا أشراراً أبداً، حسبما كانت تعتقد، كما أن الطبقة العاملة ليست مستغَلّة، بل غنية. فناظر العمارة، الذي يصلح في شقتهم بعض الأشياء أحياناً، يملك سيارة أكبر من التي يقودها أبوها.

بعد سنة، كان لا بدّ لأنيت من العودة إلى (ج.أ.د)، لأن مدرسة السفارة السوفييتية تنتهي بالصف السابع. أما والداها وأختاها الأصغر فبقوا في جنيف. كان على أنيت في الحقيقة أن تلتحق بمدرسة داخلية لأبناء الدبلوماسيين الألمان الشرقيين، غير أن والديها فضّلا إعادتها إلى جوها المألوف في فريدريكس هاغن، وقد قامت على رعايتها السيدة شِنك العجوز، التي انتقلت من الجوار إلى مسكن الوالدين. لم تعد الحياة الآن مثيرة، فغالباً ما كانت أنيت تشعر بالوحدة، لكنها قبلت بهذا كله، لأنه الأمر الواقع الذي لا سبيل إلى تغييره. إلا أنها تتساءل اليوم، كيف احتمل والداها تركها وحدها طوال سنتين، لمجرد أن الحزب قد قرر، أنه لا يجوز لأطفال ألمانيا الشرقية التعلم في مدارس غربية؟

كان أجمل ما في هذه المدة هي الإجازات، حين يكون في وسعها وحدها أن تطير إلى جنيف. فتجلس في الطائرة في الصف الأول وتترك للمضيفات أن يغمرنها بشوكولاتة سويس إير. ذات مرة كان عليها أن تبدل الطائرة في براغ، فاستقبلها سفير ألمانيا الشرقية في تشيكوسلوفاكيا، وهو صديق والدها، عند باب الخروج من الطائرة وخفف عنها وقت الانتظار في قاعة الترانزيت. وفي مرة أخرى جلس إلى جانبها في الطائرة فتى كوبي، فأغرمت به فوراً.

عندما أقيم الجدار في برلين في آب/أغسطس 1961، كانت أنيت في الإجازة الصيفية في جنيف، ولم تدرِ بما جرى تماماً. وأبواها فضَّلا أن توجد أخيراً حدود حقيقية، جدار حماية يبعد الأشرار عن الوطن. ولكن عقب عودتها من الإجازة لاحظت أنيت ما الذي جرى. زملاؤها في المدرسة، الذين لم يعد في وسعهم السفر إلى برلين الغربية وقفوا في الصف في مواجهتها، إذ عليها أن تفسر لهم لماذا ما زال بإمكانها هي تحديداً أن تسافر. كان الأمر كالمحاكمة، وشعرت بعدوانية الآخرين وبغضبهم. صاح بها أحدهم قائلاً: (ج.أ.د) سجن، وديكتاتورية منحطة، حيث لا يعيش جيداً سوى مسؤولي الحزب الشيوعي. كانت لوحدها في مواجهة المتمردين، وعليها أن تدافع عن أمر هي نفسها لم تستوعبه بعد. إنها وهي في الرابعة عشرة تقوم بدور سفيرة بلدٍ عليها الآن أن تُنقذ ريشه من النتف.

عندما عادت إلى البيت الواسع والفارغ من سكانه، أخذت تدور حول مائدة الطعام المرة تلو الأخرى، وهي تردد لنفسها الحجج، التي لم تخطر في بالها في غرفة الصف. ليس هناك من يمكن أن تتحدث معه حول هذه الأمور ويشاركها قلقها واضطرابها. الوالدان مسافران، وهي ترسل رسالة على الأقل أسبوعياً إلى جنيف، لكنها لا تكتب فيها شيئاً حول هذه التجربة. ربما لأنها لا تريد أن تشغل بال والديها.

عثرتُ على رسائل أنيت من تلك المرحلة في خزانة في دار جدي. إنها تسجل بخطٍ نظيف لفتاة يافعة كل مهمٍّ يجري في برلين. كانت مرةً في زيارة لصديقتها مونيكا شارف وشاهدت عندها في التلفزيون فيلماً عن تاريخ بطل المقاومة فرتر زيلنييندر، فكتبت: "عرض تلفزيوننا بعد العصر فيلم "واحد منا"، فانزعج السيد شارف لأن أولاده يشاهدون الحقيقة الآن. كان هناك مشهد يضرب فيه النازيون الشيوعيين بالهراوات، فعلق السيد شارف

قائلاً: «إنهم يبالغون جداً. هذا الفيلم رديء للغاية، لأن الحقيقة مختلفة». وعلقت السيدة شارف قائلة: «إنهم يزيفون الواقع في الفيلم، والناس يصدقون ما يعرض عليهم». ثم تخرج شبيبة هتلر في مسيرة في الفيلم، فقال السيد شارف: «هذا يشبه مسيرات الطلائع الشيوعية تماماً». لكنني أجبته: «سابقاً كان الأطفال مجبرين على الانتساب إلى شبيبة هتلر، أما في حال الطلائع الآن فهم أحرار. ثم إن الطلائع يتربون على حب السلام، وشبيبة هتلر على العكس». يوم الأربعاء ألقيت نظرة على بعض كتب مونيكا، كان بينها كتاب بعنوان "كتاب الصبايا" قرأت فيه الجملة التالية: رابطة الصبايا هي جزء من الحركة القومية الاجتماعية، فقلت لمونيكا: «دعينا نطمس عبارة القومية الاجتماعية، كي لا يقرأها أحد بعدنا». وفعلنا ذلك.

يبدو وكأنها منذ الرابعة عشرة من عمرها كانت تشعر بالمسؤولية تجاه دولتها، تجاه الحقيقة التاريخية. وكتبت في رسالة أخرى: إني أتجادل كثيراً هذه الأيام مع مونيكا حول أمور سياسية. لا شك في أنكم سمعتم أن الأمريكيين على الحدود يريدون استفزازنا وأن كتائب بكاملها قد تخطت حدودنا ثم عادت. في أثناء ذلك دُهس شرطي من جانبنا. تحدثنا في المدرسة حول الموضوع، وسألت مونيكا عن رأيها، فأجابت إنها قد شاهدت ذلك في التلفزيون، وأن الأمريكيين تحركوا حتى الحدود فقط، ولم يُدهَس أي شرطي. تبينتُ من كلامها أنهم يستقبلون بث التلفزيون الغربي، وهذا ممنوع.

بعد ذلك بأسبوعين كتبت أن عائلة هولتسمن اليهودية، التي تسكن في العمارة نفسها قد هربت إلى الغربية. صباح اليوم، قبل ذهابي إلى المدرسة بقليل، قُرع بابنا. فتحته فوجدت أمامي رجلين من شركة نقل مفروشات يريدان نقل أغراض من عند عائلة هولتسمن. سألا عما إذا كانت العائلة موجودة. فأجابتهما الخالة شِنك: «الصبي بنيامين ذهب إلى المدرسة وإن

لم يفتح أحد لكما الباب، فهذا يعني ألا أحد هناك». بعد أن ذهب الرجلان قالت لي الخالة شنك: «مؤكد أن السيدة هولتسمن موجودة، لكنها لا تفتح الباب إن لم تكن مرتدية ثياباً لائقة». وعندما عدت من المدرسة إلى البيت كان باب عائلة هولتسمن مختوماً، لأن آل هولتسمن صاروا في الغربية. لم تدرك أمي أنيت في ذلك الحين أن عاملي شركة النقل كانا في واقع الأمر من المخابرات، وأن الخالة شنك بكذبتها الصغيرة ربما قد سهلت عملية هروب آل هولتسمن. لكن مسألة الهروب إلى الغربية شغلت بالها كثيراً. في رسالة كتبتها قبل عيد الميلاد بقليل تتحدث عن أحد زملائها في المدرسة، الذي هرب مع عائلته كلها إلى الغربية. وفي خاتمة الرسالة وردت الملاحظة التالية: لا أعرف لماذا يفعلون ذلك.

3. قناعات

عندما بلغت أنيت السابعة عشرة، أوفدتها مدرستها لحضور اجتماع على مستوى المنطقة للحزب الاشتراكي الألماني الموحد (الشيوعي). كانوا يجلسون جميعهم معاً في صالة واسعة، يحصلون على شطائر بلحم فخذ الخنزير وقهوة، ويستمعون لمحاضرات يلقيها رفاق مهمون. ورئيس فرع الحزب في برلين كان موجوداً أيضاً، وقد قال إن أفضل وأنضج تلاميذ المدينة مجتمعون اليوم في هذه الصالة، وذلك لوجود عدد من القضايا الجادة والمهمة المطروحة للنقاش. كان الجو احتفالياً، وكأنهم سيطّلعون فوراً على شؤون الحزب السرية. أحست أنيت بنوع من الفخر يغمرها لوجودها هي بالذات هنا بين المتفوقين. وقد اطلعت على أن (ج.أ.د) تواجه مهمات جسام، لا يمكن القيام بها بنجاح إلا بمساهمة الشباب النشيطة. لقد انتهى وقت الفرجة، قال رئيس فرع الحزب، وجاء الآن وقت العمل من أجل البلد والسلام. صمت برهة، التفت يميناً ويساراً، ثم قال بصوت عميق: وشرط ذلك هي أن يكون الإنسان عضواً في الحزب. عندما سمعت أنيت ذلك ضحكت لا إرادياً وبصوت عال. نظر إليها بعض التلاميذ مفاجئين، بالإضافة إلى صدمتها هي نفسها من ردة فعلها. لكن محاولة الدعاية الحزبية هذه بدت لها خرقاء وفجة، بحيث أن الفخر الذي

أحست به قبل قليل، تلاشى فجأة. كانت مستعدة لتوها لتقديم كل شيء من أجل السلام والبلد، فإذا بها الآن، تهدىء نفسها لكونها ما زالت في السابعة عشرة، ولا يُقبل لعضوية الحزب إلا من بلغ سن الرشد.

بعد المحاضرات طُلب إلى الجميع كتابة قصيدة حول موضوع "يجب أن أحسم أمري"، ومن ثم أجريت حوارات فردية. وجدت أنيت نفسها فجأة مقابل خمسة رفاق يسألونها عما إذا كانت تتصور نفسها مرشحة لعضوية الحزب. فأجابت أن في مقدورها تصور ذلك بجلاء شديد، ولكن بما أنها في السابعة عشرة من عمرها فحسب، فعليها تأجيل الموضوع لسنة أخرى. حدق أحد الرفاق في عينيها وقال، إن من الممكن في حالتها إجراء استثناء، هناك إمكانية لطلب موافقة خاصة من اللجنة المركزية للحزب. شعرت أنيت بقلبها يخفق بشدة، فقد حمّستها هذه الإمكانية. موافقة خاصة من اللجنة المركزية من أجلها! أخذت تتخيل مدى دهشة أبيها، بل مدى دهشة الجميع. وقّعت من فورها على الطلب، وغادرت الغرفة فرحة مرحة بإحساس من خاض لتوه تجربة عظيمة. في ختام الاجتماع تحدث رئيس فرع الحزب في برلين ثانية واقتبس في كلامه بعض ما جاء في قصيدة أنيت. جلست أنيت برأس مرفوع متورد وكأنها في حلم. في طريق عودتها إلى البيت تأملت أنيت انعكاس صورتها في فترينات المحلات وهي تشعر بنفسها مختلفة وتفكر في أن ذلك لا بد أن يتبدى بطريقة ما. وقالت لنفسها إنها منذ الآن لن تعاني أحزان الحب وما شابه ذلك من أمور سخيفة، فسرعان ما ستصبح رفيقة.

الحزب بالنسبة إلى أنيت كان أكثر من منظمة، أكثر من الناس الذين يجمعهم. إنه كيان يكاد يكون خارقاً للطبيعة، شيء ما بالغ العظمة ومنفصل عن الحياة العادية. عندما كانت أنيت تسمع أهلها يتحدثون عن الحزب كانت تحس بمدى الاحترام والإيمان والإخلاص. عندما يتكلم

أبوها عن الحزب يكتسب صوته وقعاً خاصاً، فيصبح أكثر خفوتاً وحذراً ووضوحاً، ولكأنما ينصت الحزب الآن إليه وقد ينبهه بسبب فكرة خاطئة أو زلة لسان. فالحزب هو الحقيقة المطلقة والحكمة المطلقة، ولهذا لا يخطر إلا في بال أعداء الحزب أن ينتقدوه أو أن يظنوا أنفسهم أذكى منه. بعض أعضاء الحزب قد يتخاذلون بصورة فردية، أو قد يخطئون. أما الحزب فإنه لا يخطيء مطلقاً. وهذا الإيمان بالعظمة الكلية، بالقضية - حسب تعبيرهم آنئذ - كان عزاءها عندما سينتابها اليأس أحياناً هناك لاحقاً من تفاهة وابتذال الحياة اليومية في (ج.أ.د). تقول أنيت إنها آنذاك كانت مستعدة لتقديم حياتها خدمة للحزب، ولأن تتلاشى فيه.

عندما تحدثني أنيت اليوم عن هذه الأمور، تأخذ أحياناً بالبكاء. ربما نتيجة الغضب من سذاجتها المفرطة حينها، وربما نتيجة الشعور بالخيبة لفشل التجربة، لكون تلك الدولة وذلك الحزب اللذين استنزفا الكثير من طاقتها قد اختفيا هكذا ببساطة. أنا أعتقد أن علاقة أمي بتلك الدولة كانت مثل حب المراهقين، تعيسة. كصبية فتية كانت متوقدة شغفاً بـ (ج.أ.د) واحتاجت إلى حياة بأكملها لتتحرر منها. يصعب عليَّ استيعاب ذلك كله، أن أرى أمي الذكية والرصينة لا تزال، بعد عشرين سنة على نهاية (ج.أ.د)، حزينة على حبها الكبير الأول. كم كان متجذراً في داخلها، هذا الأمل، هذه الإرادة المطلقة للمساهمة في تحرير العالم من الشر. أنا شخصياً لم يصبني الكثير من هذا الإيمان. قد يعود السبب في ذلك إلى أنه لم يعد بتلك القوة عندما بلغتُ السن الذي تبدأ معه السياسة بلعب دورها. ويحتمل أيضاً أنها أعفتني منه، عن وعيٍ بصعوبة مقاومة قناعات الأبوين.

يا لغرابة أن يُجري المرء مقابلة مع أمه! أن يراها تقاوم الدموع. جلست أنيت في غرفة مكتبها، في المقعد الذي كانت قماشته ذات أقلام صفراء وبنية، وغُلف الآن بقماش صوفي رمادي. أرادت أن تقول شيئاً

لكن صوتها غاب تحت ضغط المشاعر التي تبقى ملتصقة بالذكريات. ما كنت في الأحوال العادية لأتابع طرح الأسئلة، ما كنت لأزعجها، فالأبناء متعودون على مراعاة المشاعر، على كبح الفضول، فهم لا يريدون أن يروا أمهاتهم يبكين. لكنني نبهت نفسي إلى أني لم أعد طفلاً، بل باحث في تاريخ الأسرة يسأل إحدى أهم شخصياته. لم أسمح لنفسي بمعانقتها ولو رغبتُ في ذلك. تنفست أنيت بعمق ومسحت دموعها. رأيت التجاعيد الصغيرة حول فمها والشعر الرمادي الذي لا تصبغه إلا بشكل خفيف، لأنها ترفض أن تبدو مثل أمها، التي ما زال شعرها أسودَ فاحماً منذ أربعين سنة. بدت لي أنيت بعد عصر هذا اليوم أكبر من المألوف. ربما لأننا نتحدث عن شبابها. وأنا أحفظ في ذاكرتي هذه الصور، وجهها الفتي والعينين الداكنتين الواسعتين. وانتبهت إلى أن أنيت بالنسبة إليّ بقيت دائماً في العمر نفسه، امرأة بلا زمن. «حسناً، لنستمر». قالت، وعاودت الكلام.

أرادت أن تصير صحافية. فهي تعرف هذه المهنة من أبيها وتجد من الرائع أن الإنسان يتلقى راتباً لقاء كونه فضولياً. فالصحافيون كانوا بالنسبة إليها أناساً يتميزون بمعرفة واسعة جداً ويتقنون الكتابة بشكل مثير. ومثالها هو إغون إرڤين كيش[1]، المراسل الشهير الذي كان دائماً يبحث عن الحقيقة ويجدها غالباً.

بدأت عملها متطوعة عام 1966 في (جريدة برلين)، وكانت في التاسعة عشرة من عمرها. ومجدداً وجدت نفسها مميزة، فالجميع يعرفون أباها، الذي كان موضع إعجاب، لا بصفته مناضلاً فحسب، بل كصحافي أيضاً. وهذا بالنسبة إليها ليس وضعاً مريحاً تماماً، فلا أحد يأخذها على محمل

(1) إغون إرڤين كيش (1885-1948) كاتب وصحفي من أصول نمساوية وتشيكوسلوفاكيا، كان يكتب في ألمانيا، عرف بأسفاره الكثيرة وقيامه بتطوير كتابة التقارير الصحفية، ومعارضته لهتلر.

الجد، لأنها دائماً ابنة فلان. لكن الأسوأ من ذلك بكثير كانت خيبة أملها بأسلوب عمل هذه الجريدة. ففي اليوم الثاني شاركت في اجتماع، أوضح فيه رئيس التحرير الموضوعات التي لا تجوز الكتابة فيها حالياً. يطلق على هذه الاجتماعات اسم "جلسات نقاش" وهي تُعقد دائماً، عقب عودة رئيس التحرير من اللجنة المركزية، حيث يُحاط علماً بأجَدّ الممنوعات وإجراءات الرقابة. لا يتعلق الأمر هنا فقط بكيفية تصنيف وفهم أحداث معينة حزبياً، وإنما يعلن في الاجتماع عن المفردات غير المرغوب فيها منذ الآن، لأن العدو يروّجها، وعن المنتوجات التي ما عاد يسمح بذكرها، لفقدانها من السوق. قد تمر شهور يُمنع فيها الجميع من كتابة "غسّالة" أو "دواليب سيارات" مثلاً. "الديمقراطية الاجتماعية" اختفت من الصحف طوال سنتين، و"البرلمان" و"الجبهة الشعبية الأنغولية" مدة ستة أسابيع.

يتم وضع لوائح، تُحَدَّث يومياً، بما يجوز أو لا يجوز الكتابة عنه أو ذكره. ومع ذلك، إذا كتب أحدهم جملة مغلوطة أو تعبيراً مريباً أو كلمة غير مألوفة، يُعقد اجتماع يتوجب على الزميل فيه توضيح مصدر التأثير، الذي أدى إلى الغلط، ويُطلب منه التصريح بندمه. ذات مرة كتب محرر قديم من قسم المحليات إن الفحم البني عند احتراقه يولِّد سخاماً. هذه الجملة البريئة، ندَّد بها رئيس التحرير، لاحتمال قراءتها كنقد ضد تلويث الهواء في (ج.أ.د) بأفران ومدافىء الفحم البني. ولطالما كان الزملاء يُلقنون، مراراً وتكراراً، أن العدو لا ينام، وأن قسم الرقابة في اللجنة المركزية لا ينام أبداً.

في البداية عملت أنيت في قسم السياسة. كانت غالبية النصوص التي تنشر هنا بلاغات رسمية للحزب، تقدمها وكالة الأنباء الألمانية الشرقية، فلا يتبقى من عمل سوى لصقها. وهذه البلاغات لا يجوز اختصار أو تغيير أي شيء فيها. حتى الأغلاط الإملائية تترك كما هي، إذ لا يجرؤ أحد على

الاتصال باللجنة المركزية لمثل هذا الموضوع. لاحظت أنيت أن معظم رؤساء التحرير ليسوا صحافيين محترفين، بل حراس حزبيون يؤدون خدمتهم هنا في الجريدة. أما الصحافيون الجيدون فهم ليسوا في الحزب، الأمر الذي وجدته أنيت مستغرباً، إذ يُفترض أن يتشكل الحزب من النخبة. وبما أنه لا مكان لمقالات يكتبها المحررون، فليس ثمة ما يعملونه بوقتهم، ولهذا يبدأ الشرب في المكاتب منذ الظُهر. ومن يسكر غالباً هم رؤساء الأقسام. ويحاول الزملاء الإيقاع واحدهم بالآخر، وتحاك الدسائس والوشايات والتحريضات. وعلى الرغم من هذا كله، تصدر الجريدة.

صدمت هذه الأوضاع أنيت وأرعبتها. حكت عنها لأبيها، الذي كان حينها يدير قسم السياسة الخارجية في جريدة الحزب المركزية "ألمانيا الجديدة". سألته عمّا إذا كانت مثل هذه الأمور تحدث عنده أيضاً. وكعادته دائماً عندما لا تعجبه موضوعات بعينها، فإن غرهارد لا يجيب. وكعادتها دائماً، لا تكرر أنيت السؤال. لكن أحد أصدقاء أبيها شرح لها، أن الحال هو نفسه تقريباً في صحافة (ج.أ.د) كلها. وأضاف: «حيث يكذبون لا بد أيضاً من أن يسكروا». وابتسم بحزن.

في مساء 8 أيار/ مايو 1968، ألصقت أنيت كذبتها الأولى في الجريدة. كان عندها مناوبة مسائية وكانت جالسة إلى طاولة طويلة في قسم الأخبار. إلى جانبها كانت تشتغل الآلة الكاتبة عن بعد. ناولها رئيس القسم ورقة ذات لون أزرق فاتح، كالمستخدمة عادة في مراسلات الدوائر الرسمية داخلياً. غير أن اسم الجهة المرسلة لم يكن مذكوراً على هذه الورقة، فمصدرها بالتالي غير معروف. قال لها رئيس القسم إن عليها بسرعة أن تلصق الورقة على صفحة مسودة وتوصلها للتنضيد. لصقت أنيت الخبر وقرأته بسرعة فترددت مندهشة. كان عنوان الخبر "دبابات أمريكية في براغ". وورد في الخبر ما معناه أن مراقبين قد شاهدوا في شوارع براغ دبابات أمريكية.

كانت أنيت مطلعة على الأحداث الدائرة حينها في تشيكوسلوفاكيا، على حركة الإصلاح، التي سميت لاحقاً بـ"ربيع براغ"، كما تعرف خط التغطية الإخبارية المحلي. فجرائد (ج.أ.د) تكتب أن هناك قوى مناهضة للاشتراكية تتحرك في براغ وتحاول تحت غطاء التجديد إطاحة سلطة الشعب. لكن أنيت لم تبلور رأياً شخصياً حول أحداث براغ وما إذا كانت خطيرة حقاً. إلا أنها تعرف أن هذا الخبر لا يمكن أن يكون صحيحاً. فإذا كان الجيش الأمريكي قد دخل براغ فعلياً، فسيكون هذا خبراً كبيراً جداً، لن توردِه جريدتنا بهذه الصيغة المبسترة وعلى الصفحة الثانية. فذهبت إلى رئيس القسم وسألته عن المغزى من هذا النص. فأجابها: «لا تسألي، ضعي إشارتك عليه وأرسليه إلى "تحت"». أصرت أنيت على أن ثمة ما هو غير صحيح في هذه القصة. أشار رئيس القسم بيده نافياً وقال: «سلميه للتنضيد. كل ما عدا ذلك ليس من شأنك». أحست بانقباض واضطراب، لكنها نفذت ما أُمِرت به.

في اليوم التالي دهم الجريدة طوفان من رسائل الاحتجاج والمكالمات الغاضبة، حتى سفارة تشيكوسلوفاكيا احتجت. ورئاسة التحرير حولت المكالمات إلى أنيت. هي المتطوعة، عليها أن تفسر للقراء الغاضبين ما لا يُفسر. لم تجرؤ على التنصل من الخبر. وبعد أن انتهى الأمر أحست بنفسها بائسة تعيسة. فهي لم تستوعب بعد ما جرى ولا المغزى منه. بعد يومين ورد خبر آخر، مفاده أن ثمة أعمال تصوير لفيلم سينمائي تجري حالياً في براغ عن تحرير المدينة من المحتلين الفاشيين، والدبابات الأمريكية التي شوهدت في شوارع براغ هي جزء من الخلفية التاريخية. ففهمتْ أن الهدف كان توليد حالة قلق والإيحاء بالخطر والاستفزاز. فهمت أنها كانت في ذلك المساء برغياً صغيراً في آلة البروباغاندا الهائلة. واليوم تقول أنيت إنه كان عليها منذ ذلك الحين أن تقول وداعاً لمهنة أحلامها، لو تبين

لها آنئذ أن العمل الصحفي في (ج.أ.د) لا يمكن أن يقوم دون كذب. لكنها حتئذ لم تمتلك ذلك الوعي.

تتراءى لي قصص أمي هذه مثل حكايات الأشباح. لا يمكنني تصور تحمُّلها العمل طوال ستين في تلك الجريدة دون أن تفقد إيمانها بالخير. بعد ثلاثين سنة بدأتُ أنا العمل محرراً في "جريدة برلين"، وكان هذا أول عمل حرفي لي كصحافي. عندها كانت الجريدة تابعة لدار نشر كبيرة في هامبورغ، وكانت ظروف العمل في الواقع تماماً مثل التي حلمت بها أنيت، إذ إن كل صحافي فيها كان يكتب حقاً ما يريد. فالأمر الآن بات يتعلق فحسب بأن تطلع على أمور، وتكتب عنها في الجريدة بأسلوب مشوق. كان هناك زملاء في عمر أمي، يعملون فيها منذ ثلاثين سنة، ولا بد أنهم قد مروا بالتجارب نفسها التي مرت بها. كان بودي أن أعرف، كيف تعايشوا مع الأكاذيب وكيف تحولوا فجأة إلى صحافيين أحرار. لكني لم أجرؤ على سؤالهم، إذ بدوت لنفسي كمن عيَّن نفسه بنفسه قاضياً بطرح أسئلة، ربما لا أجوبة لها.

في آب/ أغسطس 1968، دخلت دبابات روسية شوارع براغ، ولم يتعلق الأمر هذه المرة بفيلم سينمائي، بل بواقع قائم. كانت أنيت تشتغل حينها مشرفة على الأطفال في مخيم العطلات التابع لجريدة برلين. دعا مدير المخيم إلى اجتماع أعلن فيه البيان الرسمي، الذي جاء فيه أن حكومة تشيكوسلوفاكيا طلبت المساعدة من الجيش السوفييتي. صدقت أنيت هذا التصريح، وبعد بضعة أيام عرفت من الإذاعة الغربية حقيقة ما جرى، أي أن الحكومة التشيكوسلوفاكية قد أسقطت بانقلاب عسكري سوفييتي، وأن رئيس الحكومة ألكسندر دوبشِك وزملاءه الوزراء قد تم ترحيلهم، وأن حركة الإصلاح قد قصم ظهرها ببساطة. شاهدت أنيت في تلفزيون الغربية صور المتظاهرين الجرحى الذين تصدوا للدبابات بجرأة في براغ.

سمعت عن قتلى ومصابين وأسرى. في تلك الأيام مات شيء في داخلها، لم تعرف كيف تسميه. أحست أنها تعرضت لخيانة وخديعة، لا من جانب بروباغاندا (ج.أ.د) فقط، بل الأسوأ، من جانب الأخ الأكبر في موسكو، الذي كان يبدو لها حليفاً عادلاً محباً للسلام. وفي مقر الجريدة في برلين قرأت صحيفة "الإنسانية"، جريدة الشيوعيين الفرنسيين، وعلمت أن الرفاق في فرنسا يحتجون ضد التدخل، فأحست ببعض الارتياح، لأن الإنسان، حتى الشيوعي، يمكن أن يعارض هذا الغزو.

كما سمعت أنيت أن بعض أصدقائها في برلين اعتقلوا أيضاً، لتوزيعهم مناشير ضد التدخل. والمقصود هو توماس براش[1]، زميلها في المدرسة، وأيضاً بِتّينا ڤيغنر[2] التي تعرفها منذ سنوات. كلاهما ينحدران من عائلات مشابهة لأنيت، ولطالما جلسوا معاً وتناقشوا حول الشيوعية و(ج.أ.د). إنها تعرف أن كليهما ليسا من الأعداء. وتساءلت في نفسها ما إذا كانت ستشارك في توزيع المنشورات، لو كانت في برلين وطلبا منها ذلك. إنها متأكدة إلى حد كبير من أنها كانت ستشارك؛ لا لأنها تملك فائض شجاعة، ولكن لاعتقادها أن مثل هذا الفعل لا يستحق أن يُسجن المرء بسببه. فعقوبة السجن تسري فقط على الآخرين الذين ينتمون إلى الأشرار. أما الآن فهي لم تعد متأكدة كالسابق، عندما كانت مقتنعة بأن أمثالها لا يمكن في الواقع أن يصيبهم شيء. لكنها فهمت الآن أن السلطة، في حالة الخطر، لا تميِّز.

رُحِّل توماس براش وبتينا ڤيغنر لاحقاً إلى الغربية. براش صار شاعراً مرموقاً وڤيغنر مغنية مشهورة. لكنهما قبل ذلك بقيا في السجن في (ج.أ.د)، لأنهما كتبا بعض المنشورات بقلم التخطيط: "ارفعوا أيديكم عن

(1) توماس براش: (1945–2001). مؤلف وشاعر ومخرج سينمائي ألماني.
(2) بِتّينا ڤيغنر: (1947 –)، كاتبة أغان ألمانية.

براغ الحمراء" و"(ج.أ.د) تحتاج لمثل دويشك"، ووضعها براش ليلاً في صناديق البريد في شوارع برنسلاوربرغ. فما كان من أبيه بالذات إلا أن أبلغ الشرطة عنه. هورست براش ينحدر مثل والد أنيت من عائلة يهودية، وكان خلال العهد النازي في المهجر في الغرب. إنها الحكاية نفسها والخلاف نفسه، ولكن النتائج في حال براش أكثر دارمية. تحدثت أنيت مع والديها عن الاعتقالات، فقال غرهارد إن التدخل كان ضرورة لا بد منها في سبيل القضية، ومن لا يستوعب ذلك فإنه لا ينتمي إليها. فأجابت أنيت بأنها إذاً لا تنتمي للقضية، لأنها كانت على استعداد للمشاركة في توزيع المنشورات. صُعق والداها واعتبراها بحكم الابن الضال. ولاحقاً لم يُذكر الموضوع بينهم على الإطلاق.

4. اتهامات

أرادت أنيت أن تدرس التاريخ. كان رأيها أن هذا سند قوي للعمل الصحافي. وستدرس لتحوز الاختصاص والكفاءة، وعندما تصير متخصصة في ميدان ما، فسيكون في مقدورها أن تكتب فيه في الجريدة، ولن يكون في وسع أحد التدخل فيما تكتب، لأن الكفاءة هي الأهم، حسب تفكيرها. وكانت إلى حد ما قد نحَّت جانباً تجاربها في "جريدة برلين" قائلة لنفسها: التعميم لا يجوز مطلقاً.

في أيلول/ سبتمبر 1968، بدأت الدراسة في جامعة هومبولت في برلين. وفي الأسبوع الأول مباشرة دعيت مجموعتها الدراسية لاجتماع، من أجل التوقيع على بيان يؤيد تدخل الجيش السوفييتي في تشيكوسلوفاكيا. إنه بمنزلة اختبار عقائدي. جلست أنيت مع الطلبة الآخرين في غرفة صغيرة، وهم لا يعرفون بعضهم بعد، ولا أحد منهم يعرف حدَّة المناخ ولا كيف سيتصرف أعضاء المجموعة. بدا معظمهم حائراً. فهذا الموضوع يناقش منذ أسابيع في كل مكان، وكثيرون في البلد يعارضون التدخل، لكن مَن يجرؤ منهم على الجهر برأيه هم قلة. وفي رأس أنيت تضطرب الأفكار. أولم تزعم قبل فترة إنها مستعدة للمشاركة في توزيع المناشير؟ وعليها الآن أن توقع هذا البيان! كل شيء فيها يعارض التوقيع، فهي لا تريد أن

تخضع بهذه البساطة؛ أن تخون نفسها. لكنها من جهة أخرى ستجلب لنفسها مشاكل كبيرة إذا رفضت. ستطرد من الجامعة، ويحتمل ألا تحصل على مقعد دراسي آخر. سينتهي مستقبل دراستها قبل أن يبدأ. إنها تحس بأن هذا اليوم قد يحسم حياتها كلها. إن مَن يخضع مرة سيكررها دائماً، ومن يُعاقَب مرة لن يتخلص من وصمته أبداً.

اقترحت أنيت تغيير صيغة البيان. جاء في الصحف أن الإصلاحيين التشيكوسلوفاكيين المعتقلين أصدروا مع الحكومة السوفيتية بياناً مشتركاً اتفقوا فيه على متابعة عملية الإصلاح بالمعنى الاشتراكي. لم تكن أنيت تعلم حينذاك أن هذا البيان المشترك يعني عملياً استسلام الإصلاحيين. فكتبت أنيت أن المجموعة الدراسية تدعم بيان موسكو وتثني عليه. وشطبت الفقرة المتعلقة بتأييد التدخل، فالأمر الآن ما عاد متعلقاً بالماضي، بل بالمستقبل. فوقع الجميع مرتاحين، لأنهم لم يوافقوا ولم يعارضوا. إنها حيلة دبلوماسية صغيرة وقد نجحت فأنقذت الضمير والمستقبل، ومع ذلك بقيت بالنسبة إلى أنيت هزيمة، لأنها لم تكن شجاعة، بل ماكرة وحسب.

في الاجتماع الحزبي الأول في الجامعة سأل الأساتذة أنيت عن استعدادها لأن تصبح الأمينة الحزبية للسنة الدراسية الأولى. الأساتذة لا يعرفونها، لكنهم قرؤوا ملفها الحزبي، حيث كتب في خانة المنشأ: "مثقفون تقدميون"، وهو التصنيف الأعلى الذي يعادل مرتبة النبالة لدى الشيوعيين. وذُكر في خانة الكفلاء الحزبيين، وهم نوع من "إشبين العماد": رودي غوغويل، وهو رفيق مشهور وموضع تقدير بالغ وموسيقي معروف لحَّن أغنية "جنود المستنقعات" وأعز أصدقاء أبيها. هَرالد هاوزر، مناضل قديم في المقاومة وكاتب مشهور. أورْزِل هِرتسبيرغ، وهي يهودية عاشت في المهجر في لندن وصارت بعد عودتها مدعياً عاماً في قضايا الدولة.

وهذه المرجعيات من النخب الأول، هي بطاقة دخولها إلى النخبة الشابة في الحزب. وورد في التقويم الختامي لـ"جريدة برلين": بصورة عامة يمكن اعتبار أنيت كادراً قابلاً للتطور، يمتلك الذكاء والثقافة لأن يصير عنصراً مفيداً في مجتمعنا، بإشراف قيادة جيدة". وهذا يعني بصراحة: أمامنا شخص يمتلك في الواقع مؤهلات ممتازة، ولكن لا بد من تشكيله تحت رقابة صارمة.

أول الاجتماعات الحزبية في الجامعة كان تمثيلية فظيعة، إذ طُلب من أستاذين أن يقفا عند السبورة، ثم نهض أحد الرفاق وصرح بأن هذين كليهما لا يستحقان في الواقع أن يكونا عضوين في الحزب الاشتراكي الألماني الموحد، لأنهما بكلامهما العدائي يطعنان الحزب والطبقة العاملة في الظهر، ولأن سلوكهما الرجعي والتحريفي يُفقِد الجامعة كلها مصداقيتها. همس أحد الرفاق في أذن أنيت بما يجري. يبدو أن الأستاذين قد تجرّآ على الشك في عدالة التدخل السوفيتي في تشيكوسلوفاكيا وعبّرا عن ذلك. إنهما في الحقيقة لم يحتجّا على الغزو، بل طرحا السؤال فحسب، عما إذا كان تصرف موسكو هذا يترافق مع اتفاقية شراكة السلام بين مجموعة الدول الاشتراكية. أخذ الرفاق ينهضون الواحد تلو الآخر ويرمون الاثنين بنقدهم واحتقارهم، فيما وقف الاثنان كتمثالين متحجرين برأسين منكسين دونما جرأة على قول أي شيء. بدوا مثل أرنبين يتظاهران بالموت كي لا تلتهمهما الأفعى فوراً.

كثيراً ما فكرت أنيت لاحقاً في هذا المشهد. وفي خيالها يظهر الأستاذان لابسين طرطورين على رأسيهما وحاملين لوحين على صدريهما كُتب عليهما إدانة ذاتية. لقد بث هذا الاجتماع من الرعب في نفس أنيت، بحيث قررت أن تكون أشد حذراً منذ الآن، إذ أدركت أن الظروف في الجامعة مختلفة تماماً عنها في هيئة تحرير الجريدة حيث كانت تعمل. ففي الجريدة

لم يُطلب من أحد قط أن يؤمن بما يفعل، يكفي أن تصدر الجريدة فحسب. أما هنا، في الجامعة، فهناك رقابة على نقاء التفكير. ومن لا يؤمن طواعية بلا شروط يُعزل. صارت لاحقاً ترى الأستاذين في مطعم الجامعة، لوحدهما دائماً، فلا يجرؤ أحد على التحدث معهما أو على الجلوس إلى الطاولة نفسها. وما زال رأساهما منكسين باستمرار. إنهما تائبان تحت الاختبار، مثال رادع للآخرين.

سألتُ أنيت عما إذا كانت قد شعرت بالذنب، فهي شاركت في الاجتماع. أومأت برأسها دون كلام، حادت بنظرها عني وتمسكت بشدة بمسنديّ الكرسي، وكأنها قد تهوي أرضاً إن لم تنتبه. سيطر السكون على غرفة عملها، وبعد ثوان طويلة قالت أنيت، إنها بطريقة ما كانت تبعد مثل هذه الأمور عن نفسها، لأنها ستشغلها وتثقل عليها، لكنها أحست بالوقت نفسه، بأنها يجب أن تحمي نفسها من فائض التعاطف، لأنها ما كانت لتحتمل ذلك. كانت في الحادية والعشرين وتريد أن تدرس وأن تتسلى، كانت لا تزال تؤمن بالقضية الكبرى، على الرغم من شكوك تتحرك في داخلها بهدوء.

صادقت بعض الطلاب الذين كانوا في السنة الدراسية الثالثة، كانوا شباباً أذكياء وظرفاء وبدوا لها أكثر جرأة منها بمراحل. كانوا يطمحون لتجديد شكل عمل منظمة الشبيبة، ليصبح أقل إيديولوجية وأكثر شفافية وانفتا-حاً. دعوا أنيت إلى المساهمة معهم. كان لا بد من الاجتماع بصورة منتظمة في أحد المساكن. تهيبت أنيت من العرض وأحست بنوع من الخطر. بعد شهر، تم حل مجموعة الشبيبة في السنة الدراسية الثالثة وفُصل الشباب من الجامعة. كان على أحدهم أن يقضي سنتين في معمل لتوليد الطاقة الكهربائية، ويحق له، من ثم، متابعة دراسته. كان ثانيهم أعظم حظاً، إذ أن عمل والده رئيساً لأحد أقسام أكاديمية العلوم سمح له بالعودة إلى

الجامعة بعد سنة واحدة. تحدثت أنيت مع أحد المطرودين، فقال إنه ما كان ليعتقد بأن مثل هذه الأحاديث البريئة ستقابل بعقوبة على هذه الدرجة من القسوة، وإنه لن يكررها ثانية، فقد كان الأمر غلطة. من كان شاباً ظريفاً فكِهاً تحوَّل إلى رجل محطم.

والبروفسور المشرف على المجموعة الدراسية التي تنتمي أنيت إليها، طالبهم بإدانة المفصولين، وذلك بالتوقيع على بيان جاهز يصنفهما كعنصرين عدائيين يبغيان إفساد روح الشبيبة الألمانية الحرة. هذه المرة لم تصمت أنيت، لتأكدها من أن الاتهامات غير صحيحة. فنهضت وقالت إنها تعرف هذين الطالبين وهما ليسا عدوين، ولا تجوز إدانتهما. دُهش البروفسور لسماع هذا الكلام من أمينة الفرقة الحزبية، وارتبك. وفجأة تكلم طلاب آخرون شاجبين الإدانة. وقال أحدهم إنه لا يجوز اعتبار كل نقد فوراً على أنه سلوك عدائي، وإلا فلن يجرؤ أحد من بعد على فتح فمه. شرح البروفسور أن المفصولين كانا يجمعان تواقيع ضد هدم الكنيسة العسكرية في بوتسدام. «وأنتم الذين تدرسون التاريخ تعرفون أن هتلر في هذه الكنيسة قد أبرم اتفاقية مع الإكليروس. لذلك فإن من يعارض هدم هذه الكنيسة، يصطف مع الفاشيين».

لم يعرف أحد عندها بِمَ يجيب، ولا حتى أنيت. غير أنها كانت تحس بأن حجة البروفسور تنطوي على نذالة غادرة، لأنها تقحم على الموضوع ما ليس فيه وما لم يخطر في بال الطالبين المعاقبين. ومن الناحية الأخرى، لا أبشع طبعاً من أن تُوجه إلى المرء تهمة التعاون مع الفاشية، ولو حتى على سبيل الشك. ولكن لاحقاً أدركت أنيت أن الاتهام بالفاشية هو دائماً آخر ما يلجأ إليه عقائديو الحزب عندما تعوزهم الحيلة. حتى أبوها غرهارد كان يفعلها، عندما يعجز عن الاستمرار في النقاش، وعندما يكون الهذر الذي يدافع عنه في منتهى الجنون. «لقد عرضتُ حياتي للمخطر في

سبيل القضية»، هذه الجملة كانت تُخرس أنيت في البيت، كانت بمنزلة حجة قاتلة، تضع حداً لا جُرأة لديها على تجاوزه.

وأنا أذكر أن المعلمة في إحدى حصص التربية الاجتماعية شرحت لنا، أن أغنية "قطار خاص إلى پانكوف" ممنوعة في (ج.أ.د) لأنها فاشية، واستشهدت المعلمة بمقطع من القصيدة يتهم فيه الشاعر أودو ليندِنبرغ الأمين العام لحزبنا إريش هونيكر بلبس سترة جلدية أحياناً، والاستماع سرياً في المرحاض إلى إذاعة الغربية. وقالت، «إن في هذا لإشارة جلية إلى معاطف الغستابو الجلدية، وبهذا فإن ليندنبرغ يسيء إلى سمعة رجل أمضى في العهد النازي سنوات طويلة في السجن. ونحن لا نريد عندنا أن نسمع هذه الأغنية الفاشية». كنت أعرف حينها أن هذا الشرح هراء لا معنى له. لكنني أنا أيضاً لم أجرؤ على الاعتراض، لأن تعبير "أغنية نازية" له وقع خطير.

إن التجارب التي مرت بها أنيت في الجامعة جعلتها حذرة، غير أنها لم تُخرسها كلياً. ففي تاريخ 12/ 11/ 1968 قرأت في جريدة "العالم الفتي" مقالاً أثار غضبها، عن شاعر الأغاني فولف بيرْمَن الذي كانت وسائل الإعلام في (ج.أ.د) تهاجمه بشدة حينها، لأنه، وفي حفلات شعرية غنائية في الغربية، قدم تصريحات سلبية عن (ج.أ.د). وردت في المقال جمل من قصائده للبرهان على مدى عدوانية موقف هذا الرجل تجاه (ج.أ.د). فكتبت أنيت رسالة إلى هيئة التحرير قالت فيها: "إنكم تحللون قصائد لا يعرفها أحد، وتدعمون نقدكم بشذرات من هذه القصائد. لكن هذا غير مقبول؛ لأن السطر التالي مباشرة قد يقول العكس. أنتم تريدون إذاً لشبيبتنا أن تتقبل آراءكم دونما اعتراض، دون أن تكوّن آراءها بنفسها (وهي لن تتمكن من ذلك بما أنها لن تتمكن بنفسها من قراءة القصائد التي تهاجمونها). أنا أرى أنكم محقون في نقد موقفه، لكنكم تحققون نقيض

ما تريدونه تماماً بمقالكم المملوء بتعبيرات مستهلكة وغير موضوعية. إنكم تدفعون بعض الشبيبة إلى صف بيرمن، لأن الكثيرين لا يرتاحون للشعارات ولن يصدقوكم".

أعتقد أن هذا المقال يبين بوضوح موقف أنيت في ذلك الوقت. إنها لا تنتقد كون شاعر أغان لا يجوز أن يعبر عن رأيه في (ج.أ.د). بل هي تقبل بذلك لأنها تعتقد أن رأي بيرمن خطير. لكنها من الناحية الأخرى ترى أن الطريقة التي يُعامل بها بيرمن لا تطاق. لقد كتبت: "إنكم تبلغون حد التهجم فيما تكتبون، وهذا لا يتماشى مع موقفكم الواثق والراجح. إنكم تكتبون عن "لسانه الطويل"، فهل هذا ضروري؟ إني لا أحبذ أسلوبكم في استخدام هذه التعبيرات ضد إنسان". إنها من حيث الجوهر مخلصة للقضية، أما اعتراضاتها فتمس الشكل وحسب، لأن الأعداء بشر أيضاً. بعد نحو عشرين سنة وجدت أنيت هذه الرسالة ثانية في ملفها عند مخابرات أمن الدولة، وعرفت أن إجراءً ما كان سيُتخذ بحقها حينذاك، إلا أن العملية أوقفت بعد أيام، فـ"والد المذكورة يعمل في اللجنة المركزية للحزب". هذا ما ورد في ملفها. وبذلك انتهت مشكلتها لأن العاملين المهمين في الحزب وعائلاتهم معفون من التحري عنهم والتحقيق معهم، غالباً. تُرى كيف كانت ستبدو حياة أنيت لولا حماية أبيها؟

إني أستغرب فقدان الذكاء عند مخابرات أمن الدولة لعدم إدراكهم مدى ولاء أمي للنظام. وهناك كثيرون غيرها مِمَن اكتشفوا لاحقاً مدى خيبة أملهم بذكاء المخابرات. يحتمل أن يعود السبب إلى كون قضيتها غير عادية. مناضلة متحمسة في سبيل الاشتراكية تنطق بكلام هرطوقي. ابنة شخصية بارزة تجيز لنفسها رأياً خاصاً انطلاقاً من الأمان الذي يمنحها إياه إيمانها. مناضلة من أجل القضية، ولكن من أجل الحقيقة أيضاً. وكان ظنها أن الجانبين يكمّلان أحدهما الآخر. تقول أنيت إنها في موقفها السياسي

كانت دائماً تشعر بنفسها وحيدة. فبالنسبة إلى المؤمنين يُعَدُّ إيمانها قاصراً، وبالنسبة إلى الناقدين تغض النظر عن أمور كثيرة. كانت تريد الانتماء حقيقة إلى جهة ما، لكن الأمر لم يكن سهلاً.

يقول ڤولف إنه كان ييأس أحياناً من سذاجتها ومن قناعاتها التي لا يهزها شيء. كان يرى معاناتها بسبب إيمانها، والصراع الدائر في نفسها. عندما جاء مستشار ألمانيا الغربية ڤيلي برانت إلى إيرفورت في الشرقية، جلس الرئيسان مع بعضهما أمام التلفزيون. في تلفزيون الشرقية كان المشاهدون يرون ڤيلي شتوف رئيس (ج.أ.د) وسكان إيرفورت يهتفون «ڤيلي... ڤيلي». وفي تلفزيون الغربية يرى المشاهدون أن الناس لا تهتف إلا عندما يظهر برانت في النافذة. هذا الكذب الصريح في بروباغاندا (ج.أ.د) كان يدفعها إلى الجنون. فتجلس وليس في وسعها سوى أن تبكي. فيقول لها ڤولف، من الجلي أن الشرقية تكذب، فتهز رأسها بصمت. في أول شجار حقيقي بين أنيت وڤولف كان السؤال المطروح: هل الناس الذين يهربون إلى الغربية خونة ويستحقون العقاب؟ كانت وجهة نظر أنيت أنه لا بد من حماية الحدود، وإن لم يُعاقب متجاوزو الحدود فما ضرورة بقاء الجدار؟ وكان ڤولف نظراً لطباعه يحافظ في هذا الحوار على هدوئه إلى حد كبير، على الرغم من عدم قدرته على استيعاب ما تقوله. ربما كان الذعر الذي دهمه، ففكر في استحالة التعايش مع امرأة بهذا التفكير، وفي الوقت نفسه شعر بأن عدم العيش معها مستحيل أيضاً. وعادت به الذاكرة إلى 1961 بعد بناء جدار برلين بأسبوعين، وكان حينها في التاسعة عشرة، عندما وقف مع صديقه مانفرِد، عند حاجز الحدود في تِلتوف وفكر في تجاوزه إلى الغربية. كان سور الأسلاك الشائكة بارتفاع مترين ونصف، ولم يكن سوراً بالمعنى الحقيقي للكلمة. وإن شئنا الدقة، كانت هناك خمسة أسلاك شائكة معلقة بفارق نصف متر بين كل منها. فيكفي أن يرفع المرء السلك الذي يتوسطها

كي يمرر جسمه. وراء السور تنمو أعشاب برية عالية السوق، ونقطة حرس الحدود التالية بعيدة من هنا. في الواقع لا يشكل العبور مخاطرة، سوى الخوف من ارتكاب خطأ ما مثل ترك الأم وحيدة وراءك، أو قطع تأهيلك كمرمِّم للصور. ويحتمل أن هذه كلها لم تكن سوى ذرائع لجهله ما يريد أن يفعل حقاً، ولقصور في شجاعته. كان يعرف أوضاع (ج.أ.د)، ويُفترض به أن يعرف ما ينتظره إذا بقي. غالبية أصدقائه رحلوا. لماذا تردد؟ كثيراً ما فكر في هذا الأمر لاحقاً. هل كانت يا ترى أكبر غلطة في حياته؟ إنه حتى اليوم لا يدري.

بعد مرور نصف ساعة على وقوف فولف ومانفرد عند السور، غارقين في أفكارهما، مر اثنان من حرس الحدود واعتقلاهما. جرى استجوابهما وباتا ليلة في زنزانة ثكنة، ثم أفرج عنهما. ربما صدقوا أنهما لا يريدان الهروب بل كانا يحلمان وحسب. يقول فولف إنه لم يعتقد آنذاك أن الحدود ستبقى حقاً. بعد شهر من ذلك وصله تبليغ التقدم لفحوص الالتحاق بجيش الشعب الوطني. إنه ينتمي إلى الدفعة الأولى من الرجال الذين توجب عليهم خدمة (ج.أ.د) بحمل السلاح. لقد أصبح الآن في القفص ولا خروج له منه.

عند بناء الجدار كان فولف في التاسعة عشرة، وعند سقوط الجدار كنت أنا في التاسعة عشرة من عمري. من المحتمل أنه آنذاك لم يستوعب أهمية اللحظة التاريخية كما يجب، مثلي أنا، عندما كنت في 9/ 11/ 1989 في برلين واقفاً عند مركز العبور المسمى نقطة تشارلي. وأول ما خطر في بالي عندما وطأت قدماي أرض برلين الغربية هو أني قد نسيت سجائري في البيت. وجدت الأمر مزعجاً جداً لكوني أدخن باستمرار عندما أستثار. ولم يكن معي عملة غربية لأشتري سجائر. ولم أجرؤ على طلب سيجارة من شخص غريب. فكرت فيما قد يظنه الغربيون بي إن

بدأت بالتسول بعد ثلاث خطوات في الحرية. فكرت في العودة سريعاً إلى الشرقية لأحضر سجائري وأعود من ثم إلى الغربية ثانية. لكني لم أكن واثقاً إن كانوا سيسمحون لي بالمغادرة مرة ثانية. كما خطر في بالي أنهم قد لا يسمحون لي بالدخول الآن، لكني لم أكن متأكداً. لو سألني مراسل صحافي غربي في تلك اللحظة عما أشعر به، لأجبته ربما بأن سقوط الجدار هذا مرهق للأعصاب. ثم إني لم أطل البقاء في الغربية، إذ كان عليّ في صباح اليوم التالي أن أتواجد في عملي في وقت مبكر. ما زلت حتى اليوم أشعر بالحرج لكوني في 10/ 11/ 1989 قد وصلت إلى عملي في مختبر أكاديمية العلوم في تمام السابعة صباحاً، فلم أجد سوى زميل واحد لم يسمع الأخبار بعد.

5. أطفال شوارع

جلست مع ڤولف إلى طاولته المستديرة في عليّته. كان السكون مهيمناً، سوى بعض الأصوات التي كانت تتناهى أحياناً من الخارج عبر النافذة. بدا ڤولف منفعلاً، يتحرك على كرسيه من جهة لأخرى، محاولاً أن يجد بداية. بداية لحياته التي سيرويها الآن. تكلم ببطء وبتركيز، وأحياناً كان يغلق عينيه لبرهة متتبعاً الذكريات. عاد إلى ذلك الصبي الذي كان يتراكض مع رفاقه بين خرائب وأنقاض شارع فراينفالد. ڤولف وُلد في الغربية مثل أنيت، في منطقة غِزوند برونّن في برلين. حكى عن شوارع مغطاة بالحشائش والأعشاب الضارة، عن رائحة عشبة الكاشم العطرة التي تعبق في كل مكان. عن جنود أميريكيين يلعبون بخوذاتهم كرة القدم، وعن مضرب خيامٍ للغجر بين الأكواخ الصيفية الموحشة، حيث توجد عرافة عجوز تقرأ المستقبل من راحة اليد لقاء عشرين قرشاً. الجدة زيغريد، والدة ڤولف، ذهبت إليها مرة لاستشارتها، فتشاجرتا بعد حين، ربما بسبب الأجرة، فعاقبتها العرافة بنظرتها الشريرة وأعلنت أن زوج زيغريد سوف يهجرها. وللأسف تبين بعد سنتين أن الغجرية العجوز تفهم حقاً في أمور المستقبل، ما أدى إلى أن الجدة زيغريد لم تعد تستلطف كل من يشبه الغجر ولو شبهاً بعيداً.

بالنسبة إلى الأطفال، كانت المدينة بمثابة ملعب مغامرات شاسع. ومنذ كان فولف في السادسة من عمره أخذ يسرح مع رفاقه من الصباح وحتى المساء في الجوار. يتسلقون جبال أنقاض، يبنون مغاور في أقبية مهجورة ويتوازنون على الحوامل الحديدية العالقة في الأنقاض. يصطادون الزيزان ويضعونها في علب أحذية كرتونية، ويجوبون أنحاء المدينة بحثاً عن عرق أخضر طعاماً للزيزان. الحياة في المدينة نشيطة، والشوارع تغص بالناس، وعلى الأرصفة يجلس مقعدو الحرب ويعزفون الموسيقى، وفي الفسحات الخلفية للأبنية يشتغل حدادون ونجارون وحلاّبون.

وأحياناً قد يركبون حتى إلى مارتْسان، حيث تُجمع الذخائر الحربية المتروكة في أكوام. فيشعلون نار مخيمٍ ويرمون فيها أمشاط الرشاشات ويختبئون. وكانت أصوات الرصاص المتطاير في كل الاتجاهات تثير الرعب لدرجة أن بعضهم كان يبول تحته من الهلع. الفتيان منهم كانوا يكسرونُ مشعِل القذائف المضادة للطائرات ويفرغون البارود الأسود في أكياس، ثم يذهبون إلى أنقاض الأبنية التي ما زالت مداخنها سليمة، فيصبون المادة المتفجرة في فتحة المدفأة، ويستخدمون خيطاناً مغمسة بسائل مُطهر كفتيل. يشعلون الفتيل ويهربون كالشياطين. وعندما يحدث الانفجار وراءهم وتتهاوى المدخنة مثل عملاق مصاب، يتصايحون ويرقصون من الفرح. لا يسألهم أهلهم أبداً أين كانوا، فللكبار حياتهم الخاصة.

لا يعود الأطفال إلى البيوت إلا عندما يشعرون بالجوع، علماً بأن هذا الجوع خلال السنوات الأولى بعد الحرب لم يتحول إلى شبع قط. وزيغريد كانت تطبخ حساء من أوراق وجذور الشمندر واللفت والجزر، أي مما كان يرمى عادة، وعندما تعلق الجذور في حلوقهم كان فولف وأخته الأصغر ريتا يتقيآن. كانوا يعيشون في غرفة مع مطبخ، والمرحاض

مشترك على الدرج بين الطابقين. الغرفة رطبة والمدفأة الخزفية باردة معظم الوقت، ففي برلين لم يعد هناك ما يمكن للمرء أن يشعله للتدفئة. فقد حُطِبت معظم الأشجار العادية، أما الثخينة السامقة التي لم يجرؤ أحد على الاقترابِ منها، فقد جُردت من أغصانها المتدنية. وعندما تهب ريح شديدة يتوجب على ڤولف الجلوس عند الشباك والانتباه، فيحتمل أن تُسقط الريح غصناً من تاج هذه أو تلك الشجرة. وعندها عليه أن يركض ليحضره قبل أن يسبقه أولاد آخرون.

كانت زيغريد تسافر كل أسبوعين نحو فيليفانتس قرب أورانينبورغ لجلب مؤونة، فتنكش الحقول بحثاً عن نباتات درنية وبطاطا. وتحضر معها دائماً حزمة كبيرة من الحطب، تحملها على ظهرها طوال ساعات خشية أن تسرق منها قبل أن تصل إلى البيت. حتى ذلك الحين كان زوجها ڤرنر لا يزال أسير حرب في فرنسا، ما اضطرها إلى تأمين معيشة الأولاد وحدها. باعت الدمى، وخشبات المطبخ وفناجين القهوة لتحصل لقاءها على بعض السمن والخبز. كانت أحياناً تبكي بصمت ليلاً، فهي ترى أن تقلبات حياتها غير منصفة.

في منتصف تشرين الأول/ أكتوبر 1949، وصلتها برقية من ڤرنر يقول فيها إنه قد أطلق سراحه وسيعود قريباً، ربما في الثامن عشر من الشهر. وفجأة صارت زيغريد تصفر الأغاني المرحة صباحاً عقب استيقاظها، فشرحت للطفلين أن بابا راجع إلى البيت قريباً. فرح ڤولف وخطر بباله في الوقت نفسه أنه لا يعرف في الواقع شكل أبيه ولا جرس صوته. ففي تشرين الثاني / نوفمبر 1944 عندما سُحب ڤرنر إلى الحرب، كان ڤولف في الثانية من عمره. فلا ذكريات لديه عنه، لا شيء. كل ما يعرفه هو أن كل شيء سيصبح الآن أفضل، فهكذا قالت أمه.

اشترت زيغريد من السوق السوداء طحيناً وبيضتين. كلفها هذا جزءاً

كبيراً من مصروفها الشهري، ولكن سيان، فهي تريد حتماً أن تصنع قالب كاتو للعائد إلى بيته. قبل وصوله بعدة أيام دعكوا البيت وغسلوا كل ما يحتاج إلى الغسيل. كوت زيغريد غطاء الطاولة الجيد وحلق جارهم شعر الطفلين. عشية الوصول المرتقب وضعت زيغريد باقة ورد وقالب الكاتو على غطاء الطاولة. كان ڤولف منفعلاً لدرجة عدم القدرة على النوم. فكر في أنه لربما لن يحمل أية هموم من بعد، طالما أن بابا سيأتي.

في الثامنة صباحاً سمع ڤولف أصواتاً من المطبخ. ثم انتصب أمامه هذا الرجل الطويل الغريب. ربَّت على رأس ڤولف وأحضر له معه قطعة شوكولاتة. عملياً كان كل شيء مثلما تصور ڤولف. ولكن تبين بعد وقت قصير أن الأمور لن تكون على مايرام مع ڤرنر. فهو مستثار ومتعب بشكل لا يوصف. كل فوضى وكل ضجة وكل مشكلة مهما صغرت تخرجه عن طوره. فيصرخ في الجميع راجفاً من الغضب، ثم يجلس لساعات على كرسيه خاملاً لا يتحرك. كان ڤرنر ضابط صف في الجيش المقاتل على الجبهة، نجا من الموت وأُسر في معسكرات، حيث شاهد بعينيه موت مئات من رفاقه الجنود. اشتغل بالسخرة أكثر من سنة عند فلاح فرنسي في غربي فرنسا، ثم قضى عدة أسابيع على الطريق كي يعود إلى برلين، إلى عائلته، إلى بيته وحياته السابقة، التي حلم بها طوال مدة الأسر، فمنحته القوة للاستمرار والنجاة. وأخيراً وصل ولم يعد في مقدوره المزيد.

بالنسبة إلى ڤولف بقي ڤرنر لفترة طويلة غريباً. كانت زيغريد قد حكت له عن رجل رياضي وسيم وظريف، رجل يستطيع كل شيء. لكن ڤرنر الذي تعرفه ڤولف أصبح نحيلاً منهكاً قلقاً وعصبياً. بعد يوم على وصوله خرج ڤرنر بحثاً عن حطب للمدفأة. وبعد أسبوع سجل اسمه في مكتب العمل. كان يبدو مثل شخص يتملكه الخوف من مواجهة نفسه. يستيقظ في السادسة صباحاً ليمسح الغبار في الغرفة. وحرصه على الترتيب والنظافة

كان مرعباً. أريكه الطفلان وأزعجاه. ذات مساء أخذ ڤولف يتذمر وينق، لأنه لا يريد النوم، فبرَّحه ڤرنر ضرباً بحيث لم يستطع الولد الجلوس في صبيحة اليوم التالي، إذ كانت مؤخرته مغطاة بالكدمات. وفيما بعد أيضاً، لم يتوقف ڤرنر عن اللجوء إلى الضرب، وبدرجة من القسوة بحيث كان ڤولف يطير عبر الغرفة. لم تجرؤ زيغريد على إيقافه، لاعتقادها بأن الأمور يجب أن تأخذ هذا المنحى، فتركت الأمور تحدث. لكنها كانت تشعر مع طفليها بالسعادة عندما يغيب ڤرنر، فيسود الهدوء. يقول ڤولف إن ڤرنر صار نادراً ما يتواجد في البيت بمرور الوقت. يتناولون الفطور صباحاً معاً ويحصل ڤرنر باعتباره عائلاً على حصة إضافية من الزبدة والبيض. فكان يقشر البيض بعناية ويقطعه شرائح متساوية ويأكلها كلها وحده، فيما يتناول الطفلان بالملعقة حساء حليب مخففاً مع الخبز وينظران.

ذات مرة ضُبط ڤولف يرمي مع رفاقه نوافذ معمل بالحجارة، فطالب صاحب المعمل أباه بثمن الزجاج. جلس ڤرنر إلى طاولة المطبخ مع ڤولف وحسب أمامه كلفة هذا الأذى من مصروف العائلة، وفي النهاية قال إن على ڤولف أن يترك البيت لأن المصروف لم يعد يكفي للجميع. رتبت له زيغريد حقيبة ظهر صغيرة، وودّعوا بعضهم وانطلق ڤولف مقتنعاً بأن عليه منذ الآن أن يدبر أموره وحده. نظر إلى أبويه الواقفين في الباب فوق ولم يبكِ. فكر أن هذا هو الحال وفقط. عند منعطف الشارع الثاني لحق ڤرنر بابنه وشرح له أن هذا الدرس كان لتعليمه جدية ما اقترفه، وأن في إمكانه العودة إلى البيت.

أتساءل ما إذا كان ڤرنر حينذاك قد فهم الموعظة المريعة لتمرينه التربوي، مدى رعب أن يعتقد طفل في السادسة من عمره بأن أباه يطرده من بيته بسبب مزحة سخيفة. لربما حسبها ڤرنر من زاوية أن ڤولف سينفجر باكياً ويتسول الصفح عنه. إلا أن ڤولف لم يكن من هذا النوع. بعد شهرين

كرر ڤرنر لعبته وسجن ڤولف في قبو، لأنه لا يحتمل أن يتشاجر الأخوان. وبدلاً من أن يحتج، غطى ڤولف نفسه بغطاء دراجة ونام في القبو. إنه صراع بين الاثنين.

عُيّن ڤرنر معلماً مساعداً في مدرسة مهنية في منطقة الاحتلال الروسي. بمحض الصدفة وُجِد شاغر هناك. وراتبه يُدفع له بالمارك الشرقي، وهذا كان مشكلة، لأنهم يسكنون في منطقة الاحتلال الأمريكي، حيث قيمة العملة الشرقية متدنية جداً. فصارت الأم والأولاد يذهبون مرة أسبوعياً إلى الشرقية لشراء المواد الغذائية، ثم يحملون الأكياس الثقيلة عبر جسر بورنُهولم إلى الغربية. ڤولف كان يكره هذا الجسر لطوله المديد، وعندما كان يضطر إلى الذهاب وحده لشراء الحليب، يتوقف في منتصفه على طريق العودة ليستريح، وكان يبصق على السكة الحديدية الخالية من القطارات ويتخيل أنه سائق قاطرة بخارية سوداء وكبيرة يقودها عبر المدينة، وهي قاطرة مميزة لا تحتاج إلى سكة وتوصل صفائح الحليب الثقيلة حتى باب الدار. في تشرين الثاني/ نوفمبر 1949 انتقلت العائلة للسكن في شونهاوزن آليه في الشرقية، وكان القرار ذا طابع عملي وليس سياسياً، فحينها لم يتوقع أحد أن تتحول مناطق الاحتلال المختلفة إلى دول.

في المدرسة، عندما كانت الإدارة تختار الأطفال النحيلين لتغذيتهم، كان ڤولف غالباً بينهم، فهو أنحف وأضعف من بقية تلاميذ صفه. ذات مرة أرسلوهم نحو غلورڤـه على بحر البلطيق. صباحاً بعد تحية العلم، هناك خمس شطائر بمربى الفواكه لكل طفل، وعند الغداء حساء مع زيت كبد الحوت. هناك برّاكات واسعة وأسلاك شائكة على سور المعسكر، الذي بث الرعب في نفس ڤولف، فأراد أن يسمن بسرعة كي لا يعود إلى هنا مرة ثانية.

في البيت أخذ ڤرنر يتحدث عن الاشتراكية، التي ستقضي على الفقر

بأسرع وقت، كما بدأ بدراسة التربية في المعهد العالي الحديث التأسيس في (ج.أ.د)، وهو متحمس جداً لفكرة المجتمع الجديد. إنه يبتلع كل شيء مثل ظامىء، مثل مَن يحتاج بإلحاح إلى ما يمكنه أن يؤمن به من جديد. وذات مرة عاد إلى البيت من درس تأهيلي وقال إن العائلة الاشتراكية تحتاج إلى قواعد جديدة، منذ الآن سيتوقف أولادنا عن مناداتنا بـ ماما وبابا، وإنما باسمينا؛ زيغريد وفرنر. إضافة إلى ذلك سنسبح في البحيرة عراة، والأطفال سينتسبون إلى الطلائع.

صار على زيغريد مساء أن ترافق فرنر إلى محاضرات حول جذور الشيوعية. إنها لم تفهم شيئاً مما كان يقال، لكنها ترافقه تجنباً لغضبه. في أول أيار/ مايو شاركت العائلة في المسيرة في الشارع العريض أونتر دِن ليندن. إحدى النساء وضعت قرنفلة حمراء في عروة جاكيت فرنر، الذي كان يرتدي بذلة داكنة وإلى جانبه زيغريد بثوب موَّرَد. تجاوزت المسيرة الأنقاض في منطقة حديقة الحيوانات، حيث لم يتبق أية شجرة، وهم يغنون أناشيد عن وحدة الجبهة العمالية وعن انطلاقة الطبقة العاملة التي حطمت أخيراً قيودها. فتساءل فولف في نفسه: ترى أين كل هذه القيود الآن؟ لديه كتاب يحكي عن قبطان قراصنة يهاجم السفن ويحرر عبيد المجاذيف، الذين كانوا يرسفون في القيود أيضاً ففرحوا عندما تحرروا منها. يبدو أنها قضية جيدة.

في صيف 1951 أقيم في برلين مهرجان الشباب العالمي. شباب العالم يحلون ضيوفاً على ألمانيا المدمرة من الحرب والناهضة منها. ركب فولف مع أطفال آخرين في شاحنة عبرت بهم المدينة وهم يغنون وينشدون، ومساء سرقوا من أحد الأكشاك علب الطعام، التي كان فيها قطع سلامي مقدد أيضاً. لم يسبق أن ذاق فولف طعم السلامي، فأخذ القطعة معه إلى البيْت وقطعها بالسكين شرائح رقيقة وأكلها كلها وحده.

في أثناء إحدى نهايات الأسبوع رافق ڤولف ڤرنر إلى معرض بمناسبة أول خطة خمسية لـ (ج.أ.د). عند المدخل كانوا يوزعون على الأطفال شعارات بلاستيكية زرقاء تحمل الرقم خمسة. وشرح له ڤرنر أن سكان (ج.أ.د) سيتوقفون بعد خمس سنوات عن استخدام النقود لأن الناس ببساطة سيأخذون من المحلات ما يحتاجونه. ثم أراه المخططات والجداول الملصقة على جدران المعرض قائلاً إنها براهين على تفوق الاشتراكية. لكن ڤولف لم يستطع أن يتخيل كيف لهذا كله أن ينجح. غير أن خمس سنوات تُعدُّ وقتاً طويلاً بالنسبة إلى ابن التسع سنوات، ومن المحتمل أن تنجح الاشتراكية في خطتها حتى ذلك الحين. من يدري! فعلى أية حال صار عندهم الآن ما يكفي من الطعام كي لا يجوعوا ثانية.

لدى الطلائع لم يكن يوجد ما يسلي. هناك دائماً مناشدات لهذا الغرض ومسيرات لذاك الهدف. يأتي الخطباء ويتحدثون عن أمور لا يفهمها أحد كما يجب. ڤولف وأخته هما الوحيدان في الحي اللذان يرتديان القميص الأبيض والفولار الأزرق، ولهذا كان الآخرون يعابثونهما. في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر1951 هجر ڤرنر دار الزوجية، وشرح للأولاد أنه وزيغريد ما عادا يحبان بعضهما البعض، ولهذا سيعيشان منفصلين. كانت زيغريد واقفة إلى الطاولة وهي تكوي وتبكي. منذئذ صار يحق لفولف أن يناديها ماما، ولم يعد مجبراً على السباحة عارياً ولا على الذهاب إلى الطلائع. وبما أن ڤرنر قد أخذ معه ديوان النوم، صار في إمكانهم مساء تجهيز مخيم من الفرشات في غرفة المعيشة، فيستلقي ڤولف بجانب أمه، ويحس عند النوم بدفئها ويسمع تنفسها. وهو شعور جميل.

6. مراهقون مشاغبون

بعد دوام المدرسة كان ڤولف يذهب مع زملائه إلى برلين الغربية، ويتسللون إلى إحدى دور السينما على الحدود بين شطري المدينة، فيتفرجون على أفلام الكاوبوي ويسرقون شوكولاتة وسكاكر. كانت الغربية ملونة ومثيرة، لها رائحة القهوة والعلكة. والجنود الأمريكيون الذين يدسون في أيديهم أحياناً أكلات طيبة، كانوا مسترخين مثل رجال الكاوبوي في الأفلام. لا مجال للمقارنة مع رجال الشرطة في الشرقية الذين يحرسون المعابر الحدودية بالزي الرسمي سيئ الخياطة. إنه ورفاقه يتنقلون يومياً بين عالمين، فيرون الدعايات الضوئية هناك واللافتات الحمراء هنا، سيارات دايملر-كوبه اللماعة والعربات العسكرية الروسية. نساء بجوارب النايلون الطويلة الفاخرة ونساء بمريول الشغل. يسمعون موسيقا الروك أند رول والأناشيد العمالية. يقول ڤولف إن أي طفل كان في وسعه آنذاك أن يخبرك أي النظامين أنجح. كانت الشرقية تبدو له دائماً عاجزة يرثى لها. في 17 حزيران/ يونيو 1953، ركب الترام مروراً بساحة ألكسندر، فشاهد الدبابات الروسية وسمع إطلاق الرصاص من شارع كايل، حيث يوجد السجن الكبير. عاد إلى البيت وهو يفكر في أن نهاية (ج.أ.د) باتت وشيكة. خلال بضعة أيام كان التمرد قد أخمد وعادت الأمور إلى مجاريها وكأن شيئاً لم يكن.

كل ثاني يوم أحد تُلبس الأم الطفلين ثياباً أنيقة وتنطلق معهم إلى شارع ستالين العريض المشجر. هناك يسكن ڤرنر في أول شارع اشتراكي في الجمهورية. يتجاوزون تمثال ستالين الهائل والمنتصب في مساحة خضراء بسترته العسكرية ونظرته الجادة جداً، التي تشبه نظرة ڤرنر عندما يشرح شيئاً مهماً. الطريق المؤدية إلى مسكن ڤرنر تمر عبر درج شاسع مغطى بالرخام، وهناك مصعد وبالوعة زبالة. إنه قصر.

لكنه حسب قول ڤرنر قصر مأهول اليوم من قبل العمال والفلاحين. صحيح أنه يسكن هنا لأنه مدير مدرسة، لكن هذا ليس مهماً، فالمهم هو أن يشعر الإنسان بنفسه كامل. لم يحب ڤولف زيارات الأحد هذه، لأنها تشبه درس الثقافة الوطنية. يسأل ڤرنر الطفلين عن أحوال الطلائع، فلا يجرؤا على إخباره بأنهما انقطعا عنها منذ مدة. يقرأ لهم مقالات صحفية يعتبرها مؤشرات نحو المستقبل، تبرز أرقاماً إنتاجية ونجاحات في الإعمار السكني، لكن لا تفسير لديه لسؤال: لماذا لا يوجد جينز في الشرقية؟ ويشير إلى الوضع السياسي العام وإلى الغرب الذي يزعج الجمهورية الفتية على جميع المستويات. عندما يحكي ڤرنر عن فردوس العمال، تخطر في بال ڤولف صور العجائز الواقفات يومياً مقابلهم في الشارع عند متجر الفحم منتظرات سقوط بعض القوالب من الشاحنة، ويفكر في متاجر برلين الغربية حيث تتوفر كل أنواع البضائع. إن الواقع الذي يعرفه والأمور التي يتحدث عنها ڤرنر طرفان متباعدان.

لاحقاً لم يعد ڤولف يذهب إلى شارع ستالين، إذ أنه لم يعد يحتمل كل هذه المواعظ. وفي ملجأ سابق من الغارات الجوية في شارع شتروكوڤ قام مع زملاء آخرين من جيله بتجهيز قاعة حفلات للموسيقى والرقص. يرقص الشباب فيها روك أند رول ويسرِّحون شعرهم بماء الصابون إلى الخلف، وأخذ يتدرب على خطوات الرقصة بمعونة قبضة باب غرفة

المعيشة. واعد فتيات لأول مرة وحصل عناق وقبلات وبعض العبث أيضاً. في بعض المناسبات الخاصة كان يرتدي جاكيتاً من المخمل الأحمر بأزرار ذهبية فوق بنطال أسود، فتحة القدم فيه لا تتجاوز 15 سم. لقد صار راقص روك، مراهقاً مشاغباً، لا كلام لأحد معه مَهْمَن يكن. ولكن عندما رقصوا علناً في احتفال شعبي في منطقة بلترفالد تدخلت الشرطة، فهذا الرقص ممنوع في (ج.أ.د). فُصل الشباب عن البنات ونُقلوا جميعهم في شاحنتين ثم أنزلوا في غابة قرب أورانيبورغ. فمشوا ليلاً تحت المطر عائدين إلى برلين مُذلّين مهانين. وبعد شهرين عاودوا ترتيب أمورهم في كوخ صيفي مهجور في بلانكنبورغ، وأخذوا يستمعون لأغاني إلفيس بريسلي وبيل هيلي ويرقصون في العتمة حتى الإنهاك. وحتى هنا طالتهم يد الشرطة فصادرت أشرطة التسجيل وسجلت الأسماء وأرقام البطاقات الشخصية. يقول ڤولف إن كل ما ابتغوه آنذاك هو أن يتسلوا، لكن هذه الدولة الغبية كانت تحول الأمر دائماً إلى مسألة سياسية. كل من يلبس جينز وصندل بكعب يصبح عدواً طبقياً. ومن يقف على ناصية الشارع حاملاً راديو يهدده مساعدو الشرطة الشعبية. الاستماع إلى الإذاعة الغربية وتشكيل الفرق ممنوع. كل من يمشط شعره حسب موضة الإوزة يجب أن يقف عند جدار البناء مفرشخ الساقين في أثناء مراجعة هويته. يقول ڤولف إن الأمر عند حد معين بدأ يتعلق بالمبدأ فحسب: إما مع أو ضد. "كانوا يُظْهِرون لنا دائماً أننا لا ننتمي إليهم. كانوا يدفعون الواحد منا ليصير عدواً".

في بادىء الأمر تبنى ڤولف هذا الدور. لربما لم يرَ نفسه كعدو، ولكن أيضاً كشاب لا يوافق على كل شيء. هذا التوازن بين التأقلم والتمرد، بين الشجاعة والخيانة ليس من السهل تفسيره. حتى أن هذه الكلمات بحد ذاتها تُعد كبيرة جداً على وصف الحركات الصغيرة التي كانت غالباً محور الأمر. إنها منطقة رمادية من الإمكانيات، يمكن للمرء فيها أن يمشي تارة

في هذا الاتجاه وتارة في ذاك، وحيث لا هذا صائب ولا ذاك خاطئ، وإنما يشعر المرء في أفضل الأحوال بأنه قد وجد الحل الوسط المعقول. والذي يعيش في هذه المنطقة الرمادية كان عليه دائماً تجديد استجاباته وإيجاد توازنات جديدة. إنه لم يكن خائناً ولا بطلاً، كل ما كان في وسعه هو أن يكون أقرب ما يمكن إلى ذاته.

أعتقد أن ڤولف نفسه لم يكن يدرِي، غالباً، لماذا يقدم على فعل أمور بعينها ويستنكف عن أخرى. هناك مثلاً تلك الحادثة المرتبطة بالأمين العام للحزب الاشتراكي الألماني الموحد، ڤالتر أولبريشت، والذي يلقبه كثيرون بـ "أبو سكسوكة". في مطلع الستينيات عمل ڤولف مرمّم صور في مطبعة جريدة "ألمانيا الجديدة" لسان حال الحزب. وفي أثناء الوردية المتأخرة، وردت إلى المطبعة صورة لأولبريشت لا بد من معالجتها للعدد الحالي، وكان يضع في الصورة نظارات عدساتها بلا إطار، مما يكسب وجهه الذي يشبه التيس مسحة بشرية و"مودرن" إلى حد ما. ولكن ثمة في تضاد لونَي الصورة ما ليس على ما يرام، فما كان من ڤولف إلا أن ظلل حواف العدستين وجعل لهما إطاراً. لم يلفت التغيير نظر أحد ودخلت الجريدة للطباعة. ولكن في صباح اليوم التالي جاء رجلان من أمن الدولة إلى المطبعة وطلبا ڤولف. سألاه عمن كلفه تشويه صورة الأمين العام، فأجاب بأنه لم يُكلف من قبل أحد، إنما الأمر في حده الأقصى زلة قلم لا أكثر. فقال له أحدهما إن مثل هذه الزلة أودت بأناس إلى السجن. غير أنهما صدقاه من ثم وتركاه بعد تأنيب شديد اللهجة.

بعد بضعة أسابيع تم تدشين خط الميترو الجديد نحو بانكوف في برلين. لم يعد الخط الجديد يمر من حي غِيزونْد برونن مسقط رأس أبيه ڤرنر، بسبب الجدار هناك. وصار الخط رمزاً، وشعاراً للعاصمة الاشتراكية. ثمة صورة وردت إلى المطبعة تعرض أول قطار ميترو على

هذا الخط وهو يدخل المحطة مزداناً بالورود، فحذف ڤولف برتوشه جزءاً من جسم القطار، بحيث لم يتبق منه سوى القاطرة التي ولّدت وحدها انطباعاً غريباً. هذه المرة لم يكن رجلا أمن الدولة لطيفين، بل استجوبا أبي طوال ساعات ليعرفا من الذي حرضه. وهو لم يستطع أن يقدم تفسيراً لهذا الحادث الجديد. كان حائراً إلى حد ما، لأنه لا يعرف ما الذي دفعه في الواقع إلى هذه الفعلة، التي تقع نوعاً ما بين الحادث والتحدي. لاحظ رجلا الأمن حيرته، كما لاحظا أنه ليس غبياً ولا سخيفاً. هزا رأسيهما وقالا إن أبواب السجن الآن مشرعة، إذ ليس هناك ماهو أسوأ من الدعاية العدائية والحط من قيمة أعلى رجل في الدولة. ولكن ثمة ما حال دون إنزال عقوبة قاسية بحقه. ربما لإحساسهما بأنه في حقيقة الأمر ليس عدواً، بل شخصاً يجرب إلى أي مدى يمكنه الذهاب. أو لربما وجداه مثيراً للاهتمام وخططا لأمر ما في مستقبله. وهذا يفسر المحاولات الكثيرة لاحقاً لاحتوائه. على أية حال، نجا ڤولف بجلده هذه المرة أيضاً دون أضرار بالغة، لكنهما أبعداه إلى لايبتزيغ بصفة "معاون اشتراكي".

النفي إلى الأطراف بدأ بداية بهيجة. وصل ڤولف إلى لايبتزيغ في خريف 1962، قبيل عيد ميلاده العشرين، وكان الوقت موسم الكرنفال، فصار يذهب كل مساء تقريباً للرقص. وباعتباره برلينياً وسيماً، سهل عليه التعرف على فتيات جعلن إقامته هانئة سارة. في لايبتزيغ ما زالت هناك برجوازية حقيقية. وفتيات هذه العائلات كن يذهبن مساء كل سبت للرقص في "الرينغ كافيه". وكان ڤولف يلبس حذاء مدبباً بكعب ارتفاعه 7سم تحت بنطال وقميص ضيقين حسب آخر موضة. فكانت النساء يجدنه رائعاً ومثيراً. تعرف إلى فتاة أخذته معها إلى دار العائلة في فيلا قرب ميدان سباق الخيل. هناك في الصالون بيانو مجنح أسود، ووالدها دعاه للدردشة في غرفة المكتبة، حيث يجوز التدخين. ومنذئذ صار ڤولف ضيفاً كل نهاية

أسبوع لحضور حفلات الموسيقى المنزلية وأمسيات الكوكتيل. وللعائلة في دار الأوبرا جناح خاص، صار ڤولف ضيفاً عليه أيضاً، وفي لحظة ما خامره إحساس بأنه لم يعد في (ج.أ.د).

كان عمله في ترميم الصور في "جريدة الشعب اللايبتزيغية" لا يستهلك الكثير من وقته، وبصفته معاوناً اشتراكياً كان يكسب أكثر من برلين، إضافة إلى تنفيذه أعمالاً خاصة جانبياً، بحيث تبحبح مالياً فجأة. فصار يركب التكسي بدل الترام ويأكل في المطاعم. وأخذ يفصّل أحذية الرقص خصوصاً، وكذلك قمصانه وبناطيله. لقد أعجبته المدينة في جانبها الأنيق والمهذب. إنها مختلفة تماماً عن برلين، حيث هربت البرجوازية أو تخفّت وحيث هيمن فيها عمال ومسؤولو سكسونيا.

في الصيف أخذ ڤولف إجازة مرضية لمدة ثلاثة أسابيع وذهب يستجم ويسبح. وذات يوم طرقت الشرطة بابه بقصد اعتقاله. وتبين أن أمه وأخته قد أخذتا إجازة في الوقت نفسه، فظن جارهم في برلين أنهم هربوا إلى الغربية، فأخبر الشرطة، التي اتصلت بمكان عمل ڤولف للتأكد من وجوده. وبما أنه غائب أيضاً فقد صدرت بطاقة بحث عن العائلة كلها، لكنها طويت بسرعة لوجود ڤولف في بيته اللايبتزيغي وأمه وأخته على شاطىء بحر البلطيق تحت الشمس. هذه الواقعة أعادته إلى أرض الواقع قليلاً، ولا سيما أنه بعد فترة قصيرة تلقى زيارة جديدة من الشرطة مع اعتقاله فوراً، وكان السبب أنه قبل مغادرته برلين، وبالتعاون مع صديقه مانفرد، قد رمى عارضة خشبية ثقيلة من برج فلاتوڤ في بوتسدام، وهناك شكوى تضرر بحقيهما، لكنها سُحبت بعد وقت قصير لضآلة الضرر.

نتيجة لكثرة احتكاك ڤولف مع الشرطة والأمن تنبه الجيش له. وسرعان ما تلقى تبليغ استدعاءٍ للمثول في برلين بأسرع وقت. في الساعة الثالثة قبل الفجر كان يقف مع مئتي شاب مثله في ساحة مرآب فارغة أمام

الآمرية العسكرية للمنطقة، التي بُني لها مؤخراً براكة من الخشب المعاكس في شارع نوردمارك. الجو مظلم وبارد، والمصابيح تغرق الساحة بضوء شاحب. امتد وقوفهم هنا لساعات، وعندما انبلج الفجر ظهر نقيب أمرهم بالاصطفاف في أرتال خماسية، ثم انطلقوا مشياً إلى محطة القطارات. كان ڤولف متعباً، فهو لم يتعود على الاستيقاظ باكراً، وفي مثل هذه الساعة مطلقاً. فكر في صديقاته وفي فراشه الدافىء في غرفته في لايبتزيغ، وأدرك الآن أن الحياة الجميلة قد انتهت، ولو مؤقتاً. لقد احتوته الدولة الآن وتنوي أن تصنع منه إنساناً اشتراكياً. أحس بانقباض وضيق. منذ الآن انتهت لعبة الاستغماية، لقد بات في قبضة هؤلاء العسكريين، هؤلاء الأغبياء الذين يحبون الصياح ويجدون متعة، على ما يبدو، في لعبة الجيش اللعينة هذه. تابع ڤولف المشي بلا رغبة وراء الآخرين، رأى الشوارع الأليفة، المدينة وهي تستيقظ، وشعر بالسرور لكونه في هذا الوقت المبكر لن يقابل أحداً يعرفه من الحياة السابقة. كان يحمل تحت إبطه علبة كرتونية، سيرسل فيها ثيابه المدنية إلى أهله، لاحقاً بعد أن يرتدي بنفسه الزي العسكري ويصير واحداً بين كُثر.

فُرز ڤولف إلى بلدة زانيتس في الشمال قرب مدينة روستوك، إلى فوج صواريخ مضادة للطائرات. الثكنة حديثة البناء، وجيش الشعب الوطني ما زال فتياً وبدأ لتوه بالنمو. بعض الضباط كانوا في الجيش النازي. والبذلات العسكرية لا تختلف كثيراً عن سابقاتها. فكر ڤولف في أبيه ڤرنر وزمنه في الحرب التي لم يمض عليها الكثير. شخّص طبيب الجيش أن ركبتي ڤولف لا تصلحان للخدمة الميدانية، وحوّله إلى الخدمات الثابتة، فسُرَّ ڤولف بذلك. كانت قيادة الفوج تبحث عمّن يتقن الرسم، فتقدم ڤولف وكان عليه فوراً أن يرسم لوحة جدارية لصالة السينما الجديدة. عبّر قائد الفوج عن رغبته في أن تمثل جندياً بالخوذة الفولاذية والرشاش ينظر إلى

الأفق وهو واثق بالنصر. وتحت الصورة تُسطر الكلمات التالية: "نحن ندافع عن وطننا". نفذ ڤولف كل شيء حسب رغبة القائد، فتلقى مديحاً وعُيِّن في عمل مكتبي. إضافة إلى ذلك تم تدريبه على عرض الأفلام وفُرز إلى المكتبة.

إلى جانب كابينة عرض الأفلام توجد غرفة صغيرة يمكن قفل بابها من الداخل. هنا كان ڤولف يستمع إلى الأسطوانات الموسيقية ويقرأ الكتب، هنا كان في إمكانه أن ينسى عالم الفوج قليلاً ليخلو إلى نفسه. ولاحظ ڤولف أن الجيش في واقع الأمر يسير مثل (ج.أ.د) كلها، فهنا يسود أيضاً مبدأ "خذ وأعطِ"، وهنا توجد المساحات الصغيرة الحرة والزوايا التي يمكن للإنسان أن يختفي فيها. شارك ڤولف بمسابقة الرسم على مستوى الفرقة كلها واحتل المرتبة الأولى، وكانت مكافأته إعفاءه من المشاركة في المناورات. وصار يرسم لوحات ملونة لمساند العروض المتحركة استعداداً لزيارة جنرالٍ للفوج مثلاً، فيكافأ بغض النظر عن قضاء صديقته الجديدة الليل عنده في الثكنة عند ضبطها خارجة. لقد أحب ڤولف هذه اللعبة، اختبار الحدود المتاحة، فلم يبال برسم لوحات دعائية سخيفة، إذا تركوه لشأنه لقاءها. كان يرى الآخرين، الذين هم أيضاً لا يؤمنون بالقضية الكبرى، لكنهم جميعهم يشاركون في العمل. يقول ڤولف إن الأمر كان دائماً يتعلق بالواجهة فحسب، وإن الدولة لم تطالب بإيمان حقيقي. لم يكن الإنسان مضطراً إلى الانحناء تزلفاً ولا إلى بيع نفسه، كان يكفي أن يشارك المرء في اللعبة، في مسرحية الاشتراكية العظيمة.

وأنا أتساءل، هل كان الأمر حقاً كما يقول؟ وهل كان المرء يلاحظ حقاً أنه تخطى حدوده، عندما يتسلل الإيمان الغريب بهدوء إلى نفس الإنسان؟ أليس الآخرون في نهاية المطاف هم الذين يحددون قواعد اللعبة؟ ربما

لم تكن تلك المساحات الحرة والإمكانيات سوى وهم يشغلك عن أنك في واقع الأمر تسهم في عملهم. وأنا أيضاً كان يخامرني الشعور دائماً بأني وفيٌّ لنفسي، وكنت أعرف في الوقت نفسه ما عليَّ أن أفعل كي لا أتعرض لمشاكل. إن هذا الجمع بين الأفكار الجسورة والأفعال المطيعة، بين الأكاذيب الصغيرة والحقيقة الكبيرة، يتعلمه الإنسان بسرعة كبيرة، ويصعب عليه من ثم التخلي عنه ثانية. إنه استراتيجية نجاة، آلية حماية لأولئك الذين لا يقدرون أن يحسموا موقفهم.

كان ڤولف دائماً يكسر القواعد، وكأنه يريد بأي ثمن أن يعرف النقطة التي لا بد للآخرين عندها من أن يُظهروا رد فعلهم. لم يكن يقدم على ذلك عن وعي، بل كانت الأمور تحدث هكذا ببساطة. وغالباً ما كان يُفاجأ بجسارة أفعاله. يركب موتور الفسبا مع صديقته وتضبطه دورية مرور بسبب سرعته الفائقة، فإذا به لا يحمل شهادة سواقة ولا إذن خروج. أعادته الشرطة العسكرية بالأغلال إلى الثكنة ليحاكم بتهمة الهروب من خدمة العلم، فتبين من التحقيق معه أنه لم يؤدِّ قسَم العلَم أصلاً. في يوم أداء القسَم فرك ڤولف إحدى عينيه بمرهم حارق عامداً، فانتفخت عينه ونُقل إلى المستشفى في روستوك، فتجنب بذلك أداء القسم ولم يعد من الممكن اتهامه بالهروب من خدمة العلم. جرت عدة محاولات لاحقاً ليؤدي القسم، وفي كل مرة كان ثمة ما يحول دون استكمال الشروط. وهكذا وبعد ثمانية عشر شهراً ترك ڤولف الجيش دون أن يؤدي قسَم الولاء للجمهورية. لقد تملص بمهارة، دون أن يأبى علناً.

فيما بعد، صارت حكايات ڤولف عن مدة خدمته في الجيش أفضل تسلية لنا. كنتُ مغرماً بمغامراته في جيش الشعب الوطني. يا للمرات التي قلد لنا فيها منظر وجه الرائد عندما عثر على الكيلوت النسائي في سرير

ڤولف! وكم من مرة كان عليه أن يعيد سرد حادثة تسلقه سور الثكنة ليلاً وهو سكران! وفي كل مرة كان يزيّن قصصه بشيء جديد ما. لا أدري كم من هذه القصص الطريفة حدث فعلاً، وأعتقد أن ڤولف نفسه في لحظة ما من الزمن لم يعد يدري أيضاً. على كل حال كانت مرحلة الجيش هذه تبدو لي دائماً مثل حفلة هزلية ممتعة، وڤولف مثل مهرج لا يُجارى، يُظهر الآخرين أكثر غباء مما هم عليه في الواقع. أما اليوم فأعتقد أن ڤولف كان أقرب إلى أن يكون سمكة تحلم بالبحر، ناسية في خضم الحلم أنها ما زالت تسبح في الحوض الزجاجي.

وأعتقد أيضاً أن ڤولف حينذاك لم يكن مهتماً بالسياسة على نحو خاص: لم يكن لديه قناعات يواجه بها النظام. ما كان يهمه هو نفسه وحاجاته وكرامته. لم يكن يحب أن يشترط أحد عليه شيئاً. كان لديه تحسس تجاه قواعد الآخرين، ويريد أن يحدد قواعد حياته بنفسه. عندما يحس بضغط خارجي عليه، يصبح عنيداً. وإن أثار أحد أعصابه أكثر مما يحتمل، كان يلكمه على وجهه. لقد عرفته دائماً رجلاً قوياً ومستقلاً، ويصر على استقلاليته. وهذه الصفات سرعان ما تتحول إلى موقف سياسي، في بلد تحكمه الجماعة، والفرد فيه آيل إلى زوال. ولكن حتى الرفاق أدركوا شخصية ڤولف وكيف يشتغل ويفكر. وفي ملفه عند أمن الدولة سنقرأ لاحقاً: "إنه ذو سلوك نقدي، دون أن يكون موقفه عدائياً". والحرية التي أخذها لنفسه، بدت لي طبيعية في وقت ما. لولاه ما أظن أني كنت سأصير غربياً أبداً.

التحق ڤولف بعد الجيش بمعهد مهني للغرافيك التطبيقي، حيث كانت غالبية الطلبة إناثاً. وسرعان ما عاد إلى حياته الخفيفة السابقة، فكان لديه صديقة ترافقه إلى المسرح وصديقة تطبخ له وثالثة للفراش. لم ترهقه الدراسة، لأن معظم ما يعلمونه في المعهد كان يعرفه عملياً. وفي

البيت كانت أمه وأخته تدللاته، فقد صار بالنسبة إلى أمه بديلاً عن رجل البيت، وبالنسبة إلى أخته بديلاً عن الأب. وعندما بلغ الثالثة والعشرين من عمره ضاق عليه بيت العائلة ذو الغرفتين ونصف، فانتقل إلى المتجر في برِنسلاوربرغ، وأمه لم تغفر له ذلك حتى اليوم.

بدأ ڤولف يشتغل بتصميم الغرافيك مستقلاً بعمله، ولم يكن هذا سهلاً في (ج.أ.د)، نظراً لقلة الورق ولصعوبة الحصول على عقود تكليف. المال القليل الذي يجنيه كان يضعه في جيبه مثل أوراق الملاحظات. وأحياناً يكون مفلساً من أول الشهر، فيخفف أكله، وتصير حتى بطاقة ركوب الترام عبئاً مالياً. هذا القلق المادي بات يضايقه ويجعله عصبياً واضطربت دورة دمه جداً. عندما يكون منفعلاً يسقط، وفي حالات الإرهاق النفسي ينام. يقول إن هذه الحرية الجديدة كانت جميلة، لكنها أرعبته أيضاً. يحتمل أن هذا قد ذكره بفترة ما بعد الحرب حين كانت العائلة بلا مال ولا طعام فجاعت. كان يفتقد الشعور الأساسي بالأمان، بالثقة المتجذرة بأن الوضع سيتحسن ذات يوم. وقد لاحظت ذلك لاحقاً عدة مرات، عندما كان يشتري فجأة عشر علب لحم دون أن يستطيع تقديم أي مسوغ لذلك. أو عندما كان يشتري أطناناً من الفحم ليخزنها في القبو قائلاً: لربما تغير الوضع. عندما سقط جدار برلين فجأة ولم يعرف أحد كيف ستسير الأمور في المستقبل، اشترى ڤولف ثياباً داخلية طويلة للعائلة كلها. كان يعرف سخافة ما فعل، لكنه لم يستطع إلا أن يفعل ما فعل.

وذات يوم أيضاً أحس بأن علاقاته النسائية قد زادت عن حدها، فقرر أن يقطعها جميعها دفعة واحدة وأن يركز قواه. في اليوم الذي انفصل فيه عن المرأة الأخيرة، وبعد أن ودعها زار مساء صديقه هانزي. وجد عنده ضيفاً آخر وامرأة جميلة شاحبة ذات شعر داكن طويل، لم ينتبه إليها ڤولف بادىء الأمر جيداً. ثم بذل جهداً حقيقياً ليلفت انتباهها إليه. كان فيها شيء

من الصبا والخجل وشيء خاص يصعب تحديده. فجذبته إليها كالسحر ونسي قراره طيب الذكر. وعندما مشيا معاً عبر الحديقة المغطاة بالثلج وأمسك بيدها، لم يكن في وسعه أن يفعل غير ذلك.

7. آثار

في طفولتي كنت أصنف الناس حسب سياراتهم. لم أكن أعرف أسماء أصدقاء والدَيَّ، لكنني كنت أعرف ما إذا كانوا يملكون ڤارتبورغ سياحية بيضاء أو لادا 1500. معظمهم كانوا يملكون "ترابانت"، مما يجعل التفريق بينهم صعباً. أحياناً كنت أنتبه إلى لون السيارة أو إلى قطعة زينة معينة، ولكن سائقي سيارات "ترابانت" بصورة عامة لم يثيروا اهتمامي. أما إن كانت السيارة سكودا زرقاء مع مصباح إضافي لكشف الضباب ومقود ملبس بجلد صناعي، فهي لن تغيب من ذاكرتي أبداً. وكذلك في حال كانت السيارة موسكفيتش حمراء مع بطة قماشية معلقة من المرآة. لكن الرقم 1 عندي كانت سيتروين بَللاس بلون بني فاتح، وكانت ملك جدي غرهارد. كانت هذه السيارة هي فيراري (ج.أ.د). وأكبر لحظات سعادتي كانت عندما يأتي جدّاي لزيارتنا، وتسنح لي الفرصة للجلوس في السيتروين بينما تشرب العائلة القهوة. كنت أجلس ساعات وراء المقود متخيلاً أني السائق االخاص لإريش هونيكر. لا أدري من أين جاءني هذا الخاطر، إلا أن هذه السيارة كانت على درجة من الفخامة والرفاهية، بحيث لا يستحقها إلا رئيس دولة. أحياناً كان غرهارد يجلس إلى جانبي ونلعب لعبة الطيارين، فأكون أنا القبطان، ويسمح لي بتشغيل المحرك وتحريك

النقَّال، الذي يجعل الطائرة تحلق دونما صوت. ما كان في وسع جدي أن يزودني بحجة أقوى لتفوق الرأسمالية.

في عهد السيتروين، الذي تخللته فترة قصيرة مع بيجو، كان جداي يقيمان في باريس. كان غرهارد يعمل هناك مراسلاً لجريدة "ألمانيا الجديدة" فلم أره في الواقع إلا في عطلة عيد الميلاد وفي أثناء العطلة الصيفية، حين كان يحضر لنا علب ليغو وجينزاً وكنزات مخملية. كان غرهارد هو الجد الغربي القادر عملياً على تلبية كل الرغبات. حتى ڤولف كان يحصل على هدايا، لذلك لم أكن أفهم لماذا كان يجد غرهارد غبياً. عندنا في البيت لم يتوقف الشجار حول غرهارد. ڤولف كان يقول إنه ستاليني، وحين كنت أسأل عن معنى ذلك، كانت أنيت تشير بيدها أن كفى، وتغير الموضوع. أحسست بأن ثمة ما ليس على ما يرام، لكنني لم أستوعب ما الموضوع. أحياناً كنت أسمع والديَّ يتشاجران في المطبخ، وحين أذهب إليهما يصمتان. وعندما أسأل علام يتشاجران، كانت أنيت تقول إن الأمر يتعلق بالسياسة. وكنت حينها أجد السياسة أمراً بليداً، لأنها تجعل مزاج الجميع سيئاً. وفي وقت من الأوقات لم يعد ڤولف يرافقنا عندما نذهب لزيارة جديّ. كما صرت أنا أيضاً قلما أرى غرهارد. ولمّا كنا نلتقي، كان يبدو شارداً ومنغلقاً على نفسه. لم نعد نلعب طيارين أو سائقين لـ إريش هونيكر، كما صارت الهدايا أقل. كان هذا هو الوقت الذي فقدت فيه جدي.

أما جدي الثاني فلم أعرفه إلا من حكايات ڤولف. عندما صار ڤولف في العشرين قطع صلته بأبيه. فلا رسالة ولا إشارة حياة ولا شيء إطلاقاً. كنت أعرف أن اسمه ڤرنر وأنه كان يضرب ڤولف وأنه كان يرغب في نساء أخريات أكثر من جدتي زيغريد.

عندما كان ڤولف يحكي عن ڤرنر، يكون حزيناً وعاجزاً نوعاً ما، ولهذا كنت أفرح دائماً عندما يغير الموضوع. بالنسبة إليَّ كان ڤرنر نوعاً من رجل متوحش، مجهولاً شريراً. ولهذا لم أكن مندفعاً للتعرف عليه. ڤرنر لا ينتمي إلينا وليس هناك أي سبب لتغيير ذلك.

استمر الوضع على هذه الحال إلى أن سقط الجدار، وعندها قال فولف إن الوقت قد آن لمعاودة الحديث مع فرنر. ربما لأن الأمور كلها تداخلت في بعضها البعض. الحياة كلها بدأت من جديد، إنها نهاية القرارات الحاسمة بصورة قطعية، حتى الأب المنبوذ حصل على فرصة ثانية. كنت مضطرباً جداً عندما صعدنا بعد عصر يوم شتائي الدرج المؤدي إلى مسكن فرنر في بانكو. وقف في الباب رجل مسنٌّ بدا لي بطريقة ما معروفاً. عينا فرنر هما عينا أبي. عينان مرحتان سريعتا الحركة لا تكُفان عن التنقل من زاوية لأخرى وتسجيل كل ما تريانه. عندما دخلنا غرفة الجلوس قال فرنر لفولف أن يطفىء النور في الردهة. اضطررت إلى الضحك، فهذه الجملة اللعينة رافقتني طوال طفولتي، إذ كان فولف يكرر دائماً وأبداً أن علينا إطفاء النور حالما نغادر المكان، لأن الكهرباء غالية وليس هناك ما هو أسوأ من هدر المال. الآن عاد أبي طفلاً مطيعاً يطفىء النور وراءه في الردهة. أرانا فرنر ورشته. بدا كل شيء كما في محترف فولف تماماً. كانت الأدوات مصفوفة بترتيب، والورق على الجانب الأيمن عند حافة الطاولة. وفكرت في أن الإنسان لا ينجو من أبيه أبداً، مهما أبعده عنه. وفهمت أني أعرف فرنر منذ زمن طويل؛ أنه كامن في أبي وربما في ذاتي أنا أيضاً، وأن العائلة ليست قضية مرتبطة بقرار.

لم يلتق جداي ببعضهما البعض قط. ولا أدري إن كان لدى أحدهما ما يقوله للآخر لو أنهما قد التقيا. لكنهما على أية حال قد بنيا الدولة نفسها، وكانا في الحزب نفسه، ولربما كانا يؤمنان بالقضايا نفسها. ومع

ذلك، يحتمل أنهما كانا سيبقيان غريبين عن بعضهما، لأن دروب حياتيهما اختلفت ولأن الأقدار قد تدخلت مبكراً وقادت كلاً منهما في اتجاه.

عندما ولد غرهارد في 8 حزيران/ يونيو 1923 في برلين، أعلنت العائلة عن قدوم الابن إلى الحياة ببطاقات مشغولة ذاتياً عليها الحروف الأولى من اسم الوليد مطبوعة بماء الذهب. كان لغرهارد أختان أكبر منه، كانتا في صور الطفولة تحيطان بالابن الأول حافظ السلالة مثل ملاكين، يرتديان ثوبين مكشكشين مع وشاحين فضفاضين من الحرير على رأسيهما. وحتى غرهارد كان يرتدي ثوباً صغيراً أبيض، جعل وجهه يبدو أكثر نعومة. وكان والده فيلهلم آنذاك يدير مع شريك له مكتب محاماة كبير متخصص في الحقوق الدولية في شارع كورْفورْشتِندام. وكان لديهم مربية أطفال ومدبرة منزل وسائق. كانت الأم، فريدا، تدير شؤون البيت مالياً، وهي سليلة أسرة القباطنة الهامبورغية باريتس، والتي ترجع أصولها إلى البحار الهولندي فيلّم باريتس الذي اكتشف في القرن السادس عشر المعبر إلى القطب الشمالي، والذي سُمّي لاحقاً باسمه. وما زالت أسرتنا تفخر بذلك حتى اليوم، ودليل ذلك أن لا أحد منا يجيد معرفة الاتجاهات ولو تقريبياً. أنا مثلاً أتوه حتى في الحي الذي أقيم فيه، وأظن أن أمي ستموت من الجوع إذا تركت وحدها في الحديقة المركزية للمدينة. يحتمل أن مواهبنا في حسن التوجه قد استهلكت جداً قبل خمسمئة سنة، بحيث لم يبق منها شيء لنا.

ينحدر فيلهلم من أسرة يهودية انتقلت في القرن 18 من وارسو إلى برلين، حيث صار أبناؤها إما أطباء أو محامين. ومنذ وقت مبكر تحولت العائلة إلى العقيدة المسيحية البروتستانتية وبذلت جهدها لمحو أصلها اليهودي ما أمكن، حتى أنها تخلت عن اسم الأسرة الأصلي، لـفين، واستبدلته باسم ليو، الذي لا أجده ذا وقع بروسي قح. وعندما صار غرهارد

في الثالثة من عمره، انتقلت العائلة إلى مدينة راينسبرغ، حيث أقامت في فيلا على البحيرة.

لاحقاً سأل غرهارد أباه عن سبب تركهم برلين، فأجابه فيلهلم: «آن الأوان، فقد كنت على وشك أن أصبح ثرياً». لكن السبب الرئيس هو أنه لم يكن مرتاحاً للمناورات القانونية التي كان يضطر إلى خوضها لكسب قضايا موكليه، والذين كانوا بالدرجة الأولى مدراء عامين لشركات كبرى. وشرح فيلهلم لابنه أنه يفضل التعامل مع أناس بسطاء، بعيداً عن زحام برلين وصخبها، حيث لم يعد يجد الوقت للعزف على البيانو، لا سيما وأنه عازف بارع، ولطالما أسف لكونه لم يصبح موسيقياً. في راينسبرغ يقف أفراد العائلة كل مساء حول البيانو المجنح ويغنون أغنيات لشومَن وشوبرت وهوغو فولف. ومرة سأل غرهارد أباه لماذا يملك سيارة عادية وجارهم صاحب مصنع السكاكر يملك سيارة ضخمة مزينة بالكْروم، فقال فيلهلم: «الإنسان يُقدَّر بمنجزاته العلمية والفنية، وليس بما يملك من مال».

في ذاكرة غرهارد تتجلى راينسبرغ كفردوس. مدينة صغيرة شهيرة بقصر الروكوكو ومحاطة بالغابات والبحيرات، حيث يقومون صيفاً بجولات طويلة مشياً أو بالقارب. عندما يخرج غرهارد من المدرسة كان يذهب إلى مكتب أبيه، فإن وجده غير منهمك بالعمل، كانا يخوضان في أحاديث جادة، فيجلس غرهارد في الكرسي الجلدي الثقيل المخصص عادة للموكلين ويتحدثان في الأدب والموسيقى. أحياناً يقرأ فيلهلم قصيدة بصوت عال ويتوجب على غرهارد بعد ذلك أن يحفظها غيباً.

في تشرين الثاني/ نوفمبر 1927، قام جنرال فرنسي متقاعد بتكليف فيلهلم بقضية ليست كبيرة الأهمية في حينها: ثمة محرض يميني متطرف غير معروف بعد، اسمه يوزف غوبّلز زعم أنه بصفته وطنياً ألمانياً قد تعرض عام 1920 للتعذيب في قبو القيادة الفرنسية في مدينة كولن المحتلة بحضور

الجنرال. وقال في خطاباته علناً إنه نتيجة لهذا التعذيب قد تشوهت قدمه، التي كانت موضع سخرية الكثيرين آنذاك. أجريت المحاكمة في محكمة برلينية، وتمكن فيلهلم دون كبير جهد من البرهان على أن تشوه قدم غوبلز ذو منشأ ولادي. إذ قدم صورة يظهر فيها غوبلز الطفل عارياً على فراء دب، وكان مشوه القدم. وقدَّم صورة ثانية لصف غوبلز في المدرسة وهو جالس في المقعد الأول بقدمه المشوهة. كما قدم فيلهلم للقاضي نسخة مصدقة عن وثيقة عسكرية تثبت أن المتهم أعفي من الخدمة العسكرية في الحرب العالمية الأولى بسبب تشوه قدمه. حكمت المحكمة على غوبلز بدفع فرنك فرنسي واحد كتعويض رمزي للجنرال الفرنسي. وعقب الإدلاء بالحكم، تقدم محامي غوبلز من فيلهلم وقال له بلهجة تهديد: «أيها المحامي، سوف تتذكر هذا اليوم مراراً وبقوة».

لم يأخذ فيلهلم هذا الكلام على محمل الجد. ولكن بعد بضع سنوات، في خريف 1932 عندما استعد النازيون لاستلام السلطة، تذكر فيلهلم تلك المحاكمة. ومرةً أنصت غرهارد إلى حديث يدور في الصالون بين والديه بصوت منخفض، قال فيلهلم: «سوف يتقمون حالما يتمكنون». وأحاديث المائدة خلال تناول طعام العشاء، التي كانت حتئذ خفيفة ومرحة، لرغبة فيلهلم في إضحاك أفراد عائلته بحكايات طريفة، صارت جدية. فجأة لم يعد يتحدث الوالدان إلا بالسياسة، حول ما إذا كان النازيون سينجحون في استلام الحكم. كان فيلهلم يسمي النازيين "التيتان" و"البرابرة" وأيضاً "اللاقانونيين"، وهذه في نظره هي أكبر إدانة لهم، لأن القانون برأيه فوق الجميع. وكثيراً ما شرح فيلهلم لغرهارد أن ما يميز الإنسان عن الحيوان في المقام الأول، هو أن الإنسان يستخدم القوانين بوعي ليحقق تعايشاً عادلاً بين الناس. ولا يمكن أن يتصور فيلهلم أن مَن يُصرّح علانية أنه لن يتقيد بالدستور يمكن أن يمسك بمقاليد الحكم في ألمانيا.

في 30/ 1/ 1933، سُمّي هتلر مستشاراً للرايخ. وبعد أيام قلائل ظهر في صف غرهارد في المدرسة بعض الفتيان بقمصان بنية ورباط ذراع عليه شعار الصليب المعقوف. وعلى طريق العودة إلى البيت شرح أحد زملاء غرهارد له إنه لم يعد مسموحاً له أن يشاركه اللعب، لأن غرهارد غير نقي عرقياً. «صحيح أن أمك آرية لكن أباك يهودي». لم يفهم غرهارد قصد زميله. سبق أن سمع باليهود، ولكن ما معنى آري؟ وفكر غرهارد بأن الفتى قد خلط بين أمرين، فهو يقصد لا شك "عربياً". كان غرهارد قد قرأ مؤخراً كتاب مغامرات ينطلق فيه فرسان عرب عبر الصحراء ويُخضِعون كل مَن يجرؤ على الوقوف في وجههم. ركض غرهارد إلى البيت ودخل مكتب أبيه كالعاصفة قائلاً إنه يريد أن يصبح الآن عربياً مثل أمه.

قطع فيلهلم عمله وترك غرهارد يجلس في المقعد الجلدي الثقيل واستمع إليه. ومن ثم شرح الأب لابنه أن النازيين لطالما كانوا راغبين في استعادة أزمنة قديمة، كان الإنسان فيها يُرمى إلى المحرقة بسبب أصله أو معتقده. «لن يبقى شيء على ما كان عليه». قال فيلهلم، ولأول مرة ظهر على ووجهه شيء يشبه الخوف. كان على غرهارد أن يعد أباه بأن ينقل له كل ما يبدو له غريباً، وأن يكون حذراً في الكلام مع المعلمين والتلاميذ. كان حينها في التاسعة من عمره.

في الليلة التالية لحريق الرايخستاغ (مجلس نواب الاتحاد) في 28/ 2/ 1933، توقفت أمام بيت العائلة في راينسبرغ شاحنة تحمل مجموعة من قوات العاصفة الحزبية. استيقظ غرهارد لسماعه أصواتاً وصيحات. فتح نافذة غرفة الأطفال ورأى رجالاً بلباس عسكري يضربون أباه ويجرجرونه عبر الحديقة الأمامية إلى الشاحنة. رأى أمه تبكي مدراراً وهي واقفة على درج مدخل البيت. صرخ غرهارد في الليل. كانت صرخة يائسة وعالية ونفاذة لدرجة أنه قد استغرب صدورها منه. ولسوف يرى

صور هذه الليلة كثيراً لاحقاً. إنها الصور التي هزته من طفولته والتي ستريه في قادم الأيام دائماً ماهو الحق وما هو الباطل. في المذكرات التي دونها غرهارد في أواخر السبعينيات، وباتت نتيجة عجزه عن النطق مصدري الأكثر أهمية لمعرفة شيء عن حياته، كتب غرهارد: منذ أن رأيت وحشية معاملة أبي من قبل رجال الصاعقة، بات عنف النظام وجرائمه ضد الإنسانية دافعي الرئيس لمقاومة الفاشية.

عثرتُ على الصيغة الأولى من المذكرات في إضبارة خضراء اللون في أرشيف الاتحاد في ليشترفلِده - برلين، وهي تتشكل من 298 صفحة بالآلة الكاتبة على ورق رقيق مصفر، تنبعث منه رائحة غبار عند تقليب الصفحات. يُرجح أن جدتي نورا هي التي نضدتها. كانت طوال السنين سكرتيرته ومرافقته. لا أدري ما إذا كانت قد رغبت ذات يوم في أن تقوم بشيء ما لنفسها، ولا ما إذا كان قد سألها عما تريد. لقد كانت نورا موجودة عندما يحتاجها غيرهارد، كانت تهتم بالأولاد وبتدبير شؤون البيت. أمضت حياتها كلها في ظله، وتقول اليوم إن الأمر كان على ما يرام. وماذا في وسعها أن تقول غير ذلك؟

كان غرهارد يكتب دائماً بيده، ويقول إنه لا يشعر بالنص إن لم يكتبه بخطه. لقد حُفظت مذكراته في أضابير لجنة الرقابة الحزبية، حيث يجلس مراقبو الحزب يقظين، لمعرفة ما إذا كان هذا أوذاك الرفيق لا يزال على الطريق القويم. وهذه اللجنة هي التي تقرر أيضاً مَن يُنبَذُ مِن الحزب، الأمر الذي كان يعادل رصاصة الموت بالنسبة إلى رفيق مؤمن بعقيدة الحزب. كم بودي معرفة كيف وصلت مذكرات غرهارد إلى هناك! تُرى هل أوصلها بنفسه إلى الرقابة؟ معظم النص يتطابق مع ما نشر بعد بضع سنين بعنوان "قطار الصباح نحو تولوز". إلا أن بعض المقاطع محذوفة، لا سيما التي تتعلق بعلاقات الشيوعيين الألمان مع الاشتراكيين الديموقراطيين في

فرنسا. لقد وصفها غرهارد كتعاون حميم بين الطرفين، لكن ذلك على ما يبدو لم يعد ينسجم مع الصورة التاريخية للرفاق في برلين الشرقية. كما أن المناقشات الحادة بين المهاجرين الألمان في باريس حول حلف عدم الاعتداء بين هتلر وستالين عام 1939 لم تظهر في الكتاب، بينما كتب غرهارد أن الشيوعيين الألمان كانوا مصدومين بتحالف موسكو مع النازيين. وهذا أيضاً أرادوا إلغاءه لاحقاً، لأن الحزب الشيوعي الألماني قد وافق على الحلف، والحزب طبعاً لا يخطىء.

في وصفه سنوات طفولته وفتوته المبكرة، يُظهر غرهارد في مذكراته شيئاً من العواطف. فيكتب عن مخاوفه وشكوكه ونقاط ضعفه وفضوله. أما فيما بعد، عند كلامه عن عمله السري في فرنسا، عندما شارف على أن يصبح رفيقاً، فقد صار كلامه رصيناً وذرائعياً، ولكأنه في لحظة ما قد تجمد في حالة معينة، ولم يعد قادراً على تغييرها، حالة ادعت كل شيء، واتخذت أصعب القرارات بكل بساطة، لأن الأمر لم يعد يتعلق به كشخص وإنما بالقضية الكبرى التي صار الآن خادمها. إني أتساءل: هل كان اليومَ يا ترى سيكتب كل شيء بالطريقة نفسها، وهل سيحافظ على موقفه، لو كان في مقدوره الكلام؟

8. صور مسرحية

بعد مرور أسابيع على اعتقال فيلهلم، وصل إلى علم العائلة أنه قد رُحِّل إلى معسكر الاعتقال في أورانينبورغ. فحركت نورا كل ما ومَن في إمكانها تحريكه لإطلاق سراح زوجها. واتصلت بالكاتب إرنست فيشرت الذي يعتبر صديقاً مقرباً من فيلهلم، وهو محترم من قبل النازيين لأنه لم يهاجمهم، كمعظم الآخرين منذ البداية. أما في المقام الأول فيأتي حب غوبّلز الخاص لهذا الكاتب، ما أدى إلى قبول وساطته، بالسماح بإطلاق سراح فيلهلم مؤقتاً من معسكر الاعتقال. قضى فيلهلم عدة أسابيع في أحد المستشفيات، وعندما عاد إلى البيت رأى غرهارد أمامه رجلاً شاحباً ممروضاً.

كلف غوبلز محامياً بتحضير محاكمة جديدة تثبت بصورة قطعية أن تشوه قدمه ناتج عن تعذيبه في القيادة الفرنسية في كولن. تم استجواب فيلهلم عدة مرات، وفي أيلول/ سبتمبر صادرت قوات العاصفة جواز سفره وأخبرته بأنه ممنوع من مغادرة بيته بأي حال من الأحوال. بعد بضعة أيام، وفي أثناء تناول طعام العشاء، سأل فيلهلم ابنه غرهارد عما إذا كان يرغب في مرافقته إلى برلين في اليوم التالي. أفطرا في السادسة صباحاً وغادرا بسيارتهم إلى العاصمة. هناك زار فيلهلم عدداً من زملائه وسلمهم

ملفات بعض القضايا، التي لن يتمكن من متابعتها بنفسه. ومساء نزلا في فندق قريب من بوابة براندنبورغ. ارتدى فيلهلم بذلته السموكينغ وغرهارد بذلته الزرقاء الداكنة الخاصة بالمناسبات، وفقط عندما ركبا السيارة أسرَّ فيلهلم لغيرهارد أنهما ذاهبان إلى دار الأوبرا، وقال إن زيارة الأوبرا كان مخططاً للقيام بها معه بعد بضع سنين، كمدخل إلى عالم الكبار، «ولكن لم يعد لدينا ما يكفي من الوقت، لذلك صرتَ كبيراً منذ اليوم». ونظر فيلهلم إلى ابنه بعينين جادتين، ثم ابتسم وقال إنهما سيستمتعان الآن متعة كبيرة.

دخلا مطعم "شتانس أوبر". النُدُل يعرفون الوالد ويحيونه برؤوسهم بود. تناولا دجاجاً مشوياً مع نبيذ أحمر فرنسي، وكان نصيب غرهارد نصف كأس فقط. مال فيلهلم نحو ابنه قليلاً وهمس: «هنا لا نأتي على سيرة شؤوننا الخاصة. للندل وجدران المطعم آذان صاغية». بعد المطعم دخلا الأوبرا، حيث ستعرض حسب البرنامج "حفلة الأقنعة الراقصة" لفردي، وكان فيلهلم قد حجز لوجاً. في الاستراحة سألت عجوز من اللوج المجاور عمّا إذا كان "الصغير" يفهم شيئاً. غضب غرهارد من هذا السؤال، فهو في نهاية المطاف في العاشرة من عمره، لكنه شعر بالعزاء عندما سمع أباه يجيب: «ابني يفهم كل شيء». أما في واقع الأمر فإن غرهارد لم يستوعب إلا القليل جداً، فقد داخ من الكحول والإثارة، فكان يسمع الموسيقى كما في حلم ويرى الصور المسرحية تتالى أمام عينيه مثل سجادة ملونة. وقبيل الختام بذل جهداً ليبقي عينيه مفتوحتين. وعلى الرغم من ذلك كانت الأمسية رائعة، ولم يكن يدري بعد أنها آخر لحظات حياة بورجوازية مرفهة.

في صبيحة اليوم التالي شرح فيلهلم الوضع، قائلاً إنهما سيذهبان فوراً إلى زميلِ عمل سيساعدهما على الهروب إلى الخارج بطرق مأمونة، وقال أن لا خيار آخر أمامه، لأنه من المستحيل أن يكسب القضية الثانية ضد

غوبلز، «وإذا دخلتُ معسكر الاعتقال مرة ثانية فإني لن أنجو منه». يقع مكتب المحامي قرب الدار التي كان فيلهلم يقطنها في برلين. وبدت غرفة عمل الزميل لغرهارد فخمة جداً بالمقارنة مع غرفة أبيه. هنا يوجد سجاد سميك ومقاعد جلدية بيضاء وثيرة وقطع أثاث أخرى من فولاذ وزجاج. وعبر واجهة زجاجية عريضة يطل المرء على كورفورستندام المزدحم. رحب المحامي بفيلهلم مثل صديق قديم، واقترح إرسال الصغير إلى الخارج ليلعب ريثما تنتهي المباحثات. فأجاب فيلهلم: «إن ابني بصورة الوضع، وهو بالمناسبة كتوم جداً». فشعر غرهارد باعتزاز لا يصدق للمرة الثانية. لقد أعجبه زمن الأسرار الجديد، عالم الكبار، لكنه يشعر بأن وراء هذا كله يكمن خطر كبير، ومع ذلك فإنه مستمتع به.

يشرح المحامي قائلاً إنه سيستدعي الآن إلى مكتبه شخصاً كان سابقاً "ملك المهربين" بين ألمانيا وبلجيكا، والآن بعد أن عززت الحكومة الجديدة رقابتها على الحدود فإنه سيستغل علاقاته الجيدة لتهريب الناس. وهذا الرجل ما يزال مديناً له بخدمة، لذلك لن يتجاوز سعره خمسة آلاف مارك، أي خُمس ما يُطالِب به عادة. نصف المبلغ يدفع فوراً والبقية بعد نجاح الهروب. بدا ملك المهربين شاباً وسيماً أنيق الملبس. غمز غرهارد عندما صافحه وكأنهما يعرفان أحدهما الآخر منذ مدة. وقال إنه قد عاد هذه الليلة من مدينة آخن، وإن كل الأمور مرتبة، ويجب أن تتم العملية في نهاية هذا الأسبوع. وافق فيلهلم، وأخذ يعد النقود من فئة المئة مارك على الطاولة. النصف للمهرب والنصف الثاني للمحامي، الذي سحب من درج طاولة مكتبه صفحة ورق بيضاء ومزقها نصفين غير متساويين. أعطى النصف الأول إلى فيلهلم ووضع النصف الثاني مع النقود. «عندما تصلون إلى ليتيش أعطوا لمرافقكم نصف الصفحة الثاني. عندما يقدمها إليَّ وتكمل النصف الأول يتلقى مني بقية النقود». ذكر المهرب اسم قطار

على العائلة أن تستقله يوم السبت لتصل إلى آخن. وأن اللقاء سيتم في مقهى محطة القطارات.

بعد يومين غادر غرهارد مع والديه منزلهم في رايتزبرغ مع هبوط الظلام. وكانت أختاه قد وصلتا مسبقاً إلى الجدة في هامبورغ وستلحقان بالعائلة فيما بعد. مشوا إلى المحطة عبر الحقول وكلٌّ منهم يحمل بيده محفظة صغيرة لا أكثر، تاركين وراءهم كل شيء. أمضوا الليلة في برلين عند أصدقاء. وفي النهار التالي ركبوا القطار المتجه إلى آخن. كانوا جميعاً منفعلين جداً، لكن الرحلة مضت دونما عوائق. في مقهى محطة آخن تقف على البار امرأتان بمكياج فاقع ويشربن "شنابس"[1]، لكن المهرب غير موجود. بعد فترة انتظار أحسها غرهارد بلا نهاية جاء المهرب واعتذر عن تأخره قائلاً: «كنت أتأكد من أن أحداً لم يلحق بكم». ركبوا الترام وانتقلوا إلى غيره عدة مرات، إلى أن وصلوا أخيراً إلى المحطة الأخيرة خارج المدينة بين الحقول. عبروا مرجاً ورأوا عند طرف الغابة سوراً عالياً من الأسلاك الشائكة، إنها الحدود المحصنة حديثاً. وفي نقطة منه كانت هناك فتحة ضيقة مزودة بصليب دوّار، ويقف أمامها حارس ببذلة عسكرية ميدانية رمادية ويحمل بندقية. توقف فيلهلم مرعوباً عند رؤيته الجندي، لكن المهرب هدأ من روعه قائلاً: «لقد استلم الرجل نصيبه من المال». رأى الجنديُّ القادمين، فتنكب سلاحه ومشى ببطء على طول الحدود باتجاه الغابة. عبروا الفتحة الواحد وراء الآخر عند الصليب الدوار، وبعد نحو مئة متر قال المهرب: «حسناً، لقد نجحنا. نحن الآن في بلجيكا». بدأ يمشي متمهلاً ويتنفس بعمق كما بعد بذلِ جهد كبير.

أحس غرهارد بنوع من خيبة أمل، فكل شيء هنا يبدو مثله في ألمانيا،

---

(1) نوع من أنواع المشاريب الكحولية.

الغابة البلجيكية لا تختلف بشيء عن الألمانية وكذلك المروج وراء الحدود تشبه تلك التي في الوطن. وصلوا إلى مطعم في حديقة اسـمه "لا كوك جون"، حيث ودَّعوا مرافقهم. كان غرهارد في أطيب مزاج، فعبور الحدود من دون جوازات كان مغامرة لا تصدق. ولكن للأسف لا يوجد من يخبره بما مر به. ولاحظ لدهشته أن والديه ظهرا مكتئبين جداً. ولم يفهم إلا بعد وقت طويل أنهما كانا في تلك اللحظات يفكران في الوطن الضائع وفي حياة المنفى التي تنتظرهما والتي تفتقد إلى الأمان.

تابعوا طريقهم من لوتيش عبر بروكسل إلى باريس، حيث يعيش قريب ثري وعدهم بالمساعدة. جمع فيلهلم كل مدخراته واستأجر محلاً واسعاً في شارع مِزلي قرب ساحة الجمهورية، رتب فيه مكتبة ألمانية-فرنسية سرعان ما صارت ملتقى المهاجرين الألمان في باريس، وعاشت العائلة في غرفتين صغيرتين تابعتين للمحل. وخلال ذلك كانت الأختان قد وصلتا من هامبورغ، فضاق بهم المكان في المنزل الجديد. لم يحب غرهارد باريس، كان يفتقد أصدقاءه في رابتزبرغ ويحن إلى شواطىء البحيرة وإلى دراجته وكلبه برونو. وذات مرة رأى في الحديقة العامة امرأة عجوز تحكي مع كلبها أحاديث لا تنقطع، ففكر في أن حتى الكلاب في هذه المدينة تفهم أكثر منه.

بعد بضعة أسابيع على وصولهم إلى باريس أصيب غرهارد بالديفتيريا، فأدخل إلى مستشفى أمراض الأطفال الكبير في شارع سِرفيه. وُضِع هناك في صالة مع أكثر من أربعين طفلاً آخرين. كان الآخرون يهذرون ويضحكون، وثمة فتى أكبر من الآخرين قليلاً كان يروي حكايات تضحك لها حتى الممرضات. وغرهارد مستلق جانباً وصامت. طبيبة الجناح، وهي امرأة جميلة ذات شعر أسود وعينين زرقاوين، لاحظت وحدته، فكانت تأتي أحياناً إليه وتحاول أن تسليه. وفي موعد زيارات المعاينة كانت

تمنحه وقتاً أطول من الآخرين، وعندما تلمسه بيديها النحيلتين الدافئتين كان يشعر وكأن تياراً كهربائياً قد سرى في جميع أوصاله. لم يكن يدري ما الذي يجري له عندما يرى هذه المرأة، فيشعر بخفقات قلبه في عنقه وتختفي كل الهموم. ذات يوم جاءته الطبيبة حاملة كتاباً مدرسياً ودفتراً وقلماً، جلست على طرف سريره واقترحت أن تعطيه كل يوم درس لغة فرنسية لمدة ساعة قبل دوامها. من شدة فرحته بدا غرهارد كالمأخوذ، فثابر واجتهد كما لم يسبق أن فعل في مدرسة راينسبرغ. غنت له الطبيبة الجميلة أغاني أطفال بالفرنسية، وقرأت له من حكايات لافونتين، التي ما زال يحفظ بعضها غيباً حتى اليوم. وبالتدريج تحسن فهمه لما كان الأطفال يحكونه. وبعد ثلاثة شهور، عندما حان موعد خروجه من المستشفى، كان يحكي كفرنسي صغير.

خلال ذلك تأكد غرهارد من أنه يحب الطبيبة ويريد أن يتزوجها، حالما يكبر كفاية. فكر فيما إذا كان يجوز له أن يخبرها بذلك؛ ألن يبدو الأمر غريباً إن غازل ابن عشر سنوات امرأة ناضجة؟! في الليلة التي سبقت خروجه نام على نحو مضطرب، وفي ساعات الصباح قرر أن يعتبر التصريح لها بحبه بمثابة اختبار شجاعة. جاءت الطبيبة في وقتها المحدد كعادتها، وبدأ متردداً في البداية، ثم بصورة متسارعة أخبرها بمشاعره تجاهها. أنصتت إليه بجدية تامة، ولم تبتسم حتى. وعندما انتهى من اعترافات حبه، فكرت قليلاً ثم قالت إنه هو أيضاً يعجبها جداً، وإنها في الخامسة والثلاثين من عمرها وغير متزوجة، وإذا كان بعد عشر سنوات لا يزال مستعداً للزواج بها وهي حتئذ لم تجد أحداً آخر، فستكون مستعدة للعيش معه. ثم انحنت فوقه وطبعت قبلتين على خديه وغادرت الصالة. بقيا يلتقيان بانتظام طوال شهور. كانت تدعوه إلى بيتها لتناول الطعام أو يذهبان مشواراً عبر غابة بولونيا أو يحضران فيلماً سينمائياً. ولكن بمرور الوقت صارت اللقاءات

قليلة. في المدرسة انضم غرهارد إلى عصبة فتيان، فصار لديه مشاغل أخرى غير اللقاء مع امرأة كبيرة. وفي يوم صيفي من عام 1935 ودعته لأن عليها الانتقال إلى مدينة أخرى، ولم يلتقيا بعدئذ. في وقت لاحق حكى لي غرهارد عن حبه الأول هذا، عن هذه المرأة التي جعلته فرنسياً. قال إن الأمور التي ندم عليها في حياته قليلة، أما أن ينسى هذه المرأة ببساطة، فقد بقي الأمر في نفسه مثل أحجية مؤلمة.

في العطلة الصيفية التحق غرهارد بمخيم لأبناء اللاجئين بالقرب من باريس. كان ينام إلى جانبه إبن هانس بايملر الشيوعي المشهور منذ ذلك الوقت، وقد حكى له عن هروب أبيه من معسكر اعتقال داخاو، وعن بداية نضاله ضد النازيين. كان غرهارد يطلب منه أن يفصّل في وصف كل نقطة. فهذه الحكايات كان يجدها مثيرة لدرجة أن حسم أمره بأن يصبح ذات يوم مثل هانس بايملر.

عقب عودته من المخيم حكى لوالديه عن تجاربه هناك، وقال: «في واقع الأمر، أنا الآن شيوعي». ابتسم أبوه عند سماعه هذا الكلام، فهو متشكك حيال جميع العقائد المتطرفة. ولا يقيم وزناً لنسف جهاز الدولة البرجوازية وجهازها القانوني، للإتيان بحفنة من العمال والفلاحين إلى السلطة. لكنه يرى أيضاً كثيراً من الشيوعيين يناضلون بضراوة ضد النازيين ويجد أن من الضرورة بمكان التعاون مع هؤلاء الناس، إذا أراد الإنسان إسقاط هتلر. وفي وقت مبكر زالت مخاوف فيلهلم من الاحتكاك مع الشيوعيين. فقبل الحرب العالمية الأولى، عندما كان يدرس في المعهد العالي للقانون الدولي في جنيف، تعرف مع زميله في أحد المقاهي على السيد أوليانوف الذي ينتمي إلى الثوريين الروس، والذي صار بعد بضع سنوات مشهوراً عالمياً باسم لينين. آنذاك شرح لينين لابن البرجوازية الألمانية بكل صبر سياسة البلشفيك الذين يعتبرون استخدام الإرهاب

ضد النظام القيصري أمراً مشروعاً، لأن الحكام أيضاً يلجؤون إلى وسائل إرهابية. وقد ترك لينين انطباعاً جيداً في نفس فيلهلم، الذي شعر لاحقاً بنوع من التعاطف مع الدولة التي أسسها لينين. وحوار المقهى مع لينين كان أيضاً أحد الأسباب التي رجحت انضمام فيلهلم لاحقاً إلى المقاومة الفرنسية، التي تناضل بالعنف ضد نظام يمارس العنف.

الزميل الذي حضر مع فيلهلم حوار المقهى اسمه بيير مندِس-فرانس، وقد صار عقب الحرب العالمية الثانية رئيس وزراء فرنسا. في وقت وصول فيلهلم إلى باريس كان مندس-فرانس نائباً متنفذاً لحزب الاشتراكيين الراديكاليين الحاكم. وبعد فشل حكومة الجبهة الشعبية اليسارية عام 1938، طلبت شرطة باريس من عائلة فيلهلم وغيرها من عائلات المهاجرين المعدومة الدخل مغادرة البلد بأسرع ما يمكن. التفت فيلهلم رجاء المساعدة إلى زميل الدراسة القديم، فجاء مندس-فرانس بنفسه في اليوم التالي، اشترى الجزء الأكبر من موجودات المكتبة، وأجرى اتصالاً مع وزارة الداخلية الفرنسية توصل به إلى السماح للعائلة بالبقاء.

بقي فيلهلم بالنسبة إلى غرهارد شريك الحوار الأهم، عندما كان الأمر يتعلق بالسياسة. وبناء على ذلك لم يصِر غرهارد شيوعياً، وإنما عضواً في منظمة شبيبة الحزب الاشتراكي الفرنسي "الصقور الحمر"، وصار يرتدي قميصاً أزرق وفولاراً أحمر. وخلال المظاهرات التي عمت فرنسا عام 1936، كان مع الصقور الحمر في قاعات تجميع سيارات رينو في جزيرة سيغوين في نهر السين يغني أناشيد عمالية أمام آلاف العمال. كما شارك عام 1937 في اقتحام الصقور مديرية التأمينات الباريسية وقاطعوا خطاب رئيس الوزراء ليون بلوم بصيحات: «طائرات لإسبانيا»، وكان الهدف إقناع رئيس الحكومة بضرورة دعم الحرس الشعبي الإسباني ضد فرانكو الفاشي. لكن ليون بلوم حافظ على سياسته في عدم التدخل في

الحرب الأهلية الإسبانية، فتساءل غرهارد: ما هؤلاء الاشتراكيون الذين لايجرؤون على النضال؟!

كان غرهارد يرافق أباه بانتظام عند ذهابه إلى مقهى "مفيستو" في شارع سان جيرمان، حيث يلتقي أعضاء رابطة حماية الكتاب الألمان ويستمعون لمحاضرات لـ هاينريش مَن وليون فويشتفانغر وآنّا زيغرز ورودولف ليونارد، الذين كانوا وغيرهم يتوقعون نهاية قريبة للنظام النازي، لأن شعباً متحضراً كالألمان، على حد قولهم، لا يمكن أن يتبع هؤلاء المجرمين أبداً. كانت حججهم تبدو مقنعة جداً، لدرجة فكر معها غرهارد أن النازيين مقضي عليهم منذ الآن. وأحد الذين كان لهم تأثير عميق على غرهارد ذي الرابعة عشرة من عمره كان المراسل الصحفي الشهير إغون إرفين كيش، الذي يتردد كثيراً على مكتبة فيلهلم ويقيم دورات لغة ألمانية وتاريخ لأطفال المهاجرين. سبب إعجاب غرهارد الشديد بكيش يعود بالدرجة الأولى إلى قدرته الهائلة فعلى تنفيذ ألعاب خفة اليد، مثل إخفاء قطع النقود المعدنية وعلب الكبريت، لتظهر بعد لحظات من جيب غرهارد مثلاً. كما يتميز كيش بأسلوب مشوق في روي الأحداث التاريخية، وكأنه كان حاضراً بنفسه في كل مكان. وذات مرة أخذ معه غرهارد وثلاثة تلاميذ آخرين إلى فرساي وأراهم أماكن أحداث الثورة الفرنسية. مشوا على الدرب الذي مشته نساء أسواق باريس للاحتجاج على الجوع. ورأوا عرش لويس السادس عشر، وحكى لهم كيش عن الحَذّاء، الذي بعد نهب القصر، أخذ رمز السلطة هذا ونصبه في ورشته في فوبورغ سان أنتوان، حيث بقي زبائنه طوال سنوات يجلسون على هذا العرش عند أخذ مقاسات أقدامهم. كيش يروي التاريخ بطريقة مختلفة تماماً عن المدرسة. إنه لا يبدي اهتماماً بحياة الملك، وإنما بثورة الشعب. إنه يستقرىء التاريخ من تحت ويشرح لتلاميذه أن كل نظام حكم ظالم سيلاقي نهايته الوخيمة بأيدي جماهير

البروليتاريا. فيريد غرهارد أن يصبح ثورياً الآن وحتماً، ولمّا أخبره كيش بأن مناضلي المقاومة الشيوعيين ثوار بكل الأحوال، صارت خطته عملياً جاهزة.

ذات صباح في نيسان/ أبريل 1940، يقف رجال من الدرك الفرنسي عند الباب في شارع مِزلي ويطلبون من العائلة جمع حاجياتها، فهناك أوامر من الحكومة الفرنسية بتجميع اللاجئين الألمان في معسكرات، نتيجة الحرب القائمة مع ألمانيا منذ ثمانية أشهر. هذه الإجراءات لا تشمل غرهارد، لأنه لم يبلغ السابعة عشرة بعد، وأمه تستثنى كذلك للعناية به. يرسَل فيلهلم والأختان إلى معسكر في غورس على طرف جبال البيرينه. ويحس غرهارد فجأة بأنه قد فقد سنده في الحياة، فلم يعد قادراً على النوم ليلاً ويمضي سحابة النهار في خوف دائم على أبيه وأختيه. وكل ما بدا له حتى ذلك الحين مؤكداً صار موضع شك. فرنسا، وطنهم الجديد، بلد الديمقراطية وحقوق الإنسان خانهم. وثمة أفكار جسورة تضج في رأسه، فيتخيل نفسه وهو يحرر عائلته في الخفاء ليلاً من المعسكر، ويطلق النار على جندي فرنسي اعترض طريقه، ثم يعود إلى حزنه وضعفه. لقد عرف الآن أن ليس ثمة مكان آمن بعد يمكنه اللجوء إليه، وليس هناك من يحميه. ولذلك يجب عليه أن يأخذ مصيره بيده.

9. تحذيرات

عندما اقترب الجيش النازي في حزيران/ يونيو 1940 من باريس، جمع غرهارد بعض حاجياته في حقيبة ظهر وودع أمه ثم غادر المدينة. سار على قدميه مع مئات آلاف الفرنسيين الهاربين إلى جنوبي البلاد لينجوا بأنفسهم من الجنود الألمان. لقد قُطعت المواصلات بالقطارات، والشوارع المؤدية إلى أورليان وليون مزدحمة جداً. هناك سيارات بحمولات ثقيلة وشاحنات وعربات تجرها خيول تحاول شق طريق لها بين البشر. معظم الناس يمشون مثل غرهارد على أقدامهم، يحملون حقائب وعلباً ويدفعون أمامهم عربات أطفال. يمشون مئات الكيلومترات، يعبرون مدناً وقرى خلت من سكانها وتبدو ميتة. على جوانب الطرقات يبيع تجار خبزاً بائتاً وزجاجات ماء عادي بأسعار فاحشة. عندما وصل غرهارد إلى مدينة فيشي علم باستسلام الحكومة الفرنسية بقيادة المارشال بيتان. وعلم أيضاً أن هناك في جنوبي فرنسا منطقة غير محتلة بعد، فقرر متابعة المسير حتى الساحل. إنه لا يعرف البحر الأبيض المتوسط إلا من الإعلانات السياحية والكتب، وبدا له حينها هدفاً مناسباً للجوء إليه.

يا لسرعة الزمن! كيف مر كل شيء هكذا، ما أقل السنوات بين الطفولة الآمنة في راينزبرغ وحياة اللجوء في باريس وبين الهروب الآن! في مذكراته

يصف غرهارد هذا الانحدار بتماسك وعقلانية: "يبدو الوضع متطوراً من سيئ إلى أسوأ. ولكن لا بد من انفراج ما". إنه لا يرثي لحاله ولا يشكو من مصيره. قد يرتبط هذا بيفاعة سنه وأيضاً بكونه ليس الوحيد الذي تكسره الحياة. ربما كان وجوده مع الكثيرين الهاربين من باريس قد خفف عنه مصابه وجعله يقبل بنصيبه. ولكن ثمة ما بقي ملازماً له، هذا الشعور بعدم الانتماء إلى أي مكان. وأعتقد أن هذا الشعور قد رافقه طويلاً، ولربما كان السبب الأهم بالنسبة إليه عندما قرر الذهاب إلى (ج.أ.د) فيما بعد، إلى البلد الذي يبحث فيه كثيرون ممن لا وطن لهم عن بداية جديدة.

في نهاية حزيران/ يونيو وصل غرهارد إلى مدينة كان. الطقس كان بديعاً والمصطافون بثيابهم الفاتحة الألوان كانوا يملؤون أفنية المطاعم والمقاهي، والقوارب الشراعية البيضاء تتمايل في مرسى اليخوت، وعلى الشاطئ يلعب أولاد بالرمل. كل شيء كان تماماً مثلما تخيله غرهارد، سوى أنه أحس بنفسه تائهاً في هذا المحيط. قبيل وصوله بمسافة قصيرة كان قد صرف آخر نقوده ثمناً لقطعة خبز، ويكاد الآن يسقط من جوعه عندما دخلت أنفه رائحة حساء سمك مرسيليا. مساءً، اكتشف حقل بندورة مهجور يطل على المدينة من الهضاب المحيطة، والتقى هناك بلاجئ آخر من باريس يعيش منذ ثلاثة أيام على البندورة، واقترح عليه مراجعة الفنادق بالدور، فقد سمع أنهم يحتاجون لمعاونين.

في اليوم التالي قام غرهارد بجولة على الأبواب الخلفية للفنادق، ورأى بائعي خضراوات وسعاة لحامين ينقلون سلالاً وصناديق وأنصاف بقر مذبوح وخرافاً كاملة عبر المداخل الخلفية. وقرأ على الباب الخلفي لفندق "غراند أوتيل" لافتة كتب عليها "تحتاج إلى صبي مطبخ". قيل له في مكتب المستخدمين أن في إمكانه البدء كصبي متدرب دون أجر، ولقاء ذلك يمكنه أن يأكل من بقايا الأطعمة. عندما دخل غرهارد مطبخ

الفندق لأول مرة وقف مذهولاً من الدهشة؛ رأى قاعة هائلة الاتساع مبلطة الأرض والجدران بالأبيض وفي وسطها كتيبة من القدور التي تلمع من النظافة مصطفة على مواقد غازية. قدّم نفسه للسيد فرانسوا، وهو رجل سمين ولطيف، يرتدي طاقية الطهاة التقليدية، هنأه على قراره تعلم مهنة الطبخ. ولكن لا بد بداية من تناول الفطور، إذ لا يجوز العمل في المطبخ بمعدة خاوية. قام فرانسوا وهو رئيس قسم الحلويات والمأكولات الباردة بوضع لحوم باردة وفطائر وعلبة سردين وعدة أنواع من الجبن والكاتو على الطاولة أمام غرهارد الذي أكل بقدر ما يستطيع، وأخبر فرانسوا بفمه المليء أنه لاجيء من أصل ألماني. فنصحه فرانسوا بأن لايخبر أحداً بذلك، لأنهم هنا في "غراند أوتيل" يتحسسون من الأجانب، وخاصة من الألمان.

العمل في المطبخ مرهق. على غرهارد العمل طوال عشر ساعات، وأحياناً اثنتي عشرة ساعة، في تنظيف الخضار وتلميع قدور النحاس بحيث يستطيع طاهي اللحوم أن يرى انعكاس سكسوكته في قعرها. وعليه حمل الصواني الثقيلة إلى مصعد المأكولات ومسح الأرض وتنظيف السمك وكسر دروع السرطانات. وينام في غرفة صغيرة تحت السطح مع أربعة صبيان مطبخ آخرين وصبيي مصاعد وحامل حقائب. الحر فيها لا يطاق ليلاً، وليس لديهم سوى فانوس كاز واحد، كما عليهم جلب الماء بالسطل من الحمام. ولقاء ذلك كله كان الطعام ممتازاً وكافياً. وسرعان ما تبين لغرهارد أن رئيس طهاة الحلويات السيد فرانسوا من أتباع المذهب الفوضوي وشعاره الرئيس هو: "إن ما يلائم أكياس المال الجالسة في صالون المطعم لا يلائمنا كفاية". وعندما يكون على فرانسوا تحضير قالب كاتو فإنه يحضّر دائماً اثنين، الأنجح يكون من نصيب العاملين في المطبخ. وذات مرة طُلب منه تحضير قالب بالكريمة لمأدبة صاحب مناجم قصدير

بوليـفي. حمل غرهارد القالب إلى مصعد المأكولات فتزحلق وسقط. انضغط القالب من طرفه وتلوث برماد من الأرض من طرف آخر. فقال غرهارد محبطاً أنه لابد من تسليم القالب الثاني الآن. لكن فرانسوا رفض بصورة قطعية قائلاً: «ما كان على الأرض لا يؤكل على طاولتي؟». ثم عالج انضغاط القالب بيديه حتى استوى، وأخذ حفنة رماد نثرها على القالب من جميع الأطراف وقال لغرهارد: «أخبر النادل أني حضّرت القالب على الطريقة الهندية». وبعد ذلك أكلوا القالب الآخر في المطبخ.

رئيس المطبخ، وهو رجل قصير وسمين وأصلع، يدعوه الجميع "ميتر"[1]، لا يدخل المطبخ إلا ببذلة السموكينغ، قبل الغداء بقليل وقبل العشاء بنصف ساعة. يقوم بجولة يتذوق في أثنائها أنواع الطعام ليتأكد من دقة تطبيق وصفاته. ولتذوقه مراسم خاصة، في صحون مسخنة مسبقاً يقدم له الطباخون الأدنى مرتبة قطع لحم مع الصلصات الخاصة. أما المُحليات والمرطبات فتقدم على صحائف مبردة. ووراء الميتر يقف أحد صبيان المطبخ حاملاً أدوات التذوق من ملاعق وشوكات وسكاكين مرتبة في حقيبة مسطحة من جلد الماعز المغربي. بعد ثلاثة أسابيع جاء دور غرهارد لحملها. عندما يضع الميتر شيئاً في فمه يجب أن يسود قاعة المطبخ صمت تام، ثم يجمد في مكانه دون حتى نأمة، يغمض عينيه ويعطي التعليمات الأخيرة بغية الكمال. كان ـ"غراند أوتيل" في تلك المرحلة يمتلك أحد أشهر المطاعم في فرنسا، وصالة طعامه ممتلئة دائماً على الرغم من الأسعار الفاحشة. وفي هذا المطبخ تعرف غرهارد على دقائق وتفاصيل فنون الطبخ، وبعد عشرات السنين بقي يحتفل بهذه الفنون بنفسه. فإذا كنا مدعوين لتناول الطعام عند جديّ كان غرهارد دائماً هو مَن

(1) معلم.

يشرف على تحضير اللحوم. وأحياناً كان يطلب إليَّ أن أقتطع له شريحة صغيرة من القطعة المشوية، فيغمض عينيه ويتذوقها مثل الميتر آنذاك في ـ"غراند أوتيل".

بعد بضعة أسابيع ترفع غرهارد إلى مرتبة معاون نادل، فصار يلبس جاكيت سموكينغ أبيض استوائياً فوق بنطال أسود وحذاء أسود لماع. معظم الزبائن هم أثرياء أمريكيون وفرنسيون من حكومة فيشي المتعاونة مع الاحتلال النازي. بالإضافة إلى ألماني واحد يأتي كل مساء تقريباً، اسمه د. موللر، عرَّف عن نفسه لدى الاستقبال كعضو في الصليب الأحمر الألماني. لكن أحد الندل من زملاء غرهارد أخبره أنه في أثناء رفع الصحون اكتشف مقبض مسدس تحت الإبط الأيسر للدكتور موللر، ويرجح أنه لا يعمل مع الصليب الأحمر. ذات مساء أقام دبلوماسي أمريكي عالي الرتبة حفلة وداعه في كان، وجاء في رتل سيارات من باريس، حيث أقفلت السفارة أبوابها. امتد الاحتفال حتى وقت متأخر من الليل، وفي وقت ما انسحب رئيس الندل إلى غرفة جانبية ليرتاح وكلف غرهارد بأن يطلبه عندما ينوي الضيوف المغادرة. بعد بضع دقائق نهضت زوجة الدبلوماسي واقفة، وهي شقراء نحيلة بعقد من اللؤلؤ وخواتم من الماس، فانزلق وشاح الفراء عن كتفيها وسقط أرضاً. هرع غرهارد ورفعه ووضعه حول عنقها. ابتسمت وفتحت حقيبة يدها ودست في جيب بنطال غرهارد حزمة أوراق نقدية مطوية. بعد قليل ظهر رئيس الندل غاضباً لأن غرهارد لم يخبره وطالبه بالبقشيش. فكر غرهارد للحظات، فكر في مكتب المستخدمين الذي يطالبه بأوراقه الثبوتية، وفكر في العمل المرهق دون مردود، وفكر في هذه النقود التي ستساعده في مغادرة كان. فقال لرئيس الندل: «لا». ومشى. زمجر الرجل وراءه صائحاً إنه مطرود وعليه مغادرة الفندق حتى الساعة السابعة صباحاً. في الصباح التالي تناول آخر فطور

مع فرانسوا، الذي أحضر من البراد زجاجة نبيذ بورغوند أبيض وفطائر بكبد الإوز، رفعا نخب المستقبل، ثم غادر غرهارد "غراند أوتيل" من بابه الخلفي، مثلما دخله.

نجح غرهارد عن طريق أمه، التي ما زالت في باريس، بالتواصل مع أبيه، الذي تمكن من الهروب من معسكر الحجز منذ فترة قصيرة ويقيم الآن باسم مستعار في قرية كَزاوبون قرب مدينة تولوز برعاية منظمة كاثوليكية غير شرعية. شق غرهارد طريقه مشياً وليلاً فقط، بسبب انتشار نقاط التفتيش مؤخراً حتى في المناطق غير المحتلة، إضافة إلى المداهمات. فهناك عناصر درك مجتهدون يطاردون اليهود واللاجئين الأجانب ليسلموهم من ثم للألمان. بعد أسبوعين وصل غرهارد إلى كزاوبون وتمكن لأول مرة من عناق أبيه بعد وقت طويل. لقد شاخ فيلهلم، صار وجهه نحيلاً وشاقاً مع كثير من التجاعيد عند زاويتي فمه. فالعيش في معسكر الحجز الذي لا يرغب في التفصيل عنه آذاه جداً، والآن لديه مشاكل في القلب ولا بد من أن يراعي صحته. لم يعد قادراً على المشي أكثر من نصف ساعة في اليوم، وحالة العطالة هذه تعذبه، لرغبته في الانخراط فوراً في النضال ضد النازية. لكنه مضطر الآن إلى ترك هذه المهمة لغرهارد، الذي تمكن عن طريق زوج أخته إلزِه من التواصل مع المقاومة. بعد بضعة أسابيع أتى كورت فيبر إلى كزاوبون، وهو مناضل سابق في إسبانيا ويعمل الآن مع المقاومة الفرنسية في تولوز. حكى فيبر لغرهارد عن العمل السري للشيوعيين الألمان في فرنسا الآن، والذي تكمن مهمته الرئيسة في التجسس على القوات الألمانية وفي اجتذاب الجنود الألمان إلى صفوف المقاومة. وقال إن على غرهارد أن يعي بأنه يخاطر بحياته إذا قرر الانضمام إلى المقاومة. حدثه عن التعذيب لدى الغستابو وعن أحكام الإعدام الصادرة بحق كل من يعتقلونه. لذلك على شاب في التاسعة عشرة مثل غيرهارد أن يفكر في

الأمر ملياً. ثم اتفقا على موعد في تولوز، فإن جاء غرهارد فهذا يعني أنه يريد الانضمام إلى الحركة.

في 12/ 5/ 1943، عند الساعة الواحدة ونصف، وقف غيرهارد في الحديقة الصغيرة قرب الكابيتول في تولوز. انتظر بضع دقائق قبل أن يظهر من ظلال الشارع المشجر رجل قصير عريض الكتفين متجه نحوه مباشرة. إنه فرنر شفارتْيه، واسمه الحركي أويغن. اقترح أن يتوجها بالترام إلى خارج المدينة، ليتمكنا من تبادل الحديث بهدوء. سار الترام بهما عبر جنوبي المدينة وتجاوزا معمل الكبريت، وكان عمال الوردية الأولى يخرجون منه حينها. بعد جسر غارون توقف الترام أمام بناء ضخم من القرميد الأحمر ومحاط بأسوار عالية. شرح له أويغن أن البناء هو حصن سان ميشيل، كان يستخدم سجناً منذ القرن الماضي، وهو الآن بأيدي الألمان كسجن أيضاً. فخطر في بال غرهارد أنه قد يزوره إذا حدث وارتكب خطأً ما. لكنه سرعان ما أبعد هذه الفكرة من ذهنه.

ثمة درب ينطلق من موقف الترام الأخير ويؤدي إلى مرتفعات الكروم، التي تنتصب جنوب المدينة. على مسافة غير بعيدة تعبر كتيبة جنود ألمان على طول الطريق. لا يرى المرء من المرتفع سوى خوذهم تحت الشوادر المرفوعة على الشاحنات. الجنود يغنون أغنية عن زهور في مرعى جبلي وعن فتاة اسمها ماريا. قال غرهارد إنه لأمر لا يُحتمل رؤية جنود ألمان هنا في كل مكان. فأجابه أويغن مبتسماً بأن من المحتمل أن يكون هو في إحدى هذه الشاحنات لو كان له أب آخر. دُهش غرهارد لهذه المقارنة، فشرح له أويغن أن كثيراً من هؤلاء الجنود ضد هذه الحرب، ولذلك من المهم أن ننشغل بهم وأن نؤثر فيهم وإن أمكن أن نكسبهم لصالح القضية الصائبة. وأخبره أن مجموعته توزع مناشير في الثكنات وتصدر جريدة سرية اسمها "جندي على شاطىء المتوسط". وأن كثيراً من الجرائد

الموزعة سراً يسلمها الجنود فوراً للغستابو. لكن البقية تُقرأ ويتم تناقلها من يد إلى يد، «إنه عمل طويل الأمد ومتعب لكنه قد يؤثر في تغيير شيء ما». أحس غرهارد بنوع من خيبة الأمل، فهو لا يريد أن يوزع جرائد، بل أن يقاتل. لكنه لم يقل شيئاً.

إن ملاحظة أويغن حول أن المسألة قد ترتبط بالصدفة، على أي طرف من القضية يقف الإنسان في الحياة، شغلت غرهارد كثيراً فيما بعد. فتساءل عن تطور وضعه، لو أن عائلته لم تضطر إلى مغادرة ألمانيا، لو أن أباه نتيجة صدفة ما لم يتعرض لمضايقات النازيين. فكتب: لقد أدى مصابنا الشخصي إلى تحديد دربنا، ولكن إلى أين كان سيودي هذا الدرب، لو كنا أكثر حرية في اتخاذ قرارنا؟ يبدو الأمر وكأن غرهارد قد ارتاح لاحقاً لعدم وجود خيار أمامه.

كلف أويغن غرهارد بمهمة الذهاب إلى مكتب العمل وتسجيل اسمه هناك بصفة مترجم في إحدى وحدات الجيش الألماني. وحصل على بطاقة هوية صادرة عن مجلس بلدية فرنسي عليها ختم وظيفي أصلي قابلة للنجاح في أي اختبار تزوير. وصار اسمه جيرارد لابان وعمره سبعة عشر عاماً، قادم من منطقة الإلزاس وهو في بداية دراسته اللغة والأدب الألماني. ولد في ستينَي قرب فردون. بناء بلديتهم احترق عام 1940 واحترقت فيه سجلات الولادات والوفيات، وهذا سيجعل أمر التدقيق في منشئه عسيراً جداً. وقد تعلم اللغة الألمانية من أمه، ولهذا عليه منذ الآن أن ينطق الألمانية بلكنة فرنسية. والداه توفيا باكراً، وأقرباؤه الباقون يعيشون في الجزائر. كما أعطاه أويغن عنوان زوجين عجوزين يمكنه السكن لديهما في تولوز. ونبهه إلى ضرورة الحذر الشديد، ثم ودعه وذهب.

في مكتب العمل مرت حكايته الخيالية على خير ما يرام، وحصل على

وظيفة مترجم في آمرية النقل المتواجدة في فندق قديم قرب المحطة. رئيسه هو الرقيب فينك، الذي يرتدي بذلة عسكرية مفصلة له والتي يبدو قماشها ممتازاً. بعد أيام قليلة توصل غرهارد إلى معرفة أن عمل فينك الرئيس هو تنظيم تجارة السوق السوداء لمادة حبوب البن غير المحمص، التي تأتي بالقطارات من تولوز متوجهة إلى ألمانيا. وفينك هذا مسؤول رسمياً عن علاقات آمرية النقل بمكاتب الخدمات الفرنسية، ولهذا فإنه في حاجة ملحة إلى مترجم. هو شخص لطيف المعشر دون تعقيد، ومنشغل بتجارة السوق السوداء إلى درجة أنه سرعان ما ترك بقية الأمور لغرهارد، الذي اطلع بصورة عامة على كل مراسلات الآمرية، كما صارت تصله خطط النقل التي تتضمن أيضاً معلومات عن القطارات المحملة بالمساجين أو الأسلحة ومواعيدها. ونظراً لخطورة تدوين ملاحظات، كان مضطراً إلى حفظ كل شيء غيباً: مسار الرحلات، مواعيد الإقلاع، الحمولة، مدة الانتظار. فطوّر غرهارد آلية عمل للذاكرة تسمح له بحفظ معلوماتٍ حتى عشر عمليات نقل في رأسه. ثم يجلس مساء في البيت في غرفته ويكتب كل شيء بخط منمنم على ورق سجائر. والساعي يمر مرتين أسبوعياً لجمع الرسائل السرية.

ذات مرة نسي الرقيب فينك أن يقفل خزانته الحديدية، فقلّب غرهارد بسرعة "أوراق الخدمات السرية" التي لا تُذكر في البريد الورقي العادي. فوجد أوامر خدمات من الفريق كول المسؤول في باريس عن جميع آمريات النقل الفرنسية، ورد فيها: يجب على عمليات نقل المساجين أن تحتل منذ الآن الأولوية من حيث الاهتمام "وترحيل" اليهود والمخربين يأتي في المقام الأول. ألقى غرهارد نظرة على خطوط نقل السجناء فوجد أن التجميع يتم في درانسي، ومن هناك يوزعون في اتجاهات مختلفة. المحطات الأخيرة اسمها: آوشفيتس، تِريزينشتات، رافنزبروك، داخاو،

بوخِنفالد. كان أويغن قد أخبره عن معلومات تفيد بأن معسكرات الاعتقال الموجودة في بولندا يجري فيها قتل اليهود من جميع أنحاء أوروبا جماعياً، في غرف الغاز. ولكن لا يعلم أحد مصداقية هذا الكلام. لم يصدق غرهارد هذه القصص، فحتى النازيين لن يقدموا على جريمة من هذا القبيل، هكذا فكر.

عثر غرهارد بين وثائق فينك السرية على رسالة من مرسل مجهول موجهة إلى الجيش الألماني. يقول مرسلها: هناك في مطعم ضباط آمرية النقل في تولوز يعمل نادل يتعاون مع المقاومة. اسمه غابارد، لكن اسمه الحقيقي هو ريدينغر. وعلى هامش الرسالة هناك ملاحظة من رئيس أمن الآمرية تقول: يُعتقل فوراً. والملاحظة عمرها يومان. تساءل غرهارد في نفسه عما إذا كان الوقت قد فات، لإنقاذ ريدينغر، وعما إذا كان فينك قد ترك خزانته غير مقفلة عامداً، لاختباره؟ قرر غرهارد أن يقوم بعمل ما. توجه بعد انتهاء الدوام فوراً إلى كابين هاتف عمومي وطلب الآمرية. أخبر عاملة السنترال بصوت مصطنع أن حادثاً قد وقع في عائلة السيد غابارد وهو لذلك مضطر إلى مكالمته. عندما تكلم غابارد أخيراً قال له غرهارد: «أنا صديق، سيعتقلونك، اهرب فوراً». بعد أسابيع عرف غرهارد من ملاحظة صدرت من فينك أن النادل قد نجا من الاعتقال. ويهمين اضطراب كبير عند الغستابو وهم يبحثون عن نقطة تسريب المعلومات. إضافة إلى ذلك كثرت في الآونة الأخيرة هجمات وحدات المقاومة على قطارات نقل الأسرى. وعبر باب مفتوح، سمع غرهارد حديثاً بين الرقيب فينك والنقيب في الغستابو فشتلر، قال خلاله الأخير إن الهجمات مبرمجة ضد أهداف معروفة "وكأن الإرهابيين يعرفون بدقة مواعيد مرور قطارات الأسرى". أحس غرهارد بنفسه فخوراً ومغموراً بالفرح، فقد عرف الآن أن عمله مثمر ذو معنى. ونبه نفسه في الوقت نفسه إلى توخي مزيد من الحذر.

ذات صباح استيقظ غرهارد على طرق شديد على باب غرفته، كانت الساعة الخامسة والنصف. كانت بالباب زوجة صاحب المنزل مرعوبة ومنزعجة. قالت: «هناك جندي ألماني على الباب تحت يريدك». فكر غرهارد في الهروب عبر الحديقة الخلفية، ولكن لو أنه سيعتقل لما جاء جندي واحد. وأكدت المرأة أن الجندي يزعم كونه صديقاً لغرهارد. وتبين فعلاً أنه العريف فاينينغر الذي صادقه غرهارد نوعاً ما. إنه سائق قائد الأمرية، وها هو يقف في الباب لاهثاً ليخبر غرهارد بأن عليه الهروب فوراً، لأنه سيعتقل اليوم، فقد أوصل مساء الأمس النقيب فشتلر من الغستابو وكان يتحدث مع ضابط آخر قائلاً: «لا بد الآن من اعتقال لابان هذا». عرض فاينينغر على غرهارد أن يوصله بالسيارة إلى أي مكان. اختبأ غرهارد في صندوق الليموزين العسكرية الألمانية، راجياً فاينينغر إيصاله إلى عنوان طوارئ ذكره له أويغن. قبل المكان بشارعين ترجل غرهارد وشكر فاينينغر وسأله عما إذا كان يرغب في "تبديل الجبهة". نظر فاينينغر إليه بدهشة وغادر دون أن يجيب.

كان عنوان الطوارئ صيدلية ما زالت مغلقة. انتظر غرهارد في مدخل بناء حتى جاء الصيدلاني أخيراً وفتح الباب، وهو رجل قصير أشيب، شرح له غرهارد سبب قدومه، فسحبه فوراً إلى داخل الصيدلية. كان عليه الاختباء طوال النهار في مستودع الأدوية الذي يعبق بروائح المريمية ومراهم الكالو. ومساء جاء أويغن مرتدياً بذلة أنيقة داكنة اللون وفوقها معطف من وبر الجمل، وبرر ذلك بأنه بهذا اللباس لا يفتش أبداً. كان قد هيأ لغرهارد بطاقة هوية جديدة، فصار اسمه حسبها جان-بيير أريبج، وهو موظف مكتب وفي السابعة عشرة من عمره. ولكن لا بد من صورة جديدة سيدبرها قريب الصيدلاني. في صباح اليوم التالي ركب غرهارد مع أويغن في باص مسافة خمسين كيلومتراً باتجاه الشمال ثم قطعوا عدة طرق

صغيرة ودروب عبر حقول حتى وصلوا إلى دار على طرف الغابة، حيث يتوجب على غرهارد البقاء حتى يقرَّر تكليفه بمهمة جديدة. التقى في هذا البيت بأربعة مقاتلين سابقين في الجيش الجمهوري الإسباني وبمهاجرين ألمان، كلهم في انتظار تحديد مهامهم القادمة. مساء يشعل الرجال ناراً في المدفأة المكشوفة، وأحد الإسبان كشف جحر غُرير واصطاد ما فيه، فبدأ غرهارد بتهيئة أحدها للشوي. شربوا نبيذاً أحمر وتحدثوا في مواضيع شتى، إلا العمل السري؛ فيحظر الكلام فيه لأسباب أمنية. بقي غرهارد أسبوعاً في هذا البيت على طرف الغابة، وأحب الحديث مع أناس لا داعي إلى الخشية منهم، وعاود الكلام بالألمانية دون تقليد لكنة فرنسية، مع أن الأمر لم يكن سهلاً.

إني أتساءل، ما الذي كان يعتمل في غرهارد آنذاك، فيمَ كان يفكر، عندما كان يجد فرصة للراحة؟ ألم يكن لديه شكوك ومخاوف؟ ألم يتمنَّ مرة أن يتوقف ببساطة، أن يهرب، أن يفلت من هذه الحرب؟ لقد كانت نجاته من الاعتقال محض حظ لا أكثر. ألم يسأل نفسه، كيف سيكون الأمر في المرة الثانية؟ إن مذكراته تشبه الحكايات التي كان يرويها لأمي أو لي. حكايات عن شاب شجاع تقوده قناعاته. شاب لا خيار آخر أمامه سوى النضال ضد العدو الذي يهدد حياته وحياة عائلته. وهذا الشاب لايعرف أسئلة ولا شكوكاً. يناضل فحسب. ولكن هل كان الواقع حقاً هكذا؟ أيمكن لإيمان ما أن يكون من القوة بحيث يجعل المشاعر المقلقة ونقاط الضعف تتلاشى ببساطة؟ أم أنه قد أبعد عن نفسه كل هذا؟ هل منع نفسه من أن يكون ضعيفاً؟

قبل أن يصير غرهارد مناضلاً، كان فتى حساساً ورقيقاً، من الذين يبكون عند سماعهم أغاني شوبرت الحزينة. هناك صورة فوتوغرافية له تعود إلى أيلول/ سبتمبر 1944 وهو بالبذلة العسكرية وطاقية الباسك برتبة

ملازم في الجيش الفرنسي، يبدو فيها حالماً وغير عسكري. توحي بكونه شاعراً أو مغنياً ولكن ليس جندياً مطلقاً.

تبدو البذلة العسكرية عليه مثل زي تنكري. كتب في مذكراته أن الرفاق بعد الهروب من تولوز عرضوا عليه استراحة لمراجعة الحدث السابق، لكنه رفض الاستراحة بحزم وطالب بمهمة جديدة، وكلما كانت أسرع يكون أفضل. فهو يريد أن يكون مفيداً، أن ينجح وأن يكون النضال مثمراً. والسؤال الذي كان يطرحه على نفسه دائماً هو: هل ما يفعله يكفي، أليس في وسعه أن يقدم أكثر من ذلك بكثير؟ كان يبدو لنفسه صغيراً جداً وغير ذي قيمة بالمقارنة مع هذا العدو الخارق القوة.

عثرتُ في الأرشيف على توصيف له كتبه رجل الارتباط أويغن، أي فرنر شفارتسِه، قال فيه: إن غرهارد عديم الصبر ومندفع جداً، وهذا يُعزى طبعاً إلى فتوته وشبابه. ويمتدح أويغن شجاعة غرهارد والتزامه.

ولكن "ينقصه الخوف الذي يولد الحذر. إنه يميل إلى انتزاع الانتصارات".

10. إساءة معاملة

في منتصف كانون الثاني/ يناير 1944، أُرسِل غرهارد إلى كاستريه، وهي مدينة صغيرة تبعد مسافة 100 كم عن تولوز. هناك توجد فرقة عسكرية ألمانية، تتشكل غالبيتها من أسرى حرب سوفييت، بغرض استخدامهم في فرنسا ضد الفدائيين. ومهمة غرهارد هي عقد صلة مع الضباط الألمان الذين يدربون الأسرى، ليعرف منهم تقييمهم للجاهزية القتالية لمجموعاتهم. قال له أويغن إن المهمة صعبة، لأن الجيش الألماني النازي لا يرسل إلى كاستريه إلا عناصر مختارة. فإن وجد غيرهارد المهمة عسيرة، فعليه قطعها بدلاً من المجازفة. «الحذر يأتي في مقدمة الواجبات». قال أويغن عند الوداع.

بالمقارنة مع تولوز، تعد كاستريه مدينة واضحة يسهل على المرء التحرك فيها، لكنه بالمقابل يلفت النظر بسهولة أكبر. نهر أغوت الضيق يقسمها إلى شطرين، وهناك أربعة جسور لا بد من عبورها إذا أراد المرء الانتقال من شطر إلى آخر. أماكن مثالية للمداهمات التفتيشية. حصل غرهارد من أويغن على عنوان زوجين يعملان في النسيج يمكنه الإقامة لديهما. يقع بيتهما على النهر مباشرة. وفي الوقت المتفق عليه مساء قرع باب الطابق الثاني، ثلاث مرات قصيرة ثم مرة طويلة. فتح الباب

فوراً ودخل. اسما مضيفيه نويمي ومارسيل، فقدم نفسه باسم بول. خلال العشاء تحدث الزوجان عن عمل المقاومة في كاستريه. إنهم منذ عدة أسابيع يهربون منشورات إلى الثكنة، التي يتم فيها تدريب الأسرى السوفييت. وهناك صلات مع الأسرى ولكن ليس مع الضباط. وحذره الزوجان من التعجل في خطواته، فقد أرسل الجيش النازي طاقماً كاملاً من قوات الردع لأنه لا يثق بالسجناء.

استغل غرهارد الأيام الأولى للاستطلاع في المدينة، فعرف أن الضباط الألمان يلتقون مساء في عدة حانات، لا سيما في بيسترو في شارع غامبيتّا قرب المسرح. بضع درجات حجرية تؤدي إلى القبو، حيث توجد طاولات ومقاعد خشبية سوداء اللون. في وسع المرء هنا شرب نبيذ أحمر فاخر بأسعار السوق السوداء، والمكان مزدحم دائماً منذ الثامنة مساء. اختلط غرهارد بالزبائن، وبعد أسبوعين اعتاد الزبائن الألمان عليه. إنهم يتحدثون عن الطقس وأسعار الكحول المرتفعة والعائلات في الوطن. ذات مساء دخل غرهارد في حديث مع رقيب اسمه غونتر فيغنر، انطلق من نفسه يحكي بحرية عن وضع الحرب، عن الهزيمة المتوقعة على الجبهة الشرقية، وعن إنزال أمريكي محتمل على الساحل الفرنسي. كان فيغنر على الجبهة الروسية، حيث أصيب بجروح نُقل بعدها إلى فرنسا. قال: «لو أن كل هذا الخراء ينتهي قريباً!». نظر في أثناء ذلك إلى غرهارد نظرة تساؤل، لكن غرهارد لا يرغب في تبادل ثقة متعجل، فغيّر الموضوع وحكى طرائف من أيام المدرسة في باريس. وعندما ودعا بعضهما قال الرقيب فيغنر إن هذه الأمسية كانت أجمل أمسية أمضاها في كاستريه، وتواعدا على اللقاء بعد ثلاثة أيام.

في الأسابيع التالية التقى غرهارد بصورة منتظمة مع فيغنر، وحضرا مرة عرض أوبرا "توسكا" لبوتشيني. وفي الفصل الأخير عندما تطعن

توسكا الحاكم وتغني بأعلى صوتها: «كانت روما ترتجف أمامه»، صدرت من صالة الأوبرا صيحة: «وأمام مَن ترتجف كاستريه؟»، فأضيئت الصالة فوراً وأنزلت الستارة. احتج الجمهور بصيحات بووووه. وبعد برهة ظهر مدير الأوبرا على مقدمة المنصة وقال إن العرض لن يستمر بناءً على أوامر الشرطة، لأن الصيحات ممنوعة خلال العرض.

بعد هذا الحادث بدا فيغنر مضطرباً جداً، فعداء الفرنسيين يرهقه. فسأل غرهارد ما عسى يفعل الناس بشخص مثله في حال خسارتنا الحرب. ذهبا إلى البيسترو المجاور للمسرح، وبعد عدة كؤوس من النبيذ بدأ فيغنر يحكي عن الجبهة الشرقية. ذات مرة عبر قرية محترقة بسيارته ذات الدفع الرباعي، وكان هناك بين الأنقاض طفل ربما في الثالثة من عمره يبكي، فأوقف السيارة وقفز لينقذ الطفل، لكن الملازم الجالس إلى جانبه صاح به، بأن عليه ترك هذا البكّاء الروسي مكانه. وحكى فيغنر عن رجال ونساء وأطفال سيقوا في العاصفة الثلجية إلى عربات الحيوانات، وأضاف "مثل الحيوانات" ثم صمت.

قرر غرهارد إعطاء فيغنر أحد المناشير التي تتحدث عن جرائم حرب الجيش النازي في الإتحاد السوفيتي وفي فرنسا. قال له إنه وجده في الطريق وكان على وشك سحبه من جيبه، عندما دهم البيسترو ثلاثة من الشرطة العسكرية الألمان حاملين رشاشات. تقدموا من الطاولة التي يجلس إليها مع فيغنر وقال قائدهم لغرهارد: «أنت معتقل، إذا حاولت الهروب سنطلق عليك النار لقتلك». دفعوا غرهارد عبر الباب إلى الطريق الذي كان خاوياً من البشر. وعلى مسافة خمسين متراً إلى اليمين كانت تقف سيارتا سيتروين جاهزتين للانطلاق. دُفع غرهارد إلى صندوق الأولى وانطلقت السيارتان بسرعة. كان غرهارد يرى كل شيء كما من خلال حجاب، الأبنية التي تطير في الخارج نحو الوراء، بذلتي حارسيه

المحيطين به من الجانبين. فكر في المنشور في الجيب الداخلي لجاكيته وبالهوية المزورة. كان يعرف أن الغستابو يعذب الأسرى بالأسلاك الكهربائية والحديد المحمى لينتزع منهم المعلومات. أحس فجأة بجسمه كله بارداً ودون شعور. كان في إمكانه الآن أن يبكي خوفاً، لكنه تماسك.

دخلت السيارتان إلى باحة الثكنة واقتيد غرهارد إلى المحرس، حيث يقف عدة ضباط حول طاولة وبينهم فيغنر أيضاً الذي رفع سماعة الهاتف وقال: «سيدي المقدم، لقد قبضنا عليه». فتشت جيوب غرهارد وعُثر على المنشور. اقتيد غرهارد إلى مكتب في الطابق الأول. وراء طاولة المكتب وتحت اللمبة الكهربائية كان يجلس رجل بشعر أبيض وعينين حمراوين. إنه أمْهَق، برتبة مقدم في المخابرات العسكرية للجيش النازي. رفع الأمهق المنشور بيده وسأل غرهارد كم قبض ليوزع هذه المناشير. فأجاب غرهارد دون تفكير: «هذه الأمور لا يقوم بها الإنسان من أجل المال، وإنما عن قناعة». وغضب فوراً لتسرعه دون تفكير في الإجابة، فقد اعترف الآن دون ضغط أنه يوزع مناشير ممنوعة، وصمم ألا يقول شيئاً ذا قيمة لهم وألا يشي بأسماء أو أمكنة، مهما كان حجم العذاب.

سأله الأمهق عن رجال الارتباط، فوصف غرهارد شخصاً على النقيض من أريغنر تماماً، قصيراً وشعره أسود وله صلعة. إنها صفات رجل كان يراه دائماً في الطريق ويدعى موريس. فضحك الأمهق قائلاً: «إنه المجهول العظيم إذاً». ثم سأله عن المناشير التي توزع في كاستريه، فأخذ غرهارد كل عمليات التوزيع على عاتقه. كان يعرف أن لا فرق في نهاية المطاف بين منشور واحد ومئة منشور. بدا الأمهق راضياً الآن، وقال: «موضوع توزيع المناشير توضَّح إذاً». وأمر الشرطة العسكرية بأخذه، فاقتاداه عبر الباحة إلى بناء من طابق واحد بشبابيك صغيرة مزودة بقضبان حديدية متشابكة، فتح أحدهما الباب وتقدم غرهارد ليدخل، فجاءته في

ظهره ضربةُ قبضةٍ شديدة أسقطته على أرض الزنزانة. وقبل أن يتمكن من النهوض كان الشرطي الثاني فوقه يركله ببوطه في جنبيه. أخذ غرهارد يشهق بحثاً عن هواء ويحاول حماية رأسه بذراعيه. في هذه اللحظة انطلق من الزنزانات الأخرى صياح هائل، فصرخ الشرطي: «ألن تسكتوا أيها الروس الخنازير؟!». ترك الشرطيان غرهارد وتوجها نحو أبواب الزنزانات الأخرى. انطبق باب زنزانة غرهارد وسمع صوت دفع الترباس. إنه وحده في هذه الزنزانة الصغيرة. تحت النافذة هناك مصطبة خشبية ضيقة عليها غطاء جياد وسخ، وإلى جانبها هناك مرطبان مربى فارغ يستخدم على ما يبدو كمرحاض. تمدد غرهارد على المصطبة وهو يرتجف. لديه الآن ما يكفي من الوقت للتفكير.

سأل نفسه، لماذا لم يحاول الأمهق انتزاع أسماء الرفاق منه بالعنف. يفترض بالأمهق أن يعرف أن الساعات الأولى بعد الاعتقال هي الأهم للحصول على معلومات قبل أن يُمحى كثير من الآثار في اليوم التالي. ربما اكتفى الأمهق بتوضيح مسألة المنشورات. قد لا يعرضه للتعذيب ولا يسلمه للغستابو، الذي يُعد أشد قسوة من قوة الردع. فكر غرهارد أنه في واقع الأمر يعرف الكثير عن عمل المقاومة، يعرف أسماء كثيرين وعناوينهم أيضاً. ليته يستطيع نسيان كل هذا. ثم تعاوده الشكوك عما إذا كان عمله قد أفاد شيئاً، عما إذا كان قد حقق شيئاً يستحق الذكر. إنه يعرف أنه ارتكب أخطاء، وأنه تسرع جداً. هل كان فيغنر جاسوساً عليه من قوة الردع؟ وماذا سيكون رأي أويغن بالاعتقال؟ من برج كنيسة قريب تعلن الساعة الثانية عشرة ليلاً، ونور البدر يضيء جدران الزنزانة المملوءة بالكتابات. تعرف غرهارد على حروف كيريلية سلافية. أحد نزلاء الزنزانة السابقين حفر على الجدار صورة بيت فلاحي روسي محاط بأشجار. عند الفجر نام غرهارد. لكن الأمهق بقي يلاحقه حتى في نومه، جالساً إلى طاولته، محدقاً فيه

بعينيه الحمراوين، وهو يشده من لسانه بأداة عجيبة. ومن فم غرهارد تتطاير قصاصات عليها كل الأسرار. يضحك الأمهق ويتابع الشد أكثر فأكثر إلى أن تمتلىء الغرفة بالقصاصات.

قضى غرهارد اليوم التالي في زنزانته. بعض السجناء الروس غنوا أغاني حزينة. فتح صف ضابط باب الزنزانة ورمى له قطعة خبز. وفي اليوم الثاني اقتيد ثانية إلى مكتب الأمهق، الذي صار في علمه أن غرهارد قد عمل قرابة سنة في آمرية النقل في تولوز. على الطاولة أمام الأمهق رأى غرهارد محضر الاستجواب الأول، وتمكن من قراءة بعض الجمل. جاء في الفقرة الأخيرة: خلال استجوابين مشددين لم نتوصل إلى أدلة جديدة.

استجواب مشدد يعني تعذيب. لماذا يخدع الأمهق رؤساءه، ولماذا يرحمه؟ قلّب الأمهق في أوراق غرهارد، هز برأسه عدة مرات، حتى أنه ابتسم مرة، ثم قال إن القضية ستعرض على المحكمة الحربية في تولوز، وإنه سيخابر بهذا الشأن صديقاً له هناك. ثم اقتيد غرهارد إلى الزنزانة فيما أومأ له الأمهق مشجعاً. بعد مرور سنوات اعتقد غرهارد أنه قد وجد تفسيراً لسلوك ضابط الردع هذا. قوة الردع التي تشكل جزءاً من منظومة الأمن العسكري كانت آنذاك قيد التفكيك والحل، إذ إن قائدها الأدميرال كناريس كان أحد المتآمرين الذين شاركوا في محاولة اغتيال هتلر في 20/ 7/ 1944. وبالنسبة إلى الأمن العسكري، كان هذا سبباً كافياً للتخلص من هذا العبء المزعج منذ تشكيله. وبناء على ذلك يرجح أن كان لدى الأمهق، في أيام خدمته الأخيرة، أمور أكثر أهمية من اللجوء إلى التعذيب في التحقيق مع الفدائيين.

مع بزوغ فجر اليوم الثالث اقتيد غرهارد من الزنزانة من قبل رقيب وجندي. قيّد الرقيب يدي غرهارد بالأصفاد وراء ظهره وقال: «لدى أبسط أمر أنا مضطر إلى قتلك». ثم دفع غرهارد إلى داخل ليموزين عسكرية

وبدأت الرحلة نحو تولوز. على الطريق تجاوزتهم دراجة نارية ذات عربة راكب. سحب الرقيب مسدسه وأنزل زجاج نافذة الليموزين، ولم يتنفس الصعداء إلا بعد ابتعاد الدراجة النارية. في تولوز كانت الشوارع مزدحمة بالناس. ومن البعيد رأى غرهارد بناء سجن سان ميشيل ذي القرميد الأحمر. عند وصولهم إلى البوابة الكبيرة ناول الرقيب الحارس المناوب ورقة من النافذة. دخلت الليموزين إلى باحة السجن، وتذكر غرهارد أول مشوار له مع أويغن في تولوز، عندما مرا بالترام من أمامه. كم كان متفائلاً وساذجاً آنذاك.

تتالت الأيام في السجن متشابهة. صباحاً في السادسة يصيح صف ضابط من القاعة: «استيقاظ!». يتلقى كل سجين قطعة خبز عسكري وكأساً من القهوة. بعد الفطور يحق لكل سجين المسير والتغسيل عند أحد الصنابير في الباحة مدة 25 دقيقة. ظهراً تُمرر من فتحة أسفل باب الزنزانة طاسة حساء من الكرنب اللفتي، ومساء قطعة سمن نباتي أو جبنة. في اليوم الخامس استدعي غرهارد للتحقيق، فاقتيد إلى غرفة وجد فيها النقيب فشْتلر رئيس فرع أمن آمرية النقل جالساً وراء طاولة ويقف إلى جانبيه رجلا أمن عسكري. أخذ قلب غرهارد يدق خوفاً. «لم يخطر في بالك أن نلتقي ثانية بهذه السرعة». قال فشتلر بهدوء. أخرج أحد رجلي الأمن قفازاً جلدياً أسود من جيبه ولبسه بهدوء.

«ما اسمك الحقيقي؟». سأله فشتلر وتابع: «جيرارد لابان، جان بيير أريبج، جيرارد ليبيرت، أسماؤك في الواقع كثيرة». بقي غيرهارد صامتاً، فجاءته اللكمة الأولى في رأسه، رأى سواداً أمام عينيه وسقط عن الكرسي. عندما نهض جاءته اللكمة الثانية في بطنه، ثم تناوب عليه الاثنان ركلاً ورفساً على بطنه وأضلاعه، سال الدم من فمه، لم يعد قادراً على التنفس. تركه رجلا الأمن. رفع غرهارد نظره إلى فشتلر الذي صاح بوجه محمر

غضباً: «عليك الاعتراف الآن بكل شيء، فلا فائدة من الإنكار». أراد فشتلر معرفة من الذي حذر النادل غايارد في مطعم الضباط قبل اعتقاله. أجاب غرهارد إنه لا يعرف أحداً باسم غايارد. أعطى فشتلر رجلي الأمن إشارة، فضرباه ثانية. في هذه اللحظة دخل الغرفة شاب برتبة ملازم أول وقال لـفشتلر إن "الاستجوابات المشددة" ممنوعة في السجن، وأصر فوراً على إعادة السجين إلى زنزانته. أرعد فشتلر وأزبد، إلا أن ضابط السجن أصر على موقفه. وأمر بنقل غرهارد إلى زنزانة منفردة في القبو وطلب له ممرضاً. كان الممرض صف ضابط أشيب الشعر، سند غرهارد من تحت إبطيه وجعله يتمدد بهدوء على السرير الخشبي ثم قال: «دعني أعاينك... لستَ بخير، لكنني رأيت ماهو أسوأ... أسوأ بكثير. دعني أحضر لك الآن صحنك وغطاءك». وجد الممرض أن الأسنان القواطع في الفك العلوي قد كسرت وأن الرئة مصابة برضوض إضافة إلى كسور في خمسة أضلاع. «ستشفى من هذا».

لم يأت غرهارد على ذكر أي شيء من هذا الاستجواب في سجن سان ميشيل. كتب حول الأمر في مذكراته، لكن لم يجرؤ أحد منا على طرق الموضوع معه. ربما خشينا على مشاعره، التي قد تحول الجد الصارم إلى رجل يبكي. كنت في الرابعة عشرة من عمري عندما قرأت كتابه أول مرة عن مرحلة فرنسا، ولم أرد أن أصدق أنه تعرض لكل هذا، وأنه ذلك الرجل المدمى المملوء خوفاً الذي تكور على نفسه تحت بساطير رجال الأمن "إس إس"، وكتم الأمر رغم ذلك. لم أدرك مدى شجاعته حينها، إلا عندما تعرضت أنا للاعتقال. كان ذلك عشية 8/ 10/ 1989 بعد يوم واحد من العيد الأربعين لقيام (ج.أ.د). اعتقلتُ مع صديقتي كريستينِه في ساحة ألكسندر في برلين من قبل اثنين من رجال أمن الدولة، كان معنا منشورات لـ "الندوة الجديدة"، أركبانا على شاحنة أخذتنا إلى ثكنة شرطة. كان علينا

الانتظار هناك طوال الليل وقوفاً في كراج بارد، وفي صباح اليوم التالي تم استجوابنا إفرادياً. غمرني خوف شديد، إذ لم يكن لديَّ أدنى فكرة عما قد يحدث لنا. ما أن رفع المحقق صوته مرة حتى ذكرت له كل ما أعرف. غرهارد لم يفتح فمه آنذاك، على الرغم من أن حياته كانت معرضة للخطر. أما أنا فقد انهرت فوراً، مع أنني في الواقع لم أكن معرضاً لخطر كبير.

11. عداوات

بعد التعذيب من قبل رجال الأمن، صار الممرض يحضر لغرهارد وجبات طعام مزدوجة، وأحياناً صارت تظهر في حساء الكرنب قطعتا لحم. لم يكن غرهارد قادراً على المشي، وأمضى أياماً طويلة على السرير الخشبي بين النوم والصحو، وهو يحلم بأن الحلفاء قد حققوا الإنزال وأنهم الآن على الطريق نحو تولوز. وأول ما سيفعلونه حال وصولهم سيكون طبعاً تحرير السجن. سيخرجونه من زنزانته وسيحتفل الجميع ويرقصون، ومساء سيحتسون النبيذ ويأكلون خبزاً بقدر ما يستطيعون. ثم نُقل غرهارد إلى زنزانة جماعية، فيها ثلاثة شباب فرنسيين نظروا إليه بريبة، لأنه تكلم مع الممرض بالألمانية. استلقوا مساء في أسرتهم بصمت ثم بدأ أحد الفرنسيين يصفر لحن نشيد عرفه غرهارد كأحد أناشيد "الصقور الحمراء"، وعندما قطع الفرنسي الصفير أكمله غرهارد إلى نهايته. فسأله الفرنسي من أين يعرف اللحن، وتبين في سياق الحوار أنهما في عام 1936 كانا معاً في مخيم الصقور الحمر في فيينوف، فزالت الريبة واحتفى الفرنسيون بغرهارد. كانوا يخططون منذ أسابيع للهروب، فصنعوا حبلاً من شراشف الأسرّة وتمكنوا من تهريب سكين إلى الزنزانة ولا ينقصهم الآن سوى خطاف لتثبيت الحبل على الجدار. أطلعوا غرهارد على خططهم

التي بدت محفوفة بالخطر، لكن غرهارد الآن مستعد لأي شيء في سبيل الإفلات من هذا السجن. فكر في الكونت دي مونت كريستو الذي هرب من حصن. كان هذا الكتاب من قراءاته المفضلة سابقاً. لكنه لم يكن واثقاً مما إذا كانت الحياة الواقعية يمكن أن تسير على هذا النحو أيضاً.

في منتصف أيار/ مايو، اقتاد اثنان من الشرطة العسكرية غرهارد إلى المحكمة الحربية. سارت بهم السيارة عبر شوارع تولوز المكتظة، وكان الطقس جميلاً، النساء يرتدين ثياباً خفيفة، وعلى أرصفة المقاهي يجلس الزبائن وهم يتحادثون. فخاب أمل غرهارد، إذ رأى أن الحياة تسير بشكل طبيعي، وكأن شيئاً لم يحدث. إنه يعرف أنه قد يُحكم بالإعدام خلال ساعات قليلة، ولا يبقى بعد ذلك سوى تحديد موعد وقوفه أمام فريق الإعدام. سمع غرهارد عن أحد المساجين، الذي حُكم بالإعدام في كانون الثاني/ يناير وما زال حياً في السجن حتى الآن. فكر في عملية الإعدام، باختراق الرصاص الجسم، فجعلته هذه الأفكار يرتجف برداً في ذاك اليوم الدافئ.

تجاوزت السيارة الكابيتول إلى دار البلدية، وهي بناء بهي من القرن الثامن عشر. يشمخ في طرفه الجنوبي برج قصر هائل. تعقد المحكمة الحربية جلساتها في أحد أجنحة دار البلدية، الذي يحرسه جنود. عندما نزل غرهارد من السيارة في الباحة الداخلية، اقترب منه ملازم شاب وقدم له نفسه بصفته محامي الدفاع، كان له وجه صريح وودود. لقد قرأ إضبارة غرهارد ولديه بعض الأفكار لتأجيل المحاكمة. نصح الملازم غرهارد بأن يزعم بأنه قد جُرد من الجنسية الألمانية منذ 1935. عندها لن تكون القضية ضد مواطن من الرايخ الألماني بل ضد رجل بلا جنسية. ثم على غرهارد أن يتذكر ما إذا كان صف الضابط فيغنر الذي وشى به في كاستريه قد ذكر عدة مرات أمامه علاقاته بالمقاومة الفرنسية، «إذ يجب إعادة صياغة

ملفات القضية، وإجراء تحقيقات جديدة، وهذا يستغرق عدة شهور». قال المحامي.

سأله غرهارد، لماذا يفعل كل هذا من أجله، فأجابه الملازم بأن لغرهارد صديقاً في كاستريه يرسل له تحياته القلبية. فسأله غرهارد: «الأمهق؟». فجاءه الجواب: «نعم، هكذا يلقبونه». وضحك الملازم. حار غرهارد تجاه ود هذا الضابط الألماني، وفكر في عدد المنتمين إلى الجيش النازي من الذين ساعدوه خلال الشهور الماضية، وفكر في كلمات أويغن: «ليس كل من لبس هذا الزي يجوز أن نلعنه ببساطة».

جدران قاعة المحكمة ملبسة بخشب داكن، ومن السقوف الباذخة بالزخارف تتدلى ثريات هائلة الحجم. بعد أن أخذ غرهارد مكانه على كرسي المتهم بلحظات، ظهر القاضي، فوقف له الجميع. رئيس الجلسة برتبة جنرال بوجه نحيل وأنف رقيق أفنى ويضع عدسة واحدة، ما جعله يبدو مثل كاريكاتير من العهد القيصري. نصت بنود الاتهام على: تعمد توهين عزيمة الجيش الألماني، والهروب من الخدمة العسكرية، والخيانة العظمى. قدم ممثل الاتهام، وهو برتبة عقيد، مرافعة مطولة عن أفعال غرهارد في منظمات تخريبية، وعن الأذى الكبير الذي ألحقه المتهم بأفعاله بالجيش الألماني. شعر غرهارد فجأة بأنه كان حقاً ذا أهمية. طلب محاميه الكلام وذكر تجريده المزعوم من جنسيته، وطلب مواجهة مع صف الضابط فيغنر لوجود احتمال أن يكون هو خائناً أيضاً. استاء القاضي، لكنه أجّل الجلسة لسبب إضافي وهو أن الاتهامات على درجة من الثقل بحيث تحتاج إلى محكمة عليا للبت فيها. عندما سمع غرهارد بالتأجيل انزاح التوتر عن جسمه وابتسم لمحامي الدفاع. رآه القاضي يبتسم فصاح به: «لا تتعلق بالأوهام، إن العقوبة الوحيدة لما فعلت هي الموت».

في الزنزانة المجاورة لزنزانة غرهارد في سجن سان ميشيل وضِعَ

ضابط بلجيكي كان جاسوساً للإنكليز في فرنسا. تمكن غرهارد من تبادل الحديث معه عن طريق النوافذ المفتوحة، فحكى البلجيكي عن وضع الحرب. لقد وصل الحلفاء إلى قرب روما، وعلى الجبهة الشرقية قام الجيش الأحمر بهجوم جديد، وإنزال الحلفاء في فرنسا متوقع في الأسبوع الأول من حزيران/ يونيو في النورماندي، قال البلجيكي. نظر غرهارد إلى التقويم الذي حفره على جدار الزنزانة، فوجد أنه ما زال هناك ثلاثة أسابيع حتى مطلع حزيران/ يونيو. في صباح الأول من حزيران أمال غرهارد سريره على جدار الزنزانة وتسلقه إلى النافذة. قطعة السماء التي تمكن من رؤيتها كانت زرقاء. ولكن كيف حال الطقس على الساحل الشمالي على مسافة 900 كم تقريباً من هنا؟ قال البلجيكي إن الأمر يعتمد بالدرجة الأولى على حال البحر، فإذا كان الموج عالياً، لا يمكن استخدام قوارب الإنزال.

استمر الطقس جيداً في تولوز، ولكن ما من خبر عن الإنزال. وخلال هذا الوقت عرف غرهارد أن إعدامه محتمل دون محاكمة جديدة، فقد حدث الأمر مع سجين من دهليز زنزانته قبل فترة قصيرة. كانت محاكمته قد أُجِّلت، ومع ذلك استدعاه رئيس فرقة الإعدام ليلاً. وعندما جره رجال الشرطة العسكرية عبر الدهليز صرخ: «إنهم يريدون إعدامي». ومنذ ذلك الحين بات نوم غرهارد مضطرباً، يستيقظ لأدنى صوت. وعندما يسمع خطوات في الدهليز يتصبب عرقاً، ويبقى مستيقظاً حتى بزوغ الفجر وتسلُّل ضوئه عبر النافذة. ولا يستعيد هدوءه حتى يسمع قرقعة أواني القهوة البديلة في الدهليز، فيقول في نفسه، نجونا ليلة أخرى.

بعد ظهر 3/ 6/ 1944 جاؤوا لأخذه. الجندي الذي قيد يدي غرهارد بالأصفاد وراء ظهره قال له إنه سينقل إلى سجن فرمنس قرب باريس، حيث توجد محكمة الحرب العليا. ففكر غرهارد بأن باريس أقرب على

الأقل إلى الساحل الشمالي من تولوز. انتقلوا إلى محطة القطارات في سيتروين سوداء تحمل على نمرتها شعار "إس إس". ولدهشة غرهارد لم يستخدموا مدخل القطارات العسكرية، بل مدخل القطارات العادية. قاده مرافقوه عبر زحام ركاب القطار السريع إلى باريس الذي وصل لتوه. في منتصف القطار هناك عربة كتب عليها "للجيش الألماني فقط". تذكر غرهارد تقريراً قرأه في آمرية النقل يحفز على وضع العربات العسكرية بين عربات الركاب العاديين لتجنب خطر الأعمال الإرهابية. المقصورة الأولى في العربة احتلها خمسة من الشرطة العسكرية تولوا استلام غرهارد. جلس غرهارد محصوراً بين اثنين منهم. نادراً ما ينطلق القطار السريع هذا بسرعته المفترضة، وأخذ يتقدم متمهلاً. قبل مونتاوبان بقليل، أي على مسافة 60 كم من تولوز، توقف القطار في العراء. سأل رجال الشرطة موظف خطوط حديدية ألماني بزي أزرق عن سبب التوقف، فأجابهم: «أعمال إرهابية». صار رجال الشرطة ينامون بالتناوب، مع بقاء اثنين دائماً لمراقبة غرهارد. اجتاز القطار كاهور بعد الظهر، كانت الشمس ساطعة، ورأى غرهارد مراعي وغابات ممتدة، كما صارت الجبال أشد انحداراً، فقد اقتربوا من كتلة الجبال المركزية، وتوقف القطار في محطة صغيرة. سُمع صوت يصيح بطبقة عالية بالفرنسية والألمانية: «ألاساك، ترجلوا، هنا ينتهي القطار». فتحت أبواب العربات الأخرى وأخذ الركاب يندفعون في مغادرته وعبر الحواجز. وسرعان ما فرغ الرصيف كلياً. توترت أعصاب رجال الشرطة العسكرية. «اللعنة، ماهذه الورطة؟». شتم أحدهم وأردف: «في وسط منطقة العصابات». أرسل رئيسهم اثنين ليسألا، متى سيتابع القطار مسيره. بعدها مباشرة سُمع صوت إطلاق رصاص، وعاد الاثنان راكضين لاهثين ليخبرا عن وجود رجال يحملون رشاشات في بناء المحطة. وكمن مسّه تيار كهربائي قال غرهارد: «إنهم الفدائيون!».

نظر إليه الرقيب أول الذي يقود جماعة الشرطة العسكرية وقال: «لا تحلم بالنجاة. قبل أن نضطر إلى مغادرة هذا المكان ستتلقى رصاصة في رأسك». وقبل أن يتم كلامه قاطعه صوت انفجار مدوٍّ، فأرسل أحد رجاله إلى رصيف المحطة ليسأل عما حدث. بعد فترة قصيرة عاد الشرطي لاهثاً ليخبرهم بأن مرجل القاطرة قد تم تفجيره. تناهت إليهم من المدينة أصوات معركة، صليات رشاشات طويلة تبعها صوت انفجار قوي. «مدفع مضاد للدروع»، قال أحد رجال الشرطة، فعلق الرقيب أول: «لكنه ليس مدفعنا». قام شرطيان بتأمين حماية النافذة المطلة على السكك، وتهيأ آخران عند النافذة المطلة على الرصيف. بعد لحظات اخترقت أول رصاصة المقصورة، فردت الشرطة عليها، ولكن في الخارج كان الظلام قد حل ولم يعودوا يرون شيئاً، فصاح الرقيب أول: «صوبوا على مصادر الطلقات». وفجأة توقف إطلاق النار في الخارج وحل سكون تام، بحيث صارت تُسمع أصوات الجداجد من الحقول، ومن النافذة التي كسرها الرصاص تدفقت روائح حشيش مجفف. فجأة دبت حركة على رصيف المحطة. طلب الرقيب أول من غرهارد أن يصيح بالفرنسية: «هنا الجيش الألماني، من هناك؟»، صاح غرهارد. جاء الرد صلية رشاش على سقف المقصورة وتبعها صوت واضح بالفرنسية قال: «سنريك فوراً من نحن، يا بخش». فترجم غرهارد بكل سرور.

ما أن انبلج الفجر حتى بدأ هجوم جديد، واخترقت المقصورة رصاصات رشاش وبندقية آلية وقربينة[1]. قيل لغرهارد أن يستلقي أرضاً. أصيب شرطي في يده اليسرى وجرحت رصاصة رأس آخر وأخذ الدم يقطر على الرغم من ضماد الطوارئ. بدأ غرهارد يزحف على أرض

(1) سلاح ناري بدائي.

الممر، وفجأة هز انفجار العربة كلها، فصاح الرقيب أول: «لنخرج من مصيدة الفئران هذه. ليس باتجاه الرصيف، بالاتجاه الآخر!». وفتح الباب وقفز فلحق به الآخرون. رفع غرهارد رأسه ونظر نحو الباب المفتوح. رأى أفراد الشرطة العسكرية يركضون عابرين السكك الحديدية، وفجأة ظهر الرقيب أول في إطار الباب موجهاً مسدسه إلى رأس غرهارد الذي رأى كل شيء مثل فيلم بالحركة البطيئة: وجه الرقيب أول الملتوي، الأصبع على الزناد. التفت غرهارد كي لا يرى فوهة المسدس. سمع الطلقة وأحس بضربة. سال على وجهه دم حار. سأل نفسه إن كان قد مات، لكنه سرعان ما انتبه إلى أن الموتى لا يطرحون أسئلة. أذنه تؤلمه، بقي متيبساً دون حركة. مرت عدة دقائق ثم صاح صوت من الرصيف: «هيا اخرجوا، واحداً واحداً بأيدٍ مرفوعة!». نهض غرهارد. «ارفع يديك!». جاءه الصوت من الرصيف. استدار غرهارد وأظهر الأصفاد. اقترب منه أحد الفدائيين وساعده في النزول من القطار. لقد تحرر.

حكى غرهارد للفدائي أنه كان من المخطط له نقله إلى باريس، حيث سيُحكم عليه بالموت على الأرجح. «لاشيء من هذا قد تحقق»، قال الفدائي ذو الصوت الواضح، والذي قدم نفسه باسم ميشيل وهو يعانق غرهارد. أحس غرهارد وكأنه في حلم، أخذ يتلفت حوله غير مصدق، محدقاً في وجوه الفدائيين الشباب، الذين ابتسموا له وهم يربتون على كتفيه. ثم جاء ممرض وقطر شيئاً من اليود على أذن غرهارد، قائلاً إن الإصابة بسيطة، خدش لا أكثر. لو أنه لم يحرك رأسه جانباً لكان ميتاً الآن. ولكن كفى تكهنات الآن، إذ لا بد من الإسراع في المغادرة قبل وصول الألمان المتوقع قريباً. قال جو، رئيس وحدة الفدائيين، إن قبالة المحطة توجد ورشة حدادة، حيث يمكن لا شك كسر قيود غرهارد. وفعلاً قام الحداد القصير والقوي البنية بكسر القيود بمطرقته بسهولة، فيما دخلت

ابنته الجميلة ذات الشعر الأسود إلى الدار وعادت حاملة علبة كرتون مملوءة بفطائر الكبد وقالت لغرهارد: «كُلْ، كي تسترد صحتك بسرعة». فعانقها شاكراً وانهمرت الدموع من عينيه.

كان محررو غرهارد ينتمون إلى "شباب حرب العصابات والفدائيين الفرنسيين"، المنظمة التي يقودها الحزب الشيوعي الفرنسي. «نحن جميعنا شيوعيون»، قال لغرهارد فتى في السادسة عشرة من عمره، كان يبدو وكأنه طفل ويناديه الجميع توتو. غادروا ألاساك ومشوا ساعات طويلة باتجاه الشمال عبر غابات وحقول، ثم استراحوا في شونة مهجورة، وتوفر لديهم وقت كاف للحديث. فحكى لهم غرهارد عما مر به خلال الشهور الماضية، فيما أنصت الآخرون مشدودين. قرروا ضمه إلى جيش الفدائيين ومنحوه الاسم الحركي "الناجي"، وزودوه بمسدس رشاش إنكليزي، دربه ميشيل على استخدامه. وفي اليوم نفسه قدم غرهارد لقائده طلب انتساب إلى الحزب الشيوعي. إنه يبغي الآن أن ينتمي بكليته إلى الذين أنقذوه والذين يناضل معهم ضد الفاشية. لا شك في أن يوم تحريره هذا كان بمثابة ولادة جديدة بالنسبة إليه. وسيصبح الحزب من منظوره نوعاً من مصير مشترك، عائلة، ستبقى طوال عقود لاحقة أهم من أي شيء آخر في حياته. وسيكرس لهذا الحزب الحياة التي مُنحت له بتحريره. وأي شك لاحق لن يكون أبداً بقوة امتنانه وسعادته في ذلك اليوم في محطة ألاساك. ثمة آخرون صاروا شيوعيين لشعورهم بالانتماء إلى عالم أفكار الحزب. أما بالنسبة إلى غرهارد، فالمسألة ترتبط بالتجربة والشعور والصداقة.

بعد مسيرة ثلاث ساعات أخرى وصلوا إلى معسكر الفدائيين. تحت حماية أشجار كثيفة الأوراق نصبت خيام من حرير المظلات بألوان حمراء وخضراء وزرقاء. وهناك عدة أمكنة لإشعال النار وعدة مطابخ ميدانية.

وعلى أقمشة كتانية اصطفت أرغفة الخبز الفلاحي، وفي قدور كبيرة كان يطهى لحم غنم مع فاصولياء بيضاء على نار هادئة. ضم المعسكر نحو مئتي مقاتل. نام غرهارد إلى جانب فلاح من كورّيز استلم لتوه مسدساً آلياً. ومن فخره به أراه لغرهارد وجعل الرصاصات تقفز من المخزن كما في فيلم كاوبوي، فأفلتت منه رصاصة انطلقت بجانب رأس غرهارد. لقد حالف "الناجي" الحظ ثانية.

12. منتصرون

بعد يومين، اندفع ميشيل في وقت مبكر صباحاً إلى خيمة غرهارد وكان منفعلاً جداً. منذ الخامسة فجراً بث راديو لندن عدة مرات الرسالة المشفرة بأن الحلفاء قد نزلوا في شمالي فرنسا. تقول الرسالة: "في الغابة النورماندية هناك بقعة معروفة". فكر غرهارد بأن الضابط البلجيكي في سجن سان ميشيل كان محقاً. ثم شرح قائد الكتيبة للمقاتلين أن هجوم مجموعات المقاومة سيبدأ منذ اليوم في البلد كلها. والهدف الآن هو تعطيل جميع الخطوط الحديدية والطرقات المؤدية إلى الشمال، والهجوم تحديداً على قواعد الجيش النازي. كانت مهمة وحدة غرهارد بالتعاون مع وحدات أخرى الهجوم على إدارة تول، عاصمة كورّيز في وسط فرنسا. ففي تول تحصَّن نحو مئة جندي ألماني جيِّدي التسليح في بناء مدرسة. سافر الفدائيون في شاحنتين وباص حتى حدود المدينة. وفرز غرهارد مع ميشيل إلى مجموعة استطلاع، مهمتها استكشاف أوضاع الطرقات. كان يمشي منحنياً وراء ميشيل، وما سيبدأ الآن هو أول معركة حقيقية يخوضها. وقد كتب في مذكراته: احتجت إلى وقت طويل لأعترف لنفسي أن الانفعال المحموم الذي كان يغمرني كلياً عند تبادل إطلاق النار أو قبيل بدء المعركة، يجب أن أصفه بكلمة خوف. لكني كنت دائماً أبذل جهدي

كي لا يظهر اضطرابي. وهكذا لم يعرف ميشيل في هذا اليوم بالتأكيد، كم كانت مرافقتي له صعبة عليَّ!

الشوارع خالية من البشر، ومن مسافة مئة متر تُسمع صليات الرصاص. من الواضح أن الوحدات الأخرى قد وصلت إلى المدرسة. شقوا طريقهم حتى بناء المدرسة واختبؤوا وراء جدار منخفض وصوبوا نيران أسلحتهم نحو شبابيك وأبواب المدرسة. سمع غرهارد أصواتاً من داخل المدرسة، أوامر بالألمانية بصوت عال، تلاها من الطابق الثاني زخات رصاص من رشاش ثقيل. إلى يمين غرهارد أصيب زميل في عنقه فأخذ يتلوى من الألم على الأرض. حاول غرهارد إيقاف النزيف بقطعة قماش، دونما جدوى. من حولهم تتساقط القنابل صافرة وتفترس الأرض وتتطاير التربة والحجارة في الهواء. وراء غرهارد يسقط زميلان قتيلين. «لننسحب من هنا!». صاح ميشيل، فانسحبت الوحدة.

في صباح اليوم الثاني قاموا بهجوم جديد. نجحوا في إشعال حريق في سقف المدرسة الخشبي، حاول الألمان الهروب فاستقبلهم رصاص الفدائيين، واستسلم أربعون جندياً. كانت أول مرة يرى فيها غرهارد جنوداً ألمان مهزومين. وقفوا متعبين منكسي الرؤوس محاطين بالفدائيين أمام باب المدرسة. ترجم غرهارد كلمات قائده الذي أكد للجنود أنهم لن يتعرضوا لأي أذى، "مع أن كثيرين منا ممن أسرتموهم تعرضوا للقتل". وكتب غرهارد في مذكراته: ترجمت ذلك، وأضفت من عندي أننا جيش الشعب الفرنسي. لم يجرؤ أحد من الألمان على النظر في عيني.

ترى كيف شعر غرهارد بنفسه حينذاك؟ أبصفته ألمانياً؟ أم فرنسياً؟ لقد كان في العاشرة من عمره عندما اضطر إلى مغادرة ألمانيا، وقد صار في الحادية والعشرين. لقد كبر في فرنسا. الألمان بالنسبة إليه كانوا ملاحِقين

وقتلة وأحياناً منقذين، هكذا تعرفهم. وفي مذكراته بدا أنه كان يبذل جهداً ليكون حيادياً عندما تحدث عن "هذه الجريمة العرقية النازية، التي تسببت بكل هذه الويلات في العالم". وكأنه كان يريد إبعاد أي شبهة عن احتمال وجود أي صلة بين هؤلاء الناس وبينه. ذات مرة رفض أحد الفدائيين مصافحته عندما عرف أنه ألماني، فتساءل غرهارد: «كيف لي أن أبين له أن هناك من حيث جئت بشراً شرفاء أيضاً؟». يبدو الأمر وكأنه يعاني ذاتياً من تصديقه لذلك. أمام المحكمة الحربية في تولوز قال إنه يشعر بنفسه كألماني يعيش مع الشعب الفرنسي برباط وثيق. فصاح به القاضي: «هذا غير ممكن. فمن يحالف العدو التقليدي لا يبقى ألمانياً». كان غرهارد يحسد الرفاق الفرنسيين، فالأمور بالنسبة إليهم أبسط وأوضح. "كم بودي أن أكون قادراً على الكراهية مثلهم! لكني لا أفلح في ذلك"، كتب في تول.

في شوارع المدينة ترقص الفتيات مع الفدائيين الذين علقوا مسدساتهم الرشاشة على أكتافهم، على إيقاعات فالس يعزفه الأكورديون، ومن النوافذ تتدلى الأعلام الفرنسية. الناس في تول يحتفلون بالتحرير – كانوا متسرعين، حسبما تبين بعد ساعتين، عندما سُمعت فجأة أصوات المدافع الثقيلة ومحركات الدبابات. في ذلك الوقت كانت وحدة غرهارد قد تمركزت على مرتفع في شمالي المدينة، منه يرون أرتال الدبابات المتقدمة من الجنوب. فكر غرهارد في العشرين جريحاً من الفدائيين الموجودين مع المصابين من الجنود الألمان في مستشفى تول. غنم بعض أفراد وحدة ميشيل في تول سيارتي ليموزين تابعتين للغستابو ومحملتين بالأسلحة والمتفجرات والذخيرة، ولا بد من إخفائهما في مكان آمن بسرعة. وكان على غرهارد أن يقود إحداهما.

قال ميشيل إنه سيقود الأخرى أمامه لأنه يعرف المنطقة بصورة أفضل. وفي الشورع الغنية بالمنعطفات لم يعودا يريان بعضهما. قبيل بريزاك

لونوار وقفت نساء وسط الشارع تؤشرن بأيديهن. فرمل غرهارد وفتح الباب. فصاحت إحداهن: «ارجع أيها الشاب! للتو اصطدمت سيارة أخرى بدبابة ألمانية متوقفة عند المنعطف الثاني». قفز غرهارد ومرافقوه الثلاثة من السيارة، وفي تلك اللحظة تقدم باتجاههم جندي ألماني على دراجة نارية. صوبوا مسدساتهم الرشاشة نحوه فسقط سائق الدراجة في حفرةِ جانبِ الطريق. عند زاوية الطريق انعطفت دبابة وفتحت نار رشاشها نحوهم، فركض غرهارد ورفاقه إلى الغابة والرصاص يتطاير من فوق رؤوسهم ويخترق الأغصان. استمروا راكضين إلى أن تكاثفت الأشجار، ثم ارتموا مرهقين على تلة صغيرة. تساءل غرهارد ما إذا كان ميشيل ورفيقاه قد تمكنوا من الفرار أيضاً.

تابعوا طريقهم إلى معسكرهم. كان الرفاق هناك على علم بما جرى، وأخبروهم أن ميشيل ورفيقيه اعتقلوا من قبل قوات "إس إس" وسيقوا إلى أوزِرش. وبعد ساعة شُنق ميشيل أمام أعين السكان على عمود الكهرباء. لم يتحمل غرهارد متابعة الحديث، فانزوى في خيمته وأغمض عينيه متمنياً لو أنه في مكان بعيد عن كل هذا. لم تمض خمسة أيام بعد على تحريره بيد ميشيل في محطة ألاساك. وها هو محرره ميت الآن. لو لم يُصِر ميشيل على قيادة السيارة الأولى أمامه، لكان هو الآن معلقاً على عمود الكهرباء.

بعد ثلاثة أيام عُلم أن فرقة من "إس إس" التي تحمل اسم "الرايخ"، وبعد دخولها إلى تول، قد شنقت في شوارع المدينة 99 مدنياً انتقاماً من هجوم الفدائيين. الرفاق الجرحى في مستشفى تول قتلوا في مساء اليوم نفسه برصاصة في مؤخرة الرأس. وفي اليوم التالي عاثت الفرقة في بلدة أورادور سورغلان الصغيرة غير البعيدة عن تول، فقتلت خلال ساعات قليلة 642 رجلاً وامرأة وطفلاً. صدرت أوامر تنفيذ هذه الجرائم عن جنرال الأمن العسكري هاينتس لامردينغ، الذي عاش بعد الحرب في

مدينة دوسلدورف بكل طمأنينة، وحتى مات في سريره بسلام عام 1971 بصفته رجل أعمال ثري. في فرنسا حُكم على لامردينغ بعد الحرب بالموت غيابياً، أما في ألمانيا الاتحادية فإنه لم يتعرض لأي محاكمة. وبعد مرور سنوات وصل إلى علم غرهارد أن لامردينغ هو الذي أشرف شخصياً على إعدام ميشيل، وأن مقره في أوزِرش كان في البناء المقابل لعمود الكهرباء. روى شهود عيان لاحقاً أنه قد راقب عذاب الفدائي حتى موته من نافذة مقره.

مرة، كنت وقتها في الرابعة عشرة، تحدثت مع غرهارد عن الجدار، فقلت بسخرية إن مايسمى "جدار الحماية من الفاشية" يعيق فقط مواطني (ج.أ.د) عن الذهاب إلى الغربية، في حين أن الفاشيين المزعومين يمكنهم المجيء إلينا متى شاؤوا. عندها حكى لي غرهارد قصة ميشيل والجنرال لامردينغ. وفي الختام قال غرهارد إنه سعيد بوجود جدار يحميه من أمثال هذا المجرم. لقد تأثرت بعمق بهذه القصة لدرجة أني لم أعد أجرؤ إطلاقاً في حضوره على طرق موضوع الجدار.

في 16/ 8، عاد الفدائيون إلى تول. كانت الحامية العسكرية الألمانية قد أعلنت استعدادها للاستسلام. غرهارد ورفاقه كانوا واقفين على ظهر شاحنة، الجو مسترخ وهم يروون النكات والطرائف ويغنون أناشيد نضالية. قبل أسبوعين تم ترفيع غرهارد لرتبة ملازم، وهو يقود الآن جماعة من المقاتلين، مهمتها حراسة عملية تسليم قاعدة ألمانية. بعد الظهر أتى رسول من القاعدة إلى الفدائيين واقترح أن يرافقه ضابط فرنسي ليتأكد من تطور درجة التحضيرات. رافقه غرهارد إلى الغابة، حيث توجد القاعدة. ارتعب حرس البوابة لرؤيتهم فدائياً يحمل مسدساً رشاشاً، لكنهم تركوه يمر. فكر غرهارد للحظة ما إذا كان حضوره لوحده خطأً، فقد يكون الأمر فخاً، لكن الوقت فات. أسرع العقيد قائد القاعدة باتجاهه وحياه بترحاب

زائد. قدم غرهارد نفسه باسم "الملازم الناجي" فقال العقيد: «أنا شاكر للسيد الملازم حضوره فوراً. أكرر شكري من القلب». وانحنى لغرهارد. لم يرتح غرهارد لتذلل هذا الضابط، فهو يعرف كيف كان سيعامله لو وقع أسيراً بين يديه. مشى العقيد أمامه وأراه أربعة مدافع ما زالت مثبتة في الأرض، وقال: «حتى موعد التسليم لن نتمكن من تفكيكها، نحتاج إلى ساعتين إضافيتين». فأجابه غرهارد: «حسناً، ساعتا تمديد لا أكثر». «عُلم»، أجاب العقيد وخبط كعبي جزمته ببعضهما.

أمر غرهارد السائق الألماني أن يوصله حتى أول طريق الغابة. تراءت له الأمور كلها وكأنها غير حقيقية. فهو فجأة واحد من المنتصرين، وهؤلاء الألمان الذين كانوا حتى وقت قصير جداً خارقين لا يهزمون، يقدمون له التحية. وتتالت الصور في رأسه بحركة سريعة: السجن في تولوز، محطة القطار في ألاساك، الدبابات في تول. فكر في ميشيل والرفاق الآخرين الذين لم يعيشوا النصر. بعد ساعتين تقدم الفوج الألماني مهرولاً على الطريق. 600 رجل في صف منضم والعقيد في مقدمتهم. رافق الفدائيون الرتل من الجانبين. وعندما وصلوا إلى تول تناهى إليهم غناء آت من مركز المدينة. كان النشيد الوطني الفرنسي تغنيه مئات الأصوات.

13. لُعَب

إني أقود سيارتي على الطريق إلى فرنر في برلين-كاروف. وأنا متوتر، متوتر جداً. فكرت في الواقع، أنها لن تكون مشكلة إنْ زرته مرة، فأنا لا أزوره بصفتي حفيده، بل كباحث في تاريخ الأسرة. لكن الأمر ليس بهذه البساطة. سيكون هذا لقائي الثاني معه. في المرة الأخيرة، قبل 14 سنة، كان أبي معي، ما سهّل المسألة. كنت مراقباً للقاء جديد. أما الآن فإنني ألتقي بجدي. يبدو الأمر طبيعياً، ولكن ما الذي أعرفه عن هذا الرجل؟ وماذا يعرف عني؟ على الهاتف اضطررت إلى أن أبيّن له من أكون. كان قد نسي اسمي.

«أنا الابن الأكبر لفولف»، قلت له، حل سكون لبضع ثوان. سمعته يتنفس، ثم قال: «آه، ابن فولف. حسناً، تعال».

خرج فرنر إلى الدرج لاستقبالي. شعره كثيف أبيض وعيناه غائرتان في محجريهما. إنه الآن في الخامسة والتسعين من عمره، لكنه عندما يبتسم يبدو أصغر، وهو يبتسم كثيراً. شرحت له أني أريد تأليف كتاب، ويودي أن أطرح عليه بعض الأسئلة عن حياته. صار سمعه سيئاً، فاضطررت إلى تكرار كلامي مرتين. قادني فرنر إلى خزانة ذات واجهة زجاجية في غرفة المعيشة، توجد فيها بطاقة هوية صفراء متآكلة. الصورة تحمل ختم نسر

الصليب المعقوف ويُرى فيها شاب جاد النظرة، سرَّح شعره إلى الخلف وثبّته بكريم. إنها بطاقة مشاركته في الألعاب الأولمبية عام 1936.

«ذاك كان الزمن الأجمل، أجمل من أي زمن آخر». قال فرنر، الذي شارك حينذاك في حفل الافتتاح. ركض مع آلاف الآخرين على مرج الاستاد الأولمبي في تشكيلات جماعية راقصة. لديه صورة للمشهد ملتقطة من أعلى مكان في الاستاد. يظهر فيها الرياضيون كنقاط بيضاء لا أكثر، مشكلين صليباً هائلاً وخمس حلقات أولمبية. لا أعرف إلامَ يرمز الصليب. ترى هل تحول في سياق العرض إلى صليب معقوف؟ ولكني أتصور جيداً كم كان فرنر ملائماً في هذا الإخراج، بطول قامته ومتانة بنيته وشعره الأشقر الغامق وعينيه الرماديتين الزرقاوين. حاولنا أن نتجاذب أطراف الحديث، فسألته كيف تعرف على جدتي زيغريد. فكر فرنر، أغمض عينيه وأخذ فكه الأسفل يتحرك يمنة ويسرة. حاول أن يركز، أن يلتقط ذكرى، ولكن دونما جدوى. وفي لحظة ما استسلم، فتح عينيه وهز كتفيه حائراً. يبدو أني تأخرت جداً في القدوم إليه.

تناول فرنر ألبومات صور من الخزانة، فقد تعود الذكريات. صور الأبيض والأسود ملصقة بشكل مرتب ومزودة بكتابات. سكيورلاوب في جبال ألب التيرول في النمسا 1938، فرنر مستلق على كرسي طويل تحت الشمس. التدريب في وحدة المدفعية م/ ط في لانكْفيتس 1939، فرنر فخور ومشدود الجسم في بذلة صف ضابط. إجازة الصيف في فانْزيه 1936، فرنر وزيغريد يتغازلان في الكوخ القشي على الشاطىء. "إجازتي الشعوية" كُتب بجانب الصورة بالخط القوطي، بانكو–بورغربارك 1940، فرنر ضاحكاً بالمعطف العسكري في الثلج. الفصح 1927 في مُغَلبِرغن، في أثناء مباراة كرة اليد مع زملاء من نادي الجمباز. في هذه الألبومات يظهر "الرايخ الثالث" مثل حلم إجازة مرحة.

أشعر بأني بدأت أقلق. فهذا كله لا ينسجم إطلاقاً مع ما يرتبط في ذهني بشأن هذه السنوات. إني أستغرب هذه الوجوه الضاحكة وراحة البال هذه. أعود للتفكير بغرهارد الذي كان خلال هذه السنوات فاراً. يضحك فرنر سارحاً في أفكاره، إنه مستغرق الآن في صور شبابه. «كانت أياماً جميلة»، همس ومر برؤوس أصابعه على الصور المصفرة. لا أجرؤ على طرح أسئلة عليه. أقول لنفسي، إنه على كل حال لن يفهم ما أقصد. أقول لنفسي، إن كل إنسان يحاول تجميل أيام شبابه مهما كانت الظروف غير ملائمة. لكن هذا لايعني أن فرنر كان نازياً. إلا أن هذه الفكرة لم تخفف من قلقي. هذا الرجل يشوش الصورة التي في ذهني عن العائلة كلياً. كنت أعتقد أني سليل عائلة يهودية من مناضلي المقاومة ضد الفاشية، ليظهر فرنر الآن ويريني أن العهد النازي كان رائعاً. كل شيء فيّ يمانع اقتراب هذا الرجل مني، أو قبول أنه ينتمي إلى أسرتي أو أني أنتمي إلى أسرته.

ومع ذلك أخذت أدقق في الصور. إني أشبهه بشكل مذهل. له الساقان الدقيقان نفسهما، والوقفة المائلة قليلاً إلى الأمام نفسها، الأنف نفسه والفم نفسه والمنظر الجانبي نفسه. الآن فهمت لماذا كانت جدتي زيغريد تقول دائماً إني أشبه فرنر في شبابه. هناك صورة أمام خيمة، يستلقي فيها فرنر على جنبه مستنداً على كوعه وهو يأكل. ولطالما رأيت أبي يأكل بالطريقة نفسها عندما نخرج للنزهة. لا يمكنني إبعاد هذا الرجل عني هكذا ببساطة، فهو قريب إليّ جداً. لذلك قررت أن أعرف من هو.

أريد أن أعرف قبل كل شيء، ما إذا كان فرنر نازياً. أخرج بعض الأضابير من خزانته، يبدو أنه قد احتفظ بكل شيء بشكل مرتب. أو هذا على الأقل. وجدت موجزاً لحياته كتبه في الخمسينيات، عندما التمس الانضمام إلى الحزب الاشتراكي الألماني الموحد. كتب فيه أن موقفه السياسي خلال "الرايخ الثالث" كان "غير واضح ورد فعل عاطفي فحسب". في ذلك

الوقت كان موقف أبي سياسياً يميل إلى النازية. في المناقشات معه كان دائماً يجعلني أشك بقناعاتي، لكنني كنت أرفض طلباته للمشاركة في التظاهرات انطلاقاً من موقف الناقد المتريث. وفي إضبارة أخرى وجدت شجرة عائلته التي تتضمن تصريحاً من السجل المدني ومن إدارة الرعية الكنسية بأنه "آري الدم منذ ثلاثة أجيال على الأقل". ناولني فرنر كتاباً مغلفاً بقماش كتاني رمادي، نضده وجلده بنفسه. إنه قصة حياته، كتبها في نهاية الثمانينيات "للأجيال القادمة". إن غرور فرنر بنفسه كان من حسن حظي.

بدأت قراءتها لاحقاً في بيتي. يصف فيها فرنر طفولته في قرية غوريتس في منطقة أوكرمارك في الشمال الشرقي، حيث نشأ في مزرعة جديه. أبوه وهو رسام هندسي كان في الحرب. وأمه التي كانت قبل الزواج تشتغل بائعة، لا تملك ما يكفي من المال لتبقى مقيمة مع الطفل في برلين. لدى الجد حصانان وبقرتان وثلاثة خنازير وبعض الدجاج وكثير من الإوز. وكان على فرنر وهو في الرابعة من عمره أن يرعى الإوز، فيخرج بها يومياً إلى مرج العلف مهما كانت حالة الطقس. أحياناً كان بعضها يهرب منه، فيضطر إلى الركض وراءها للإمساك بها. ويكون مساء على درجة من التعب فينام في أثناء تناول الطعام. كان الجد رجلاً قوي البنية بحاجبين كثين، عمل سابقاً في سلك الشرطة، وهو حالياً أمين السجل المدني في القرية. أحياناً، وفي أثناء الأعراس، كان فرنر يتسلل إلى غرفة عقد القران ويقف إلى يسار الباب وراء خزانة أضابير ولا يبدي أية حركة. وقد لفت نظره أن العروس كانت دائماً أصغر بكثير من العريس. بعد أن كبر قليلاً شرح له الجد أن الفلاحين ينتقون للزواج غالباً بنات الفلاحين الذين يمكن ضم أرضهم لاحقاً. ولاحظ فرنر أن هذه الأعراس لم تكن بهيجة. الجميع يبدون جادين، وعندما ينتهي عقد القران، يُخرج العريس من جيبه بطحة مشروب ليأخذ كل رجل جرعة قوية.

وعندما يكون الطقس جيداً، يسبح فرنر مع بقية أولاد القرية في البحيرة الصغيرة المجاورة لبناء المطافىء. وقبل السباحة يرمون في الماء ثلاثة ضفادع ملونة لإرضاء جني البركة الذي يحب جذب الأطفال إلى القعر، حسبما يزعم الكبار، الذين يعتبرون البحيرة مصدر خطر. وإذا ضبطته الجدة وهو يسبح، يتلقى صفعة على وجهه. بمناسبة عيد الميلاد يحصل والده على إجازة من الحرب، لأن القتال يتوقف في أثناء الأعياد، فوجد فرنر هذا الأمر مناسباً. يتبع والده لسلاح الفرسان، ولهذا فهو يرتدي بذلة رمادية مزدانة بكتافيتين مع هدب ذهبية وجزمة فرسان سوداء بمهمازين خماسيين متحركين. كتب فرنر أنه لم يستطع تحقيق أي تواصل مع أبيه، والعكس صحيح على الأرجح. لأبيه وجه نحيل شاحب وشارب تعلق به في الشتاء ندف الثلج. كلامه قليل ونظراته متعبة. أحب الأعمال إلى قلبه الاعتناء بالجياد وشرب الكحول مع أخيه، إذ جلب معه نوعاً خاصاً من فرنسا. وبعد الأعياد عاد إلى الحرب.

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى انتقلت عائلة فرنر إلى برلين. حصلوا على منزل صغير في المنطقة العمالية فدينغ يشمل غرفة ومطبخاً وحجرة مؤونة. بدت له المدينة كبيرة جداً وغير مضيافة، وسرعان ما شعر بالحنين إلى المروج والسماء الشاسعة البعيدة، إلى بركة القرية وغرفة جده الفلاحية. اشتغل أبوه في محطة لتوليد الكهرباء، وصار يذهب بعد الشغل إلى الحانة ولا يعود إلى البيت إلا في وقت متأخر. ويوم الأحد يستلقي الأب على الأريكة ويقرأ الجريدة أو ينام. وعندها على فرنر أن يلتزم الهدوء، لأن الوالد سيغضب إن تسبب أحد في إيقاظه. لكن أمه موجودة، ومعها يستطيع أن يتحدث في كل الأمور، وهي التي تحضّر له الطعام عندما يعود من المدرسة، فهنالك إما سمك هيرينغ مملح مع بطاطا مسلوقة بقشرها أو صلصة شحم الخنزير مع خضار مسلوقة. بعد

تناول الطعام ينهي فرنر واجباته المدرسية، ثم يحق له الخروج للعب في الشارع ويبقى هناك حتى إشعال لمبات الغاز في الطريق. وبعد عودته إلى البيت يجلس مع أمه لتناول طعام العشاء، ويسأل فرنر أمه عما إذا كان أبوه سيعود اليوم إلى البيت، فتغرورق عيناها بالدموع، لذلك توقف عن سؤالها عن أبيه.

كان الأمر يختلف كلياً في إجازة أبيه الصيفية، فخلالها يكون أبوه دائماً في البيت، لعدم التقائه بزملائه الذين يرافقهم عادة لشرب البيرة في الحانة. في أثناء هذه الأسابيع يبني أبوه نماذج مصغرة لعربات نقل تجرها جياد بدقة الأصل وعربات ركاب ومنازل فلاحية، يسمح لـفرنر باللعب بها فيما بعد. بعضها موجود في خزانته بجانب هوية الألعاب الأولمبية. هناك عربة بريد صفراء اللون وعربة بيرة مشغولة من النحاس وعربة ذات سلم مشغولة كلها من كسور خشبية صغيرة. وإلى جانبها يوجد اصطبل جياد مزود برافعة حبلية يمكن بها رفع أكياس القش الصغيرة. وهناك أيضاً حانة ذات شرفة من خشب بني اللون. سبق أن سمعت عن هذه الأشياء، فقد حكى لي فولف، أن فرنر كان يسمح له باللعب بها أيضاً عندما كان طفلاً. وقال حينها إن هذه الألعاب قد لعب بها فقط أطفالٌ آباؤهم غير متواجدين حولهم.

في الرابعة عشرة انتسب فرنر إلى نادي الجمباز، وبدأ يرسم، وصار يذهب مرتين أسبوعياً إلى المعهد العالي للفنون في شارع غرونِـفالد، حيث يحضر دورة لرسم موديلات حية. في الدرس الأول ارتبك، إذ لم يسبق له رؤية امرأة عارية، وشعر بخيبة، فالمرأة الجالسة على قاعدة تمثال تحت الكاشف الضوئي لها ثديان مسطحان متدليان ودوالٍ كثيرة وشعر أشعث. رسمها فرنر كما أحبها أن تكون، فكانت الصورة جميلة، لكن المشرف على الدورة لم يكن راضياً، وقال: «هنا نرسم النساء كما هن»، واضطر

فرنر إلى البدء من جديد. كان فرنر يمتلك الموهبة، ونصحه البروفسور بضرورة المتابعة والتخطيط للدراسة في المعهد العالي. ولمّا أخبر فرنر أباه بالأمر سخر منه، وقال إن عليه تعلم حرفة يدوية مرتبة كالجميع في الأسرة، "فدراسة الفن ليست لأناس مثلنا". وهكذا حُسم الأمر. فبدأ في السادسة عشرة بالتدرب على مهنة سباكة النماذج، فأبوه يعرف معلماً في مصنع نماذج. وفي أثناء ذلك بدأت بوادر الأزمة الاقتصادية العالمية وانتشرت البطالة، فكان فرنر مسروراً لإمكانية تعلمه مهنة ما على الأقل. العمل في المصنع شاق. على فرنر حمل الخشب وتنظيف قاعة المشغل وجر أكياس كبيرة مملوءة بالغراء. وعليه مرتين أسبوعياً تسليم النماذج المنتهية إلى الزبائن. وإذا أخطأ في تنفيذ أمر ما تأتيه الصفعات من المعلم أو من رئيس المتدربين.

كانت الشوارع مليئة بالمظاهرات. لافتات الشيوعيين تحمل شعار "طبقة ضد طبقة". وفرنر لم يكن يعرف معنى ذلك، وفكر في أن الأمر يتعلق بصفوف المدارس. وفي منطقته، فدينغ، يدخل الشيوعيون في معارك شوارع ضد النازيين، والمشاركون يتعرضون للضرب وقد يُقتلون. في سينما "قصر الكريستال" يُعرض فيلم "كل شيء هادئ على الجبهة الغربية" المناهض للحرب. فيصخب النازيون في الصالة ويرمون أكياس حبر على الشاشة. البلطجية النازيون يخيفون فرنر. وفي المصنع سُرح معظم العمال، ولم يبق في المشغل سوى أقدم المتدربين يكدح مع ستة آخرين. قبيل امتحان المهنة مات أبوه بالسل الرئوي. وفي أثناء زيارته الأخيرة له في المستشفى، أعطاه أبوه تالراً[1] فضياً كتذكار.

حصل فرنر على شهادة عامل متخصص في سباكة النماذج مع أوراق

---

(1) عملة كانت مستخدمة في أوروبا لوقت طويل.

تسريحه من المصنع. ووجدتُ في إحدى الأضابير وثيقة من مالك المصنع ألفين شروفيف يصرح فيها أن السبب الوحيد لتسريحه هو نقص العمل. يعود تاريخ الوثيقة إلى 3/ 3/ 1933، وعمر فرنر وقتها تسعة عشر عاماً. وصار يذهب مرتين أسبوعياً إلى مكتب الختم (تعويض البطالة) في شارع غوزمَن ليحصل في كل مرة على مارك وسبعة وثمانين قرشاً، يذهب منها لأمه من أجل الطعام مارك وخمسون قرشاً، وما تبقى لا يكفي لسفرة واحدة بالترام. هكذا بدأت حياة الرجولة بالنسبة إليه. ومع كل أسبوع يمر صار صف الدور عند مكتب الختم يطول. نصحه رجل تعرف عليه هناك بالذهاب إلى "البيت البني[1]" في لوتسوف أوفر «إنهم يبحثون دائماً على شباب هناك». فذهب فرنر وسأل. كانوا في حاجة حينها إلى عمال معاونين للسكك الحديدية، وشرط الحصول على العمل هو الانتساب إلى قوات العاصفة، أي البلطجية، الذين تعرف فرنر عليهم في فدينغ، ففضَّل العودة إلى صف الدور للختم.

بعد بضعة أشهر تغير الوضع في ألمانيا. كتب فرنر: على الرغم من شتائم العمال لهتلر، لكنه أوجد فرص عمل. لذلك تتغير آراء ومواقف الكثيرين سياسياً. لكنه لا يكتب إن كان قد غير موقفه. إلا أنه عاد للشغل في مصنع النماذج بعقد أسبوعي، وتم تثبيته في عام 1935. كان يتقاضى راتباً جيداً، جاء في الوقت المناسب، لأن أمه استهلكت كل مدخراتها خلال تلك الفترة، وراتب الترمل لا يكفيها حتى وحدها. الآن بات فرنر معيل العائلة، فأحس بالفخر. "أخيراً صرت قادراً على تسيير حياتي بنفسي، ويبدو لي كل شيء ممكناً"، وكان قبل بضعة أسابيع قد تعرف في نادي الجمباز على زيغريد، التي تصغره بخمس سنوات، كانت لا تزال طفلة تقريباً. وصارا يمضيان كل دقيقة فراغ مع بعضهما البعض، يذهبان إلى مقاهي المتنزهات

---

(1) مركز الحزب النازي.

حيث يرقصان التانغو والفالس وسلو فوكس، حتى أنهما فازا ببعض الجوائز لتكاملهما في الرقص. هناك كثير من صور زيغريد في الألبومات. "زيغريد في أثناء التمارين 1936" تحتل صفحة لوحدها، تبدو فيها على عارضة وقد رفعت رأسها نحو السماء ومدت ساقيها المشدودتين. تصلح كإحدى صور البروباغاندا التي تعرض الإنسان الجرماني الجديد. علماً بأنها كانت تتمرن فحسب. ولكن حتى هذا بدا لي مريباً. إنهما ببساطة ملائمان أكثر من اللازم لروح العهد النازي، إلى سنوات التربية الجسمانية وموضة تسريح غرة الشعر إلى الخلف بمعونة المثبت. كل هذه الأمور مرتبطة ببعضها في نظري: أبناء العمال الفخورون ذوو العيون الزرق، وهتافات "نصر – نجاح". لقد نشأتُ على هذه الحقائق. بالنسبة إليّ ليس هناك ماهو بريء أو طبيعي في ألمانيا عام 1936. الإنسان الطبيعي حينذاك كان ينتمي إلى الآخرين.

قمت بزيارة لزيغريد. إنها تعيش الآن في دار للمسنين تابعة للجمعية العمالية الخيرية في هوين شونهاوزن. وزيارتها أمر طريف، لأنها تبتهج دائماً لرؤيتي بصورة جلية جداً. وإليها يعود الفضل في أول تجربة جادة لي مع الكحول. عندما كنت في الرابعة عشرة شربت وإياها نصف زجاجة من الليكور في المخيم، فلم تعد تتحدث إلا عن الحرب، وفي وقت ما من السهرة لم أعد قادراً على الكلام. في طفولتي كانت هي جدتي المفضلة، لأنها تسمح لي عندها بمشاهدة التلفزيون حتى الختام، وبأكل ما أرغب من كعكة الجبن. عندها كنت أفعل ما أشاء، وكانت تجدني رائعاً دائماً لأني أذكرها بـ "فرنرها". إنها لا تزال تتذكر سنواتها الأولى مع فرنر. تتذكر رحلات القوارب في بحيرة تيغل وسكيورلاوِيه في كِرتِين، ومشاوير الدراجات إلى بيركن فردر، وحضور أفلام السينما في شارع كورفورستندام. كانت تعمل ضاربة آلة كاتبة في مول "راداتس وشركاه"

في شارع لايتزيغ. شاركا معاً برحلات نادي الجمباز، ومثّلا مرة مع فرقة مسرحية. عينا زيغريد تتوهجان عندما تتذكر تلك الأيام. قالت: «كل تلك الفوضى كانت قد مرت، أمي كانت تطبخ جيداً، وأنا عندي فرنر. تلك كانت أسعد أيام حياتي».

الإزعاج الوحيد، حسب زيغريد، هو تلك النقاشات السياسية. إذ كان فرنر متحمساً للنازيين، كان مأخوذاً بالعهد الجديد، بالإمكانيات الجديدة المتاحة. "كان يطالب بسيادة النظام، بسلطة الأمن العسكري "إس إس". وكان قد حصل أخيراً على عمل. كان يكرر دائماً أن النازية هي الشيوعية الراقية، وزيغريد لم تفهم بدقة ما يعني بذلك. وهي لم تسأل، لأنها كانت تفضل الرقص مع فرنر على النقاش السياسي معه. لكن نقاش فرنر مع أبيها فريتس كان يصل دائماً إلى حد الشجار. خلال مساءات طويلة كان فرنر يحاول أن يقنعه، لكن فريتس المتعاطف مع الشيوعيين كان يدافع عن موقفه، ولا يريد لأحد أن يقنعه. وكان فولف قد أكد على أن التوتر وصل ذات مرة إلى حد أن فرنر هدد فريتس بالتبليغ عنه بتهمة التحريض ضد الحكم، وذهب فرنر فعلياً إلى مخفر الشرطة، لكنه وجده مغلقاً لتأخر الوقت. وتلاشى غضبه حتى الصباح، فنجا فريتس من عواقب التبليغ. لا تتذكر زيغريد هذا التفصيل وتعتبره مبالغة، لكنها تتذكر التفاصيل الجميلة مع فرنر، في حين يؤكد فولف حدوثه بناء على كلام فريتس الذي ليس من عادته المبالغة. وأنا لا أدري مَن أصدّق. هل يمكن نسيان أن الرجل الذي أحبه أراد تسليم أبي للذبح؟ أم أن زيغريد كانت مضطرة إلى التناسي، وإلا ما كانت لتحتمل الاستمرار مع فرنر؟ إنْ صدقَ الأمر، وكان مخفر الشرطة بالصدفة لايزال مفتوحاً، ماذا كان سيحدث مع فريتس؟ تتذكر زيغريد شجاراً مع فرنر، بعد العرس، عندما وجدا أول مسكن لهما من غرفة واحدة في بانكو. فقد أصر فرنر على تعليق علم الصليب المعقوف من النافذة،

في حين وجدت زيغريد الأمر سخيفاً. إنها لا تريد أعلاماً في بيتها، مراعاة لأبيها على الأقل. اتفقا أخيراً على شراء علم صغير جداً، لكن فرنر رجع حاملاً أكبر علم، زاعماً أن الصغيرة قد نفدت. وفي بيت حمويه أيضاً ركّب فرنر في الشرفة حاملي علمين، وكان مستعداً لشرائهما، لكن فريتس منعه من تعليق أعلام نازية. بعد مرور عشرين سنة اشترى فرنر علمين أحمرين لشرفة فريتس. لكن هذه حكاية أخرى.

14. تدوينات

لا يوحي كل هذا بأن فرنر قد اتخذ موقفاً "نقدياً مراقباً" تجاه النازية، حسبما كتب في ملخص سيرة حياته في الخمسينيات. بل يبدو أقرب ما يكون إلى أنه مثل كثيرين آنذاك قد اقتنع بالحياة الأفضل. لاحظ أن الأمور تتحسن وأن حياته تصبح أجمل، وأن حتى أبناء العمال قد فتحت أمامهم الفرصة فجأة. لم يسبق لأحد في أسرته قط أن سافر للتزحلق على الثلج في الجبال، وكان هو أيضاً أول مَن رأى البحر. حتى لو امتلكوا المال، لما خطر في بالهم أن يستأجروا كوخاً من القش على شاطىء فانزيه أو أن يطلبوا زجاجة نبيذ عند الخروج للرقص. لقد شعر فرنر بنفسه كالصاعد اجتماعياً، كمن سحب ورقة اليانصيب الرابحة. "لقد بدا فجأة أن كل شيء صار ممكناً"، هذا هو ما كتبه، وهكذا تماماً كان على الأرجح الشعور بالحياة لدى كثير من الناس آنذاك. لقد جعل هتلر الصغار كباراً والكبار صغاراً. فتوجب على ابن البرجوازية الكبيرة غرهارد أن يغادر البلد، وسُمح لابن العامل أن يتذوق حلاوة الحياة.

عندما دَوَّن فرنر ذكرياته في الثمانينيات، كانت عملية التغير على ما يبدو تتابع تقدمها. لقد كتب: "عندما مد الرايخ الثالث سلطة العنف على الأصعدة جميعها، أحسست بالإحباط من شكل الحكم العنيف هذا

واستمررت في البحث عن حل لنفسي. إذا لم أقدم التحية للعلم النازي ولم أحضر تظاهرات النازيين كلها ولم أدفع سلفاً مساهمتي لـ"جبهة العمل الألمانية" فسأتعرض لمشاكل. لقد كشطتُ الصليب المعقوف الصغير من على الميدالية البرونزية لمشاركتي في الألعاب الأولمبية. لكنني بهذا لم أغير شيئاً. مارست مقاومة سلبية ولم أدعم أفعالاً مناهضة للنازية". قد يكون كل هذا صحيحاً، لأن فرنر ليس من النوع الذي يختلق أشياء من عنده. أما أنه قد ينسى أموراً مزعجة فهذا محتمل جداً. محتمل جداً أنه كشط الصليب المعقوف عن ميداليته الأولمبية عام 1936، وأصر عام 1941 على تعليق العلم النازي الكبير من شرفة بيته الأول. محتمل جداً أنه كان متردداً في البدايات ثم تحول في وقت ما إلى متحمس. تروي زيغريد أنه عام 1942 تبرع من نفسه بعدة التزحلق على الثلج وبغياراته الشتوية الدافئة للزملاء في روسيا. «عدة التزحلق كانت فوق كل شيء بالنسبة إليه، والغيارات كان يحتاج إليها بنفسه، لكنه قال إن على كل واحد منا أن يقدم شيئاً في سبيل النصر النهائي».

سألتُ زيغريد عما وصل إلى علمها من جرائم النازيين آنئذ. فكرت قليلاً ثم قالت: «نحن لم نهتم لهذه الأمور». لكنها لاحظت بعض الأشياء. في الجوار كان هناك فتاة تلفت النظر بشعرها الأشقر المموج، اسمها نينا هاللر، اختفت فجأة لأنها يهودية، وكذلك مديرة مدرستها اليهودية، التي كانت تهتم بحصول أطفال العائلات الفقيرة، مثل زيغريد، على سندويتش لحم مقدد من العائلات الأغنى، اختفت أيضاً فجأة. «لكن المسألة كانت أننا لم نجرؤ على السؤال، ربما لشعورنا بالخوف». قالت زيغريد. في شباط/ فبراير 1941 سافرت مع فرنر برحلة شهر العسل إلى هونِشتاين في سويسرا السكسونية، حيث يوجد حصن على جبل، قال الناس هناك إنه معسكر اعتقال. وذات ليلة عبرت هونشتاين شاحنات محملة بالأسرى.

لكن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً، لأن معسكر هونشتاين أزيل عام 1934 رسمياً، فلربما حدثها الناس عن شاحنات نقل. على كل حال تقول زيغريد إن الأمر لم يهمها كثيراً، فهي في نهاية المطاف في شهر عسل. "فكرت في أنه يحق لنا أيضاً بعض التسلية. ومن بعدها أخذت كل الأمور تسوء". لم يُسق فرنر إلى الحرب إلا في وقت متأخر. كان مصنع النماذج يزود صناعة الأسلحة بقطع غيار. وصُنف فرنر كعامل "لا بديل له"، فسُمح له البقاء في برلين. في عام 1942 ولد فولف. وبسبب الغارات الجوية المتزايدة على برلين أرسل زيغريد والطفل في صيف 1943 إلى ابنة عمه في إحدى قرى سكسونيا. أما هو فقد حصل نتيجة جهده المفيد للحرب على رحلة استجمام في كولونغزبورن على بحر البلطيق. وفي القطار إلى المنتجع، تعرف على امرأة اسمها ليلي أمضى معها الإجازة. وبعد سنة أنجبت منه طفلاً. في 9/ 9/ 1944، استُدعي فرنر إلى ثكنة هيندنبورغ في مدينة بريمن، حيث تلقى تدريباً على قاذف صواريخ وأرسل مع وحدته في أيلول/ سبتمبر إلى مرج لونيبورغ، حيث أقيم ميدان الرمي التدريبي. نظر فرنر إلى عشب المرج الأحمر الذهبي وإلى الغابات البنية والخضراء وشعر بالأسف، "لتشويه هذا المنظر الحالم بقنابلنا ولإزعاج هدوء أواخر الصيف". يبدو أنه لم يسمع كثيراً من أخبار الحرب التي تعيث فساداً في أوروبا منذ خمس سنوات. في منتصف كانون الأول/ ديسمبر، تم تجميع الفوج في بِتلينغن بمهمة إيقاف تقدم القوات الأمريكية في آردِن الإلزاسية. إنها المواجهة الأخيرة للجيش الألماني على الجبهة الغربية. ربما لم يكن فرنر يعرف حينذاك أن العملية ميؤوس منها. إنه ينتمي إلى آخر ما تبقى من الجيش. لقد كتب فرنر يومياته في أثناء الحرب، دوّن فيها بالتفصيل الدقيق كل ما حدث له في أثناء غيابه. عثرتُ على اليوميات في رف مكتبة في مسكنه، كانت بجانب الطبعة الأولى من دستور (ج.أ.د).

دُهش فرنر عندما أريته الدفتر الأسود المهترىء. كان قد نسيه. الصفحات مملوءة بكثافة بخط يد متزن. حتى السطور الأولى التي كتبها في حفرة أرضية في إلزاس كُتبت بتركيز وبصورة مرتبة. الحفرة هي مخبأ، بعمق قامة رجل في تربة متجمدة، وتبعد ثلاثة أمتار عن قاذف صواريخه. هناك عاصفة ثلجية هوجاء. إنه يوم 31/ 12/ 1944. "عندما أطلقنا وابل قنابل الفوج كان التوقيت خمس دقائق قبل منتصف الليل. أرسلت مع القنابل أفضل أمنياتي للأمريكان. وعندما انفجرت هناك اشتعل الأفق كله، ويا لها من ألعاب نارية مجنونة لرأس السنة! يا ويلي، لا أشتهي الآن أبداً أن أكون أمريكياً. 270 رمية، أي 670 قنطاراً من الفولاذ والمواد المتفجرة التي سقطت هناك الآن. وعندما لقمنا مجدداً وحددنا الهدف الثاني كان التوقيت دقيقتين بعد منتصف الليل، أي 1945. فكرت قليلاً في البيت. أما زالوا يقظين يا ترى؟ لا أعتقد. أمي نامت حتماً وزيغريد كذلك، إن لم يكن هناك إنذار غارة. هنا يعطوننا حبوباً كي لا ننام. ما عدت أحس بأصابعي من هذا البرد اللعين".

في صباح اليوم التالي، بعد شروق الشمس بقليل، جاءت قاذفات قنابل أمريكية. "إنهم لا يجرؤون على الاقتراب، يخافون من مضاداتنا، هذا سلوك أمريكي. مقاتلاتنا الألمانية كانت ستتصرف بشكل مختلف". تبدو لهجة فرنر وكأنه قد أمضى شهوراً على الجبهة. حديثه عن الجنود بقوله "نحن" له وقع الروتين، ويبدو أن لا شكوك لديه في عبثية هذه العملية. لكنه بعد بضع صفحات يكتب مرعوباً: "الأمريكيون يقصفون بطارياتنا. سقط عندنا أول قتيل. جندي الاتصالات لدينا أصابته شظية قنبلة في رأسه. وبعد عشر ثوان مات. انتابني شعور غريب في بطني عندما وضعوه على ظهر الشاحنة. كان اسمه ميرلينغ وكان في أمسية الوداع قد

عزف على البيانو بصورة جميلة. لم يعد هناك بين الحياة والموت سوى خطوة قصيرة".

طوال خمسة أيام لم يكد فرنر ينام. في أثناء المسير يسقط رأسه مراراً على صدره، يسقط على وجهه في الثلج ويعاود النهوض مرعوباً. إنه يرتدي قميصين وسروالين داخليين وكنزتين وبذلة تدريب ومعطفاً ولا يزال يشعر بالبرد. وفي الخامس من كانون الثاني/ يناير خطر في باله أن ابنته ريتا صار عمرها سنة. "في الحفرة الأرضية المعتمة نام فرانتس منذ برهة وأنا أفكر في ريتا والبيت. بكيت بكاء خفيفاً ثم نمت".

خلال الشهور التالية بدأ الانسحاب السريع. دوَّن فرنر التواريخ والأمكنة على صفحة A4 بخط دقيق: "13/ 3، نيدربرون، دفنّا بافلِشِك... 21/ 3، گيبلاناي-هوف، 15 دقيقة قصف مستمر على موقعنا (قنابل دبابات)... 24 إلى 26/ 3، فريدريكستال، 1. حمام في البانيو منذ هيلدسهايم". على الرغم من الجوع والخوف الدائم من الموت، خاض فرنر مغامرات غرامية متعددة خلال هذه المدة، وأشار إليها باختصار في تدويناته: "1-3/ 4 هوونكلينغن (فلاحة صبية، 24 تقريباً، أبوها وأخوها قتلا وأمها ميتة، كان بودها أن أبقى عندها، 10 هكتارات أرض، أرادت إعطائي ثياباً مدنية. خفت، لأن قوات "إس إس" وراءنا... 9-16/ 4 رينهارتس، مع فتاة من راينلاند، أمسيات مسلية... 20-23/ 4 شفورسهايم، إقامة خاصة في منزل أرملة الحرب الشابة إلسا تاغليير".

التدوين التفصيلي التالي يؤرخ في 1/ 5/ 1945، الساعة 3 عصراً في فسترندورف. فرنر يكتب بقلم رصاص: "في التاسعة من صباح اليوم وصلنا إلى هنا مع سرية القاذفات. في الساعة 12 ظهراً قصف الأمريكان القرية. أدركنا عبثية متابعة القتال وقررنا الاستسلام للأسر. ضباطنا تابعوا

بالسيارة عبر جبال الألب. رمينا القاذفات من على منحدر وطمرنا أجهزة القياس والرؤية. الأمريكان وراءنا على مسافة 700 م على طريق السفر العريض، ولا يجرؤون على التقدم باتجاهنا. معنا ما يكفي من الطعام ومن الوقت. جلست في بيت فلاح أقرأ كتاباً وأفكر. من المؤسف في الواقع أن ينتهي الأمر اليوم أو غداً. كنت أتمنى متابعة المسير إلى أن تنتهي الحرب، لأصل إلى البيت دون الوقوع في الأسر. أما أن تكون مطارداً طوال الوقت مع نقص في الذخيرة، فهذا أمر مقزز. تسلينا حتى منتصف الليل بلعبة الرهونات مع ابنة فلاح وزوجة شابة ثم نمنا على الأرض. في اليوم التالي جاءنا بولوني وقال إن الأمريكان يطالبوننا بتسليم أنفسنا. فمشينا بانتظام إليهم. طالبنا الحاجز الأول برمي كل الأسلحة إلى كومة. بعد مسافة قصيرة ألقى علينا أمريكي كلمة بالألمانية. منظره يبدو مثل كاوبوي سكران، يضع على خوذته نظارات دراجة نارية وحول عنقه شالاً ملوناً. ويحمل مسدساً في كل يد. إذاً، الحرب بالنسبة إليّ قد انتهت".

قضوا عدة ليالٍ مزدحمين في شونة. وفي 6/ 5 نُقل الأسرى بشاحنات قاطرة ومقطورة عبر مونشن (ميونخ) وآوغسبورغ إلى هايلبرون، حيث جلسوا في حقل مسور بأسلاك شائكة. في الزوايا الأربع للسور هناك رشاشات ثقيلة. الجو حار ولا يوجد ماء. ظهراً يمرر للأسرى عبر الأسلاك عدة دلاء مملوءة بحساء لونه كالصدأ، لكن عدد الأسرى وصل إلى عشرين ألفاً على أقل تقدير وفق حسابات فرنر، المستلقي على الأرض الطينية المتيبسة محاولاً النوم. الزمن يمر، نهارات حارة بشكل لا يطاق وليلاً تهبط البرودة إلى ما دون الصفر. لا أحد يعرف إلى متى سيبقون هنا، أو ما هو مصيرهم بصورة عامة. الحقول المحيطة بهم تم تسويرها أيضاً ويومياً تصل دفعات جديدة بالشاحنات. بات الأكل نادراً

وكذلك الماء. يحاول فرنر ألا يتحرك بسرعة كي لا يدوخ. انهار بعض الرجال ونُقلوا، وثمة آخرون فقدوا أعصابهم ويات من الصعب تهدئتهم. فكتب فرنر: "هنا تتعرف الشخصَ على حقيقته، كثيرون فقدوا السيطرة على أنفسهم. إنهم يتدافعون عند وصول الماء كالحيوانات، لا أحد ينتظر. إني أتجنب أي حركة غير مفيدة توفيراً للطاقة. مَن يسقط هنا ويبقى في مكانه فقد ضاع".

بعد أسبوع تم فرزهم وفق رموز بريدية لينقلوا إلى أماكن تجميع أخرى. أمل فرنر بأن إطلاق سراحهم بات وشيكاً. في 21/ 7 قادهم جنود أمريكيون مسلحون برشاشات إلى محطة بضائع هايلبرون. صعدوا إلى عربات البضائع، كل ثلاثين أسيراً في عربة. همس لهم أحد عمال السكة أنهم سينقلون إلى فرنسا. "ذُهلنا واضطربنا، وما تبقى لدينا من قوة منحتنا الأمل بعودة قريبة إلى الوطن، تلاشى بكلمة واحدة. أشعر بيأس عميق. حتى للبكاء لم يعد لدينا قوة". سافرْ القطار عبر ستراسبورغ ثم نانسي إلى لو مانس في شرقي فرنسا. هناك وضعوهم ثانية في حقل مسور، ويجب الابتعاد عن الأسلاك مسافة خمسة أمتار. ثمة أسير فائق النشاط فرز للتنظيف، اقترب من السور لرفع ورقة، أطلق عليه الحرس النار، فأخذ المصاب يصرخ من الألم. استُدعي الممرض، أتى وانحنى بجانب المصاب، أطلق الحرس النار عليه أيضاً فمات فوراً. كان فرنر يراقب كل هذا دون انفعال. "إني ضعيف للدرجة لا يمكنني معها أن أحزن. إني أنسى أسماء زملائي، حتى أبسط تمارين الحساب تسبب لي صعوبات". هناك صورة صغيرة ملصقة في أحد ألبومات فرنر التقطت في تلك الفترة. للوهلة الأولى يصعب التعرف عليه فيها، إذ يبدو نحيلاً جداً بلحية كاملة وشعر طويل ونظرة متبلدة.

في تلك الأوقات كانت اليوميات أهم رفيق بالنسبة إليه. لقد تمكن من تهريب الدفتر عبر كل نقاط التفتيش، في حقيبة مزدوجة القعر. بعد أسره من قبل الأمريكان كتب: "على الرغم من كل سوء الحظ، كنت محظوظاً. الدفتر والقلم ما زالا موجودين". اليوميات هي الصديق الذي يستطيع أن يبوح له بكل شيء. خلال الأسابيع الأولى في فرنسا كان خطه مرتجفاً وغير واضح. ربما نتيجة للإرهاق الذي كتب عنه. وكتب في 22/ 8: "متابعة هذه اليوميات تتطلب سيطرة كبيرة على النفس. لكنها المعنى المجدي الوحيد الذي تبقى لي". فوصف بالتفصيل حياة المعسكر، وجبات الطعام، الطقس، الزملاء الأسرى. لكنه لم يذكر أي شيء عن الهزيمة في الحرب ولا عن "الرايخ الثالث" الذي انهار كلياً لتوه. هل كان خائفاً يا ترى أن تقع يومياته ذات يوم بأيدي حراسه؟ أم أن الوقت لم يكن ملائماً للتفكير السياسي؟ في أثناء النهار انهمك فرنر في الحفر لقبور جماعية. صار يحصل لقاء ذلك على وجبات مزدوجة، وشعر باستعادة قواه. في الصباح كانوا يرمون جثامين الزملاء الذين ماتوا في أثناء الليل في الحفر. عشرون جثماناً في كل حفرة، ثم يرشون عليها كلس الكلور ويهيلون التراب فوقها، ورغم ذلك كانت روائح الإنتان تصدر منها بعد بضعة أيام. وكان فرنر يرى في براكة المرضى زملاء عرفهم منذ هايلبرون. "مصابون بالسل ولا شفاء لهم. أظنني سأدفنهم جميعهم، هذا مؤكد على أي حال. في الوقت نفسه ينمو خوفي من أن أصاب أنا بالمرض. فهذا هنا هو الحكم بالموت".

لقد قارنت التواريخ مع بعضها وتبين لي أن فرنر وصل إلى فرنسا قبل قليل من مغادرة غرهارد منفاه الفرنسي باتجاه ألمانيا. بالنسبة إلى غرهارد انتهى زمن الريبة، وبدأ عند فرنر. أحاول أن أتخيل كيف كان الأمر سيكون لو التقى الاثنان آنذاك. الملازم الفرنسي المنتصر وصف الضابط الألماني

الأسير. لقد التقى غرهارد بكثير من أسرى الحرب الألمان وزار بعض المعسكرات ليكشف للجنود الألمان جرائم النازية. عندما وصل فرنر إلى لو مانس انطلق غرهارد من باريس والتقى أباه لأول مرة منذ نهاية الحرب. بالنسبة إلى كليهما صارت فرنسا قدراً، وإنْ بأسلوبين متباينين تماماً.

15. آلام

كمهده دائماً، كان فرنر محظوظاً، إذ فرز في نيسان/ أبريل 1946 إلى مجموعة أسرى الحرب الذين سيُوزَّعون للعمل في المزارع المجاورة. ثمة فلاح اسمه جان اختاره لأنه الأطول في المجموعة، ولمَّا سأله عن مهنته، أجاب فرنر "فلاح". ولم يكذب، لأن الكلمة تحمل المعنيين: بنَّاء وفلاح. لكنه لم يكمل النصف الثاني من مهنته. وبعد بضعة أيام تبين أنه لا يعرف شيئاً عن حرث التربة وقلبها وحلب المواشي، فاعترف لجان بأنه في الحقيقة بناء نماذج صناعية. ومع ذلك سمح له جان بالبقاء لأنه سريع التعلم وسريع الإنتاج. في اليوم الأول قال له جان: «عمل كثير، أكل كثير»، والنهار يبدأ في الخامسة صباحاً. يبدأ فرنر بجمع الروث من الاصطبلات ثم يحلب الأبقار ثم يعمل في الحديقة. بعد الظهر يخرج إلى الحقل ويبقى هناك حتى انتهاء الدوام في السابعة والنصف. الطعام وفير وجيد. "لأول مرة منذ مدة طويلة يمكنني الأكل بقدر ما أشاء. التفاهم مع المعلم لغوياً بدائي، لكنه ناجح: إمساك المؤخرة مع قول بم، بم، بم يعني بازلاء. اليوم وزنني المعلم، 82 كغ. تتألف أيامي من عمل، أكل، ونوم. في السرير ما زلت أعزف على الهارمونيكا بفمي وأفكر في أمي وزيغريد والأولاد".

العمل متعب. امتلأت يدا فرنر بالفقاقيع الجلدية وصعب عليه تحريك

ركبته اليمنى. ينتعل الحذاء الخشبي ويجر قدميه وراء الثور الذي يجر المحراث عبر الحقل. تبدو له أرتال الزرع طويلة بلا نهاية. ويلاحظ تبلده المتنامي، أن الرأس يتراجع ببطء تاركاً الحياة كلياً للجسد. فصار يلقي قصائد بصوت عالٍ ومحاضرات قصيرة عن الكهرباء والرسم التقني، ويتساءل عما إذا كان الدماغ يتقلص في حال عدم استخدامه لفترة طويلة. كتب في 21 نيسان/ أبريل: "مساء أمس، عند دخولي للنوم، تذكرت أن اليوم هوعيد ميلاد الفوهرر". ترى ألا يعرف أن هتلر قد مات منذ سنة تقريباً؟ أيعرف شيئاً عما يجري في الدنيا خارج مزرعة الفلاح الفرنسي؟ هل وصلته أخبار من عائلته؟ إنه يصف الحياة اليومية بالتفصيل المسهب، دون إيراد أي فكرة أو خاطرة تتجاوز ما هو يومي. هناك صورة له مع الفلاح جان، يظهر فيها مرتدياً ربطة عنق وجاكيتاً ويفوق الفرنسي طولاً برأسه. الفرنسي قصير وعريض. وفي الصورة يبدو أن فرنر هو المعلم، وهذا على ما يبدو هو ما تظنه سيدة الدار أيضاً، حسبما يدعوها فرنر. فغالباً ما يجلس الاثنان معاً مساء في غرفة المعيشة بعد أن يذهب الجميع للنوم. "المعلم مستاء، ويقظ مثل كلب الصيد".

صار وقت العمل يمتد الآن من شروق الشمس حتى مغيبها. هناك ساعة استراحة ظهراً، لأن حيوانات الجر لا بد من أن ترتاح. يحس فرنر بآلام في عموده الفقري وهناك شقوق في يديه، كما أن رسغه الأيسر متورم. "لا أدري إن كانت مؤخرتي لاتزال متصلة بعمودي الفقري أم مربوطة به بخيطان". يوم الأحد عطلة، وفرنر يفكر في ليلي، في غرام الإجازة، التي صار عمرها 26 سنة. يصف كيف التقيا حينذاك في القطار نحو كولونغزبورن. كانا جالسين في المقصورة قبالة بعضهما، وأكثر هو من تملي وجهها، ثم دخلا في حديث، وعندما وصلا إلى بحر البلطيق كانا قد أسرّا لبعضهما أفكارهما الأكثر حميمية. ترجلت ليلي في كولونغز

بورن-شرق، فيما اضطر هو إلى المتابعة. تواعدا على اللقاء على الشاطىء وأمضيا معاً كل النهارات وكل الليالي أيضاً. "شعرتُ بالسعادة، وكأني قد عثرت على امرأة حياتي". كتب فرنر. ثم يأتي موضعان في اليوميات مشطوبان ومسوّدان، وهما الوحيدان في اليوميات اللذان لا يجوز لأحد أن يقرأهما. وبعدهما يكتب عن الطفل الذي سيولد بعد تلك الإجازة: "قليلون جداً هم الذين يغفرون لي لكوني منحت الحياة لهذا الطفل، لكنهم لن يوجهوا إليَّ تهمة أني، بسلاحي في الحرب، سلبت حياة مئات البشر. ما هذه الأخلاق العجيبة؟ ما هذه الأوقات؟ إذا كان الأمر بمقدوري فسأمنح هاينتس الصغير الشعور بأن له أباً حتماً، وإن لم يكن موجوداً معه. كم سيكون الأمر جميلاً لو كانت زيغريد مع فولف هنا الآن. فإني أشعر بوحدة قاتلة".

في 30/ 5/ 1946، تلقى فرنر أول رسالة من زيغريد. بعد بداية الأسر بسنة. ويبدو أنه لم يكن يعرف شيئاً عن مصير عائلته. كتبت له زيغريد أن الجميع بخير ووضعت صوراً لـفولف وريتا. أحس فرنر بالفخر بابنه، لأنه يشبهه جداً، وكاد يفقد السيطرة على نفسه من شدة الفرح، وكتب، بما أن القدر كان رؤوفاً به، فإنه مستعد لأن يكون "رجل العائلة المرتب الذي لن يخرج عن الطريق القويم"، إنه نوع من قسم الإخلاص، واعتراف، "سأصعد سلم قدراتي إلى أعلاه، وهناك حيث تنتهي قدراتي سوف أضع ابني. سأعمل على ألا يضطر مثلي إلى الصعود من أول السلم. لن يدخل الحياة مزوداً فقط بمستوى المدرسة. سأعلمه في وقت قصير كل ما أعرف وما أستطيع". لكنه سيبقى أسير حرب سنة ونصف أخرى قبل أن يتمكن أخيراً من الشروع في رحلة العودة إلى الديار. سنة ونصف وهو يكد ويجهد كل يوم في مزرعة الفرنسي، دون أن يكون لديه أية فكرة، متى سينتهي أسره. لا أدري ما حل به خلال هذه المدة، فملاحظاته صارت

أقل، ونادراً ما يعبر عما يحتمل في نفسه. وفي بعض الأيام لم يدون سوى وزنه ونبضه وحالة هضمه.

في 30/ 9/ 1947، عاد إلى بعض التفصيل. إنه يوم ركوبه القطار في لو مانس مع ثلاثين أسيراً آخر عائداً إلى ألمانيا. "كنت طوال سنوات في انتظار هذه اللحظة، وها هي قد أتت، وأنا مضطرب وحائر، لأن كل شيء سيكون مختلفاً الآن. أكاد أعتقد أني اعتدت حالة الأسر ولا أدري كيف ستسير الأمور بعدها". سافر بهم القطار عبر ساربروكن ومَنهايم وفرَنكفورت وهاناو وبيبرا إلى آيزناخ، التي وصلوها في وقت متأخر من مساء يوم 10/ 10، حيث تم تسجيلهم وتفتيشهم وفحصهم ثم تعقيمهم من القمل. سُمح له بإرسال برقية إلى أهله في برلين. وجدتُ بين وثائق فرنر استمارة تسجيله في معسكر العبور في آيزناخ وقد كُتب عليها: "حسن التغذية، ردود أفعاله طبيعية، خالٍ من القمل". وكان عليه المرور عبر ثلاثة معسكرات أخرى قبل أن يتمكن أخيراً من ركوب القطار إلى برلين.

في الساعة السادسة من صباح 28/ 10 وصلنا إلى برلين. هذه هي اللحظة الحاسمة التي انتظرناها طوال سنوات. أريد أن أرتشف في نفسي هذه القطعة الأخيرة من الطريق إلى البيت وأن أستمتع بها بوعي يقظ. عندما خرجت من مترو الأنفاق غِزوند برونن أحسست لأول مرة أني حقاً في بيتي. خلال دقائق سأكون في الدار، كيف سيكون كل شيء؟ ما زلت أحتفظ بمفتاح الدار. أفتح باب المطبخ بهدوء وأدخل. المطبخ أصغر مما هو في ذاكرتي. هناك على طاولة المطبخ باقة ورود مع بطاقة ترحيب بالعودة، يبدو كل شيء وكأنهم في انتظاري. أجهز نفسي للاستقبال الأول، فأغسل وجهي وأسرح شعري وأنظف أسناني، صحيح أني هادىء لكنني منفعل قليلاً. زيغريد تنادي، من هناك؟ إنه الصوت نفسه كالأيام الغابرة. ماذا عليَّ أن أقول؟ لم أقل شيئاً. أسمع وقع خطوات، ويُفتح الباب. عندما

أتخفف من عناق زيغريد الأول، أرى فولف وريتا. كلاهما وزيغريد أيضاً يبدون كما في الصورة التي في ذاكرتي.

عند هذا الموضع تنقطع اليوميات. وبعد مرور أربعة شهور، في 24/ 3/ 1948، يعود فرنر للكتابة، ولآخر تدوين: "لقد انطوى الزمان سريعاً، ووقعت فيه أحداث وتغيرات كثيرة. بعد التقائي بأحبابي ثانية تلاشى الأسر من ذاكرتي مثل حلم. واتصلت الحياة من جديد، هناك حيث انتهى أمر استدعائي. في البيت كل شيء بصورة عامة على ما يرام. وأنا راض عن الصبي، سيكون كما تصورت وتمنيت، لكن البنت لم تتلقَّ التربية الملائمة لشخصيتها. أريد أن أتدخل بشكل مؤثر ومحدَّد لأتوصل إلى اعترافها بشخصي. وأعتقد أني الآن قد وجدت الطريق الذي يرغم زيغريد أيضاً على التشدد معها. بعد جدالات حادة بين زيغريد وبيني بصدد إدارتها لشؤون البيت وواجباتها المنزلية، ستبذل جهدها لتلبية رغباتي. أنا شخصياً نحلت بشدة في الآونة الأخيرة وأحس دائماً ببرد شديد وقد ملأني قلق داخلي. لتوي تناولت غدائي، أنظر الآن عبر النافذة إلى الخارج، بهدوء لأول مرة. يمتد إسفلت الشارع مثل شريط حجري ثقيل على طول الأبنية. كم من الثقل على الأرض تحته أن تحتمل؟ أحس وكأن الإسفلت كله يضغط عليَّ".

ما كان للأمر أن يستمر بهذه البساطة. وكيف له ذلك بعد كل ما مر به فرنر؟ لا أدري إن كان في وسعه أن يتحدث في الموضوع مع زيغريد، حول أهوال الحرب وفي المعسكرات، عن مخاوفه ووحدته. هل كان لديهما وقت لمثل هذه الأحاديث؟ أم أن العوز والشدة في شتاء 1948 كانا كبيرين حتى في البيت، بحيث لم يكن في مقدور الإنسان الالتفات إلى شدائد الماضي؟ ربما لم يرغب فرنر في فتح الموضوع، بل ابتغى النسيان بأسرع ما يمكن. فمن طبيعة شخصيته أن يعالج هذا كله بنفسه داخلياً، وأن

يعاني بصمت تحت ضغط الذكريات. ومن ثم كان ينفجر أحياناً، فيضرب ابنه ويرفع صوته في وجه زوجته. فالضغط لا بد من أن يجد مخرجاً. من السهل إدانته اليوم، وتقديمه كأب فظ وزوج رديء. ومن المحتمل أنه لم يستطع سوى ذلك، لكون سنوات الغربة قد بلّدته. عندما يكون الإنسان في خطر دائم، عندما لا يكون همه سوى أن ينجو بجلده، عندما يعيش الإنسان طوال شهور في القذارة ويشاهد رفاقه يموتون، فهل يمكنه أن يعود فجأة إلى حالته الطبيعية؟ بل هل يمكن أن يعود طبيعياً في أي وقت من الأوقات؟ لقد حاول فرنر، لم يركن إلى الاسترخاء، بل يبدو أنه كان يخاف من الهدوء. اكتفى بنظرة متأملة من النافذة. ما دام فرنر مشغولاً، ما دام ينجز عملاً ما، ففي مقدوره أن ينأى بنفسه عن الماضي.

بعد ثلاثة أسابيع من عودته ذهب إلى مكتب العمل. وقال هناك إنه يريد أن يكون إما معلماً في مدرسة مهنية أو رسام مناظر مسرحية. أعطوه عنوان مكتب التعليم المركزي وعنوان الورشات المسرحية. وقف فرنر على موقف الترام غير قادر على حسم أمره. ثم قرر الركوب في أول حافلة تصل. أوصلته الحافلة وهي ترتج وتصرّ عابرة بين أنقاض محترقة إلى ساحة فردر حيث يوجد مكتب التعليم المركزي. لأول مرة يرى فرنر مدى الدمار الذي لحق بوسط مدينة برلين. مكتب التعليم الذي كان ذات يوم فخر أعمال المهندس المعماري شينكل يبدو من الخارج غير قابل للسكن. في الداخل تاه فرنر في الدهاليز والأروقة التي تنتهي بأبواب مسدودة. صعد أدراجاً تقرقع وتخشخش وتتجول عليها الجرذان. فتساءل، كيف سيكون حال المدارس يا ترى، إذا كانت الإدارة نفسها كالخرابة. دله رجل مسنٌّ إلى قسم شؤون العاملين. استقبلوه هناك بترحاب لافت، فالمعلمون مطلوبون بصورة ملحة. وكان عليه بعد يومين مباشرة تقديم امتحان القبول لكلية التربية

إني أستغرب كيف ترك فرنر لحافلة ترام أن تحسم موضوع مستقبله المهني. حينذاك كانت الورشات المسرحية في كرويتسبرغ، فلو جاءت حينها تلك الحافلة قبل هذه، لبقي فرنر في برلين الغربية، ووالداي ما كانا ليلتقيا، وبالتالي ما كنت لأولد أصلاً. لقد اجتاز فرنر امتحان القبول في كلية التربية، وسُمح له الالتحاق بالفصل الدراسي الجاري وأصبح معاون معلم في مدرسة مهنية لنجارة البناء والأثاث. عاد فرنر إلى البيت مندهشاً جداً من السرعة التي تم فيها كل شيء. بعد شهر واحد من عودته بدأ حياة جديدة. وفي نهاية عام 1947 كانت مناطق الاحتلال المختلفة قائمة في برلين، ولكن كان سيّان أين يسكن المرء وأين يشتغل. الإدارات والكليات إن لم تكن قد دمرتها قنابل الحلفاء، كانت لا تزال في أماكنها القديمة قبل الحرب. ومكتب التعليم المركزي كان بالصدفة في المنطقة الروسية، وكذلك كلية التربية. لم يتخذ فرنر إذاً قراراً سياسياً بأن يدرس في الشرقية. فمن أراد آنذاك أن يصير معلماً كان عليه التواجد في الشرقية. ولم ينفذ التقسيم السياسي لبرلين إلا في تشرين الأول/ أكتوبر 1948. ومنذ هذا التاريخ تم فصل الإدارات إلى برلين الشرقية وبرلين الغربية. وفي كلية التربية وجد فرنر سنداً جديداً، تمثل بشكل رئيس بشخص هاينتس فنتسل الذي تعرفه هناك. إنه أكبر من فرنر بقليل ويعمل مدرساً في الكلية. وأثر فيه لعلمه الواسع ولأن لديه عملياً جواباً معقولاً على أي سؤال. "في هذه الأوقات الغامضة تحديداً من الجميل أن تعرف شخصاً لديه هذا الاطلاع الواسع". كتب فرنر على بطاقة وجهها إلى فنتسل في عيد ميلاده. كان فرنر يبحث عمن يوجهه في اتجاه يمكنه السير فيه. وفنتسل كان يبحث عن أشخاص مثل فرنر، قابلين للتشكيل والتكوين حسب متطلبات المستقبل الجديد. فنتسل شيوعي، عضو في الحزب الشيوعي الألماني منذ 1927. لجأ خلال "الرايخ الثالث" إلى التخفي وعاش في مخابيء وألّف كتباً

مدرسية "للزمن القادم"، وهذا يحتاج إلى اطلاع واسع وإلى تفاؤل. في البيت لم يعد من حديث لـفرنر إلا عن فتسل. وأصبح يريد الآن أن يصير شيوعياً، وبدأ بقراءة ماركس وإنغلز. وكما هو الحال عنده تطورت الأمور بسرعة كبيرة. وفي هذه المرة أيضاً لم يكن في وسعه الاحتفاظ بحماسته للموضوع في نفسه، بل على الجميع أن يشاركوا وأن ينصتوا عندما ينطق فرنر بحقائقه الجديدة. بعد أسبوعين من بدئه العمل معاونَ معلمٍ كتب فرنر أول تقرير للإدارة، ذكر فيه أن الصعوبات الرئيسة في عمله هي "انطباعات عالم أفكار النازية التي ما زالت عالقة في أذهان التلاميذ". لذلك من الضروري "توضيح سبب الهزيمة الألمانية للناشئة من التلاميذ وتفسير مفهوم الديمقراطية لهم وممارستها معهم في المدرسة". وعلى المعلم من وجهة النظر هذه أن يكون قدوة. عندما قرأت هذا ذُهلت. ماذا عن عالم أفكاره النازية هو شخصياً؟ هل اختفى هكذا ببساطة؟ هل بات يؤمن الآن أنه لم يوجد أصلاً؟ أم أنه لم يكن يقصد التلاميذ بإرشاداته السلوكية، بل نفسه؟

في أثناء دراسة فرنر كانت (ج.أ.د) قيد الإنشاء، ومع التأسيس بدأ نضال جديد، والآن صار قراره بالبقاء قراراً سياسي الطابع طبعاً. في تموز/ يوليو 1949 صار فرنر مرشحاً لعضوية الحزب الاشتراكي الألماني الموحد. وكتب في موجز سيرة حياته الذي قدمه لقبوله في الحزب: "إن الدراسة في كلية التربية ساعدتني جداً، في التوصل إلى موقفي الطبقي". إن صاحب هذا الكلام هو فرنر آخر، إنه مهتدٍ طازج. وفي البيت علق فرنر الآن العلم الأحمر من النافذة، كما اشترى علمين آخرين لعمه فريتس، الذي عاود مجادلته، لأن المتحول الطازج لم يبدُ لفريتس شيوعياً كفاية. حصل فرنر في امتحان الدبلوم على تقدير "جيد جداً"، وتم توظيفه عام 1950 في مكتب التعليم المركزي بصفة مقرِّراً مشرفاً، مهمته تنظيم العمل السياسي

في المدارس المهنية، وقيل له إن هذا أكثر أهمية من أي درس اختصاصي، إذ يجب كسب الشبيبة لصالح (ج.أ.د) الحديثة العهد. صار فرنر يذهب من مدرسة إلى أخرى ليدعو ويشرح ويقنع، ويكتب تقديرات وتوصيات. المدراء غير الحزبيين استبدلهم برفاق، والمعلمون الذين يثيرون التساؤل سياسياً سرحهم. لقد قلب كل شيء رأساً على عقب، إذ لا بد من بداية جديدة. عمل فرنر حتى الإرهاق، وكثيراً ما كان يمضي الليل في مكتبه كي لا يضيع الوقت. لا بد من الإنجاز بسرعة، فالحرب الباردة على أشدها وقد صارت برلين ساحة المعركة الأهم. أخذ فرنر يشكل مجموعات دعائية، لتذهب إلى برلين الغربية لإقناع الناس هناك أيضاً بالقضية الصحيحة. تمركزت المجموعات عند تقاطعات الطرقات لتوزيع منشورات دعائية. ذات مرة تعرضت إحدى المجموعات لهجوم من مجموعة مضادة في ساحة بولوف أوسعتها ضرباً، فعادوا بكدمات زرقاء وثياب ممزقة إلى الشرقية، مقتنعين أكثر من أي وقت مضى بعدوانية الإمبريالية. في نهايات الأسبوع كان فرنر يتطوع للعمل في إعادة إعمار برلين، فينقل الأحجار ويصب الأساسات ويركب إطارات نوافذ وأبواب. وأنجز وحده عام 1952 أكثر من مئة نصف وردية عمل. أمامي على الطاولة "دفتر الإعمار" الذي يضم ختماً لقاء كل مهمة عمل. وفي الصيف كان يشارك أحياناً في تجريف الأنقاض. قرأت في الدفتر جملة "كل ساعة إعمار تعادل عملاً وطنياً". وتكريماً له، حصل فرنر على وسام الإعمار من الدرجة الثانية. هناك صورة له التقطت في أثناء مسيرة أول أيار/ مايو 1952 وهو يرتدي بذلة مخصورة الجاكيت ويحمل على كتفه علم (ج.أ.د). إنه أطول من جميع المشاركين في المسيرة ويبدو مشعاً داخلياً. إني أتصور كون هذا النمط مرغوباً فيه دائماً. إنه يبث قوة وإرادة. بعد مدة قصيرة رُفع فرنر لمنصب مدير مدرسة الحِرف الخشبية، وبعد نصف سنة رشحته هيئة المدرسة ليحمل لقب

"معلم الشعب الجدير"، وكتب بقية المعلمين في تبريرهم للترشيح: "لدى استلامه إدارة المدرسة وجد الزميل المدير لدى أعضاء الهيئة التدريسية ميلاً لتشكيل مجموعات. ومن خلال سلوكه الحازم والمثابر خلق الزميل المدير البدايات لعمل المعلمين جماعياً. وقد حضرت الهيئة التعليمية بكاملها الحلقة الدراسية بإدارته لدراسة كلاسيكيي الماركسية اللينينية". هذا يعني، أن فرنر لا يدير مدرسة فحسب، بل إنه يُشكِّل الناس أيضاً، مثلما تم تشكيله. إنهم يجلسون في أوقات فراغهم ويقرؤون ماركس. وعلى مدرسته "أن تكون تعبيراً عن المجتمع الجديد"، حسبما كتب في أحد تقاريره إلى مكتب التعليم المركزي. وكان جاداً في ذلك.

في عام 1952، تم تكريم فرنر على نحو خاص، إذ جاءته رسالة من اللجنة المركزية للحزب، كتب فيها الرفاق: "تقديراً لجهودك في بناء نظامنا التعليمي الديموقراطي حصلتَ على مسكن في أول شوارعنا الاشتراكية، في شارع ستالين المشجر. إننا نتمنى لك السعادة ونأمل أن تشعر بالراحة في بيتك الجديد". لقد احتفظ فرنر حتى بإيصال التخصيص السكني. شارع ستالين المشجر، الوحدة ب-جنوباً، الطابق الثالث يميناً. تم تسليم المسكن بمناسبة عيد ميلاد ستالين الثالث والسبعين. فأقيم احتفال في دار الأوبرا، دعي إليه الـ 1148 مستأجراً. ألقى الكلمة فيه فريدريش إيبرت محافظ العاصمة برلين. ونشرت جريدة "ألمانيا الجديدة" لائحة بالأسماء كلها، وجاء في المقال: "هؤلاء هم الناس الذين تحتاجهم جمهوريتنا، نشيطون، مثابرون، مندفعون للعمل". لقد غدا فرنر نوعاً من النموذج للمواطن الاشتراكي.

لدى فرنر إضبارة تضم جميع الشهادات التي حازها خلال سنوات عمله: بمناسبة ترفيعه إلى معلم أول، وإلى مستشار تعليمي، وبمناسبة حصوله على ميدالية بستالوزي البرونزية ثم الفضية لخدماته الصادقة،

ولحصوله على لقب ناشط في العمل الاشتراكي. ياله من صعود! إنه يبرهن لنفسه وللآخرين أن ابن العامل في هذه الدولة الجديدة يستطيع فعلياً أن يحقق إنجازاً كبيراً. بعد كل سنوات الأسر والإذلال والمعاملة كمهزوم، يقف في الصف الأول وقد صار رجلاً محترماً ومهماً. لم يعد في حاجة الآن إلى النظر إلى الوراء، فنظرته متوجهة نحو الأمام.

على صعيد الحياة الشخصية أيضاً، أعاد فرنر تنظيم كل شيء من جديد. ففي تشرين الثاني/ نوفمبر 1951 طلق زيغريد، وتزوج بعد سنة ابنة شرطي تدعى هيلدِغارد، كان يحبها منذ مدة. أنجبا بنتاً اسمها كارولا، رعاها فرنر بكل حب. لقد تراجعت عدوانيته مع زوال التوتر، إذ توصل أخيراً إلى الرضا. وتدريجياً طوى النسيان العائلة القديمة، فلم يعد ثمة مكان في حياته الجديدة لـفولف وريتا وزيغريد. تقول ابنته كارولا، إنه لم يقصد بذلك سوءاً قط، لكنه نحّاهم من ذاكرته، "وهو ماهر في ذلك، في التنحية الواعية". وتصفه بأنه رجل حسن النية، صادق جداً، استوعب الاشتراكية واستبطنها وعاشها، "لم يكن من الممكن مناقشته في بعض مشاكل (ج.أ.د). إنه لم يسمح أساساً بأن تطرق أمامه هكذا مواضيع". لم يسمح لكارولا بأن تلبس الجينز، ومشاهدة التلفزيون الغربي ممنوعة قطعياً. كان يتحدث عن المجتمع الجديد، عن المستقبل العظيم الذي ينتظر الجميع، علماً بأنه، حسب كارولا، لم يكن في واقع الأمر إنساناً سياسياً على نحو خاص. أراد أن ينجز شيئاً ما وأن يساهم مع الآخرين، وأن ينفذ المهمات التي يكلف بها على خير وجه. بالإضافة إلى أنه كان شاكراً لهذه الدولة ما أتاحته له من فرص.

ربما كان فرنر من أولئك الناس القابلين للعمل بنجاح مع أي نظام وفي أي دور. كان سينجح في أي مكان على أفضل ما يرام. إن حظه في الحياة ما كان ليهدده أي خطر، لو ربح هتلر الحرب، أو لو أنه بمحض الصدفة

عاش في الغربية. لا شك في أنه كان سيصبح رساماً مسرحياً جيداً، لو لم يصر مدير مدرسة جيداً، مثلما كان سابقاً سباك نماذج جيداً، وجندياً جيداً، وأسيراً جيداً، ومواطناً جيداً الآن في (ج.أ.د).

16. إغترابات

جاء غرهارد إلى برلين الشرقية في كانون الثاني/ يناير 1952، ولم يكن قدومه بمحض الصدفة، بل بمهمة حزبية سرية، لا يجوز حتى لزوجته أن تعرف عنها شيئاً. وقد حكت لي أمي أنيت قبل سنوات، أن غيرهارد حينذاك كان متورطاً في قصص مخابرات، لم تعرف ما هي بالدقة لأن غرهارد لم يشأ الحديث عنها حتى بعد نهاية (ج.أ.د). وقبل أن أبدأ في تأليف هذا الكتاب، ذهبت إلى غرهارد لأسأله السماح لي بالاطلاع على ملفه المنظم من قبل أمن الدولة في (ج.أ.د). كتبت السؤال على الدفتر الأزرق الموجود على طربيزة الأريكة بجانبه. قرأه وأومأ برأسه إيجاباً. لم يظهر في نظرته إنْ كان قد انزعج أم سُرَّ لنبشي في ماضيه. ترك الأمر يحدث وحسب. وبعد نحو شهرين وجدت هذا الملف الورقي السميك على طاولة مكتبي. مواد بسماكة 200 صفحة. بقيت أقرأ طوال الليل، وفي صباح اليوم التالي صار غرهارد بالنسبة إليّ شخصاً آخر. أعرف أن على المرء أن يكون حذراً تجاه ما يتضمنه هذا الملف، ولكن حتى لو صدق نصف ما ورد فيه، فإن غرهارد حتى في (ج.أ.د) كان رجلاً شجاعاً. صحيح أنه كان مؤمناً بقضيته ومخلصاً لها حتى النهاية، لكنه كان أيضاً متمسكاً بالصدق وناقداً، على النقيض تماماً من المسؤول المتحجر الذي كانه في إطار العائلة. لماذا أخفى حقيقته عنا طوال تلك السنوات؟

حسب ملف أمن الدولة تبدأ حياة غرهارد المزدوجة منذ وجوده في دوسلدورف، حيث أقام مع عائلته بعد الحرب. كان يعمل محرراً في جريدة "الحرية" الناطقة باسم الحزب الشيوعي الألماني، ووصلته في بداية 1950 معلومات عن رجل كان في "الرايخ الثالث" من رجال المخابرات ويعمل الآن لحساب الأمريكان. التقى هذا الرجل بغرهارد وأخبره أنه بعد عودته من الأسر تم تجنيده من قبل الجيش الأمريكي مع آخرين من المخابرات والغستابو بمهمة إنشاء جهاز مخابرات جديد في ألمانيا الغربية. وجد غرهارد الأمر مرعباً وصادماً، وفي الوقت نفسه بالغ الإثارة. وحكى لرئيس التحرير عن الموضوع، فرأى ضرورة إبلاغ قيادة الحزب، ويفضل إبلاغ أمين عام الحزب ماكس رايمّن شخصياً. بعد يومين دعا الأمين العام غرهارد إليه ومدحه بشأن هذه المعلومات المهمة وطلب منه متابعة الاستقصاء، ولكن ليس من أجل مقالة، بل لوكالة أنباء الحزب. منذ تلك اللحظة بات عمله في التحرير غطاء لكونه عميلاً سرياً. يبدو التحول كبيراً، ولكن ربما لم يشعر به غرهارد على هذا النحو، لمعرفته به منذ أيام المقاومة في فرنسا. فتابع ببساطة كالسابق، وبقي اسمه الحركي "باول – بول" على ماهو عليه، كما كان في فرنسا.

استمر غرهارد يلتقي بصورة منتظمة بمخبره، الذي كان ينقل إليه تفاصيل خطوات بناء جهاز مخابرات الغربية، ويتلقى مالاً من غرهارد لقاء ذلك. بعد شهرين صار غرهارد "مديراً" في وكالة أنباء الحزب، أي أنه بات يدير شبكة من المخبرين، الذين يتعاونون منذ مدة مع الوكالة. والمخبرون بدون استثناء هم من الأمن العسكري النازي سابقاً، وقد توظفوا في العمل السياسي والإداري في ألمانيا الغربية، ويتعرضون للابتزاز من قبل وكالة أنباء الحزب الشيوعي الألماني. إنهم يقدمون معلومات سرية للحزب لقاء عدم كشف حقيقتهم من قبل الرفاق. هذه هي الصفقة.

أحد المخبرين يدعى أوغوست موريتس وهو سابقاً قائد كتيبة ضمن قوات "إس إس" وكان في فرنسا خلال الحرب مسؤولاً عن وحدات الغستابو أيضاً في أورليان ومرسيليا. ورد ذكره في ملف غرهارد بصفة "مُقطِّر الحبوب". إنه مطلوب كمجرم حرب ويعيش بهوية مزورة في دوسلدورف. وفي عام 1954 حكمت عليه محكمة مرسيليا العسكرية بالموت بتهمة تعذيب المدنيين والفدائيين الفرنسيين حتى الموت، والمشاركة في تنظيم ترحيل اليهود. مهمته في شبكة غرهارد هي التعرف على رجال الأمن النازيين وتجنيدهم لصالح الوكالة.

عندما قرأت هذا لأول مرة لم أستطع أن أصدق مطلقاً. هل عمل غرهارد مع مثل هؤلاء؟ مع رجل قتل فدائيين ويهوداً، وكان يمكن أن يقتل غرهارد أيضاً لو وقع بين يديه في فرنسا؟ كيف استطاع غرهارد العيش وهو يحمي مثل هذا الرجل؟ وفكرت، أيمكن لإنسان أن يمتلك هذا القدر من الانضباط والسيطرة على النفس؟ حتى ماركوس فولف رئيس وكالة الأنباء السياسية الخارجية، الذي تولى 1951 إدارة عملاء الحزب الشيوعي الألماني، يكتب أن العمل مع أوغوست موريتس "ما كان يجوز إسناده إلى غرهارد". ولكن ليس في الملف ما يشير إلى وجود مشاكل في العمل بين "المدير باول" و"مقطر الحبوب". وثمة تقرير يثني فيه غرهارد على العمل مع موريتس وينصح بمتابعة العمل معه: "الأخبار صحيحة، التطورات الموصوفة مسبقاً تحققت. يمكننا أن نستخلص من ذلك نتائج سياسية مهمة لنضالنا من أجل السلام ووحدة ألمانيا". كان في إمكان غرهارد على ما يبدو أن يفصل بين العمل والمشاعر. ولكن كم عانى يا ترى العميل باول والإنسان غرهارد أحدهما تجاه الآخر؟ أخذت شبكة باول تنمو باستمرار. صار لديه الآن سكرتيرة ومراسلان ينقلان تقاريره إلى برلين الشرقية. في 1952 نُقل مخبر غرهارد لدى المخابرات الألمانية الغربية إلى

برلين، فقرر الحزب أن يرافقه غرهارد. وهذا هو السبب في عدم رجوع العائلة من الإجازة الشتوية في أويرهوف إلى دوسلدورف، وفي تغير اسم العائلة فجأة إلى أوزفالد. لقد احتاج غرهارد إلى الاسم الجديد لاعتقاد الرفاق بأن الأمريكان كشفوا تخفيه. بعد ثلاثة أشهر على انتقال غرهارد كشفت إدارة مكافحة الجاسوسية الألمانية الاتحادية "شبكة - مُقطِر الحبوب"، وتم اعتقال أوغوست موريتس وأربعة من زملائه في قوات "إس إس" سابقاً، ليمثلوا في كانون الأول/ ديسمبر1953 أمام المحكمة في أول محاكمة خيانة عظمى في المانيا الاتحادية وحُكم عليهم بالسجن عدة سنوات.

بعد بضعة أسابيع فقط على وصول غرهارد إلى برلين الشرقية، بدأ ماركوس فولف رئيس شعبة الجاسوسية بالتدقيق في عمل شبكات وكالة أنباء الحزب السابقة، وتم تصنيف الجهاز بأكمله باعتباره "مخاطرة أمنية". بناء على ذلك، نصح فولف "بتطهير وكالة الأنباء وحلها"، وقد ورد في تقرير "بالغ السرية": "في جهاز الأنباء القديم كله كان العمل الجاسوسي واختيار المتعاونين والمصادر مهلهلاً وسيئ التنظيم، بحيث كان العدو مطلعاً على عمل الجهاز كله واستغله لتضليل قيادة حزبنا (...) خاصة وأنه من غير المؤكد بعد، إلى أي مدى نجح العدو، بناء على المعلومات المتوفرة لديه، في تجنيد عملائنا السابقين لصالحه، وبناء على الإهمال المكتشف في الجهاز، إلى أي مدى تصل الإساءات المتعمدة. فيما يتعلق ببعض المتعاونين السابقين، فإن المواد والوثائق المتوفرة واسعة جداً وجسيمة، وإن كانت لا تبلغ درجة الدليل الدامغ حسب قانون العقوبات".

هناك اليوم بعض من يقولون، إن ماركوس فولف قد حل وكالة أنباء الحزب ليتخلص من منافسة مزعجة، وفي الوقت نفسه ليكسب بعض المصادر المهمة في الغربية. لقد تم اختبار جميع المتعاونين مع وكالة

الأنباء. كثير منهم انتهوا في السجن كـ"خونة"، لأنهم كانوا يعرفون الكثير، أو لأنهم لسبب آخر صاروا خطيرين. وفي محضر اجتماع مباحثات لقسم التوعية في قيادة أمن الدولة في 9/ 8/ 1952، ورد التالي: "بشأن المدير باول، يجب تحضير مذكرة في موعد أقصاه 15/ 9/ 1952 للتمكن من اتخاذ قرار حول ما إذا كان سيُعفى من مهمته أم سيعتقل". الأرجح أن غرهارد لم يدرِ إطلاقاً بمدى الخطر الذي كان معرضاً له حينذاك.

في 18/ 9/ 1952، قدم ماركوس فولف تقريراً عن غرهارد، قال فيه: "إن ماضي باول يحتاج إلى تدقيق جذري. إذا ترك الإنسان إمكانية الإساءة المتعمدة من قِبله معلقة، فلا بد على أية حال من التأكيد على أنه ينقصه الأساس الماركسي الراسخ، وعلى أنه لم تسنح له الفرصة قط لامتلاك وعي طبقي حقيقي، وعلى أنه نموذج مثقف بنقاط ضعف برجوازية عديدة. ولهذا فإنه، على الرغم من ذكائه، لم يكن قادراً على إنجاز عمل مدير مؤهل. (...) في فرنسا كانت له صلات مع هربرت موللر، الذي ارتد لاحقاً، ومع الخائن فرنر شفارتسِه وغيرهما. إن عرض باول لمشاركته في حركة المقاومة الفرنسية رومانسي ومغامراتي. (...) وفيما يتعلق بـباول، لا بد إضافة إلى ذلك من أخذ بعين الاعتبار، أنه بالنظر إلى علاقاته العائلية، يمتلك عدداً كبيراً من المعارف داخل البلد وخارجها، ومنها خاصة عناصر تروتسكية. ولا بد هنا من عدم نسيان أصله اليهودي. ومن المؤكد أن عمل باول معروف من قبل العدو".

كان يمكن لهذا التقرير أن يرمي غرهارد في السجن. شبه الإساءة المتعمدة، عدم امتلاكه وعي طبقي حقيقي، نقاط ضعف برجوازية، صلات مع خونة ومرتدين وتروتسكيين ومن أصل يهودي؛ لِتُهمٍ أقل جسامة من هذه طُرد غيره من الحزب واعتقل ورُحّل إلى سيبيريا. "التطهيرات" في الحزب كانت في تلك الآونة على قدم وساق. ثمة

لجان تبحث عن "أعداء" و"عملاء للغرب". في مطلع الخمسينيات فصل من الحزب الاشتراكي الألماني الموحد نحو 150000 "تحريفي"، معظمهم اشتراكيون ديمقراطيون سابقون. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 1952، قُدّم رودولف سلانسكي، الأمين العام السابق للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي لمحاكمة صورية أعدم على أثرها. وفي (ج.أ.د) أيضاً ارتفعت وتيرة هستيريا التهديدات ثانية وبصورة جلية. فتم تحضير المحاكمات واعتقل أعضاء في اللجنة المركزية وفي المكتب السياسي. وحتى رجال مثل فرانتس دالم، الرجل الثاني في (ج.أ.د) حتى 1952، أو فيلهلم تسايسر وزير أمن الدولة، عُزلوا من مناصبهم بتهمة "تحريضات ضد الثورة" و"العمالة للإمبريالية". وأويغن، أقرب الرفاق في المقاومة إلى غرهارد، واسمه الحقيقي فرنر شفارتسه، تعرض للاشتباه بخيانته. في تلك السنوات لم يكن أحد آمناً، إذ يمكن لأي كان بين ليلة وضحاها أن يُتّهم بالخيانة، فقد هيمن الشك والارتياب.

إن عدم ثقة الحكام الجدد حتى بأشد الرفاق إخلاصاً كان مرتبطاً على الأرجح بتاريخهم الشخصي. فأناس مثل فالتر أولبريشت وماركوس فولف لم يثقوا بأحد، إن وثقوا، إلا بمن كان معهم في المنفى في موسكو وخاض التجارب نفسها مثلهم. أما الآخرون الذين كانوا في المنافي الغربية والذين ينحدرون من عائلات برجوازية أو يهودية، الذين صاروا خلال الحرب شيوعيين، فقد كانوا موضع شك. أناس مثل أولبريشت وفولف كانوا قد تعلموا في الاتحاد السوفيتي كيفية عمل الإرهاب الستاليني، كيف يجعل الشعب مطواعاً ومنقاداً. على المرء أن يتصور كيف كان شعورهم بعد الحرب، عندما عادوا من موسكو إلى الوطن. إنهم لم ينسوا قط أن هؤلاء الناس الذين يحكمونهم الآن هم أنفسهم الذين سبق أن طردوهم من ألمانيا. فكان واضحاً بالنسبة إليهم أن هذا الشعب لا يُحكم إلا بالقسوة

وبأعلى درجات الرقابة. إن جهاز أمن الدولة ودولة الوشاة والمجتمع المنظم عسكرياً بكاحله ليسوا سوى نتائج لعدم الثقة المتأصل تجاه شعبهم.

من المستغرب أن غرهارد لم يواجه مشكلات كبيرة. صحيح أنه منع عن العمل في المخابرات، لكنه عاد إلى العمل الصحفي في وكالة الأخبار الألمانية العامة رئيساً لقسم قضايا عموم ألمانيا، ولكن تحت الرقابة الدائمة لأمن الدولة. في تقرير للفرع الرئيس الخامس بتاريخ 4/ 11/ 1954 ورد: ليو يناقش بصورة سلبية في وكالة الأخبار إجراءات اللجنة المركزية للحزب، ويطالب بـ"حرية صحفية" في (ج.أ.د). ليو عنصر متقلب. كلفنا العميلة "إلـفيرا" لأنها على صلة مهنية مع ليو بالعمل على تقويمه، والكشف عن صلاته لنتمكن من طرفنا من اتخاذ إجراءات عملياتية أخرى. وفي خاتمة التقرير وردت الملاحظة التالية: "ليو كان مهاجراً في الغرب وهو يهودي". للمرة الثانية ترد ملاحظة بشأن أصله اليهودي. وفي كل مرة أرتجف رعباً.

مالكة البيت الذي يشغله غرهارد في فريريكس هاغن سُئلت عنه من قبل أمن الدولة، كما طُلب من زملائه بحجج مختلفة إبداء رأيهم فيه. في حزيران/ يونيو 1955 كتب الرائد كينبرغ من أمن الدولة: "من محيطه الشخصي لم نتوصل إلى ما يثير الشبهات. في وقت مبكر غالباً صباحاً تقله السيارة إلى عمله ليعود إلى بيته ليلاً. وقت الفراغ يكرسه لعائلته. منزله مؤثث بصورة جيدة ولكن ليس على أحدث طراز، بل بذوق برجوازي متوسط. وعن طريق عدد من مختلف العاملين في قسمه عرفنا أنه لا يمارس نشاطات اجتماعية. على صعيد الفرقة الحزبية والقيادة المركزية للحزب أجريت عدة نقاشات مع ليو، تبين منها أنه يشعر باغتراب عن الحزب. هناك من طرف إدارة وكالة الأخبار تفكير في إعفاء ليو من منصبه، وثمة تفكير مماثل على مستوى الحزب".

عنصر متقلب، مغترب عن الحزب. في تقرير يعود إلى شباط/ فبراير

1956 يطالب الرائد كينبرغ "بتوسيع الإجراءات العملياتية". وعلى أعلى يسار الصفحة كُتب بحبر أسود: "البعض يرى غير ذلك. لتوقيف الإجراءات فوراً". التوقيع غير قابل للقراءة. منذ ذلك اليوم أوقفت مراقبة غرهارد، ولم تعد هناك تقارير عنه من أشخاص على صلة به ومكلفين بذلك. من الذي بسط حمايته عليه يا ترى؟ لا بد من أن يكون ذا نفوذ كبير، لأن الإدارة أيضاً تراجعت عن نيتها بإعفائه من مهامه، كما أن الحزب أيضاً لم يعد يجد مبرراً لمعاقبته. سبع كلمات بالحبر الأسود كانت كافية لتوقيف حركة الآلات.

ألم يشعر غرهارد بتضيق الحبل حول رقبته؟ هل علم بالاتهامات الموجهة ضده، وبالعفو عنه؟ الأرجح أنه لم يدرِ شيئاً من كل ذلك. فهذا هو التفسير الوحيد لاستمراره في الكلام بحرية وعلناً. مثلاً، في 17/ 9/ 1956، في مقهى الصحافة في برلين مع زميلي عمل، أحدهما عميل سري لأمن الدولة وقد أخبر الرائد كينبرغ بالحوار الذي جرى، فكتب كينبرغ في تقريره: "صرح ليو بأنه من الضروري جمع تواقيع كما في هنغاريا للوصول إلى تغيير في قيادة الحزب. ولما سأله العميل السري عن البدلاء الجدد الذين في ذهنه، أجاب ليو متفادياً المباشرة بقوله: هناك ما يكفي منهم".

من الواضح أن غرهارد لم يكن معتاداً على الشك في جماعته. فهو لم يعرف ذلك. في فرنسا كان الرفاق من النوع الذي يُعتمد عليه في أي حال، وقد وضع حياته بين أيديهم، لأن هدف الجميع هو الانتصار على النازية، وفي دوسلدورف كان العدو هم الأمريكان. أما هنا في برلين فالنضالات مختلفة تماماً. لم يعد هناك فدائيون بل مسؤولون في مناصبهم، هنا يقضي الرفاق بعضهم على بعض. ثمة مصائد سلطة غير مرئية ودسائس وحملات قذرة. في واقع الأمر يستحيل أن يجهل غرهارد بكل هذا، وألا يكون قد أحس بالخوف المهيمن في كل مكان.

وغرهارد؟ لقد سافر في آب/ أغسطس 1956 في رحلة عمل إلى

المجر والتقى هناك مساء بأناس من حلقة بِتوفي، وهي حلقة حوار مشكّلة من أدباء شباب ساهمت بشكل كبير في التحضير لانتفاضة الشعب التي انفجرت بعد شهرين. علم جهاز أمن الدولة باتصال غرهارد بالعدو. ثمة عدد من المخبرين غير الرسميين كتبوا تقارير عن الأمسية في بودابست. ورد في محضر بتاريخ 6/12/1956: "في فترة إقامته في المجر قام بالاتصال بحلقة "بتوفي" وشارك في مناقشات سياسية في نادي بتوفي. قدم ليو نفسه هناك وحيّى الجدل السياسي. وعندما هاجم أحد المناقشين سياسة الحكومة المجرية بشدة، شكره ليو لنقاشه واعتبر موقفه محقاً". وهناك ملاحظة في الملف وقعها الملازم أول رويتر عن اجتماع حزبي في وكالة الأخبار الألمانية انعقد بعد أسبوعين من أحداث بودابست: "لقد صرح ليو علناً بأن أحداث المجر 1956 المضادة للثورة لم تصدر من عدو، بل نتيجة مناقشات داخل حزب العمال الهنغاري. وبهذا فإنه يخرج بوضوح وعن وعي عن خط الحزب (ح.إ.أ.م)، ولكن يبدو أنه لا يأبه للأمر".

هل كان غرهارد شجاعاً على نحو خاص أم ساذجاً على نحو خاص، أم كليهما معاً؟ هل كان يعرف أن هناك من يحميه، فسمح لنفسه بأكثر من غالبية الآخرين؟ أم كان هذا السلوك بالنسبة إليه طبيعياً؟ هل بنى أمن الدولة عن وعي صورة عدو غير موجود بهذا الشكل مطلقاً؟ هل صنفه عنده كمرتد، ليتمكن لاحقاً من عقابه ببساطة؟ أنا لا أعرف وأظنني لن أعرف مطلقاً. لكنني أحس عند قراءتي هذه التقارير والتقويمات بفخر ما بجدي. كنت دائماً أسأل نفسي، لماذا كان في فرنسا على تلك الدرجة من الشجاعة، ثم لم يجرؤ لاحقاً في الشرقية على فتح فمه. الآن بت أعرف، أنه لم يكن على الأقل من أولئك الذين شاركوا ببساطة في كل شيء، أنه قاوم عندما صارت الأكاذيب والسخافات جلية. ولكن لماذا لم يسمح لعائلته

بأن تعلم بما يجري، لماذا أدى في البيت دور الرفيق المثالي؟ لماذا لم يسمح لأولاده بالشكوك التي كانت لديه؟ لربما خشي أن يبدي ضعفاً. فقد علموه أن يحافظ على رباطة جأشه دائماً. والنقد، إن وُجِد، ففي إطار الحزب فقط، كي لا يقدم خدمة للعدو. لقد مر غرهارد بوقتٍ وثق فيه بالحزب أكثر من أولاده.

ولا أظنه بقي على سذاجته السياسية بعد أن فهم كيف تؤدي الفكرة الكبيرة عملها في (ج.أ.د) الصغيرة. هناك في ملفات أمن الدولة محضر لنقاش حزبي أجري مع غرهارد، لا يوجد عليه تاريخ، ولكن بما أنه يتعلق بأحداث بولندا وهنغاريا، فأرجح أنه يعود إلى 1956. يتهم الرفاق غرهارد بأنه لم يسلك سلوكاً حزبياً كفاية، بل شكل رأياً خاصاً به، في حين كان عليه أن يمثل موقف الحزب. وحسب المحضر أجاب غرهارد: "إني موافق على أنه في المواقف الحرجة لا يوجد في العمل سوى الانضباط. أي أن على الإنسان في العمل أن ينفذ مسألة ما، على الرغم من كونه في ذلك الوقت غير مقتنع بها، أو كما قال الرفيق مولر ذات مرة في موقف محرج بالنسبة إليّ، إن على المرء أن يطيع. ولكن لدى المرء الحزب ليخبره في الختام بهمومه وبما يضغط عليه". تُرى هل ليَّنوه، أم أنه كان يفكر بهذا الشكل حقاً؟ يطيع، وينفذ أموراً لا يؤمن بها قطعاً. أكان هذا ما ناضل من أجله؟ من أجل حزب يكذب، من أجل دولة تضطهد؟ كيف تعامل مع هذا، مع هذا الضيق وهذه الريبة؟ لماذا شارك الجميع تقريباً في هذه اللعبة، أولئك المناضلون الشجعان الذين عادوا بعد الحرب إلى (ج.أ.د)؟

ذات يوم تحاورت مع غرهارد حول هذا الموضوع. لم يكن في الواقع حواراً، بل مقابلة أجريناها بعد سنوات على سقوط الجدار لصالح مجلة فرنسية. كان موضوعها الأجداد والأحفاد في (ج.أ.د). في هذه المقابلة تحدث غرهارد لأول مرة عن الذنب وشرح أسباب تمسك أناس مثله

بهذا البلد. تحدث عن الأمل الذي كان يحمله بعد الحرب. عن أمل بناء مجتمع جديد لن يكون فيه أي فرصة للنازيين مجدداً. لقد رأى أن مجرمي الحرب في الغربية يشغلون مناصب حكومية، وأن سفاحي جموع المدنيين يتقاضون رواتب تقاعدية عالية. مثل هذه الأمور لم تحدث في (ج.أ.د)، قال غرهارد. وهذا أهم في رأيه من جميع الأمور الأخرى. لقد جعله أمله يتحمل أشياء كثيرة لا تحتمل في الواقع. وهذا هو ثمن الجديد، وهذه كانت التضحيات الضرورية، وفي نهاية المطاف كانت القضية دائماً أكثر أهمية من الفرد، هذا ما كان يقوله لنفسه دائماً.

لا بد أن الأمر كان مثل صلاة بصوت عال، مثل إقناع ذاتي مستمر. أما كان نضاله كله سيضيع بلا جدوى لو توقف فجأة عن المشاركة؟ لأن (ج.أ.د) هذه هي نتيجة لهذا النضال، هي المكافأة، هي مغزى الحياة. ما كان في مقدوره أن ينسحب دون أن يخسر نفسه. كانت هذه بلدي. قال في هذه المقابلة، وكان لقوله وقع حزين، ولكن مع شيء من الاعتزاز. وأنا فكرت في أنها لهذا السبب لا يمكن أن تكون بلدي. لكني لم أقل شيئاً. ثم عاد كل شيء إلى ما كان عليه.

أنا أعتقد أن (ج.أ.د) كانت لكلا جديَّ نوعاً من بلد الحلم، يمكنهما فيه نسيان كل ما هو مدعاة للحزن والغم، لكل ما حدث حتى الآن. كانت بداية جديدة، فرصة للبدء من الصفر. الملاحقة، الحرب، الأسر، كل الأمور المريعة، التي مر بها غرهارد وفرنر، كان يمكن دفنها تحت كومة الماضي الهائلة. ومن ثم لا اعتبار إلا للمستقبل، ومن الكابوس ولد الحلم. إن فكرة بناء دولة مناهضة للفاشية كانت لكليهما مريحة ومفيدة علاجياً. فكان في إمكان غرهارد الاستسلام لوهم أن مواطني (ج.أ.د) هم ألمان مختلفون عن أولئك الذين طردوا عائلته في الماضي إلى خارج البلد. وكان في إمكان فرنر أن يزعم أنه كان دائماً مؤمناً بالاشتراكية. لقد

نُسيت جميع الجراح والأخطاء وعُفي عنها، في حال كان الإنسان مستعداً لأن يصير جزءاً من هذا المجتمع الجديد.

إيمان جديد مقابل أغنية قديمة، هذه كانت صفقة تأسيس (ج.أ.د).

هكذا نتوصل لتفسير الإخلاص الجامح الذي بقي يربط غرهارد وفرنر بهذا البلد حتى النهاية المريرة. ما كان في مقدورهما كشف الستر عن الحلم الكبير باعتباره الكذبة الكبيرة، لأن هذا سيؤدي إلى انكشاف كذبتي حياتيهما.

وماذا عن أولادهما؟ لقد جرى رميهم داخل بلد حلم أبويهما واضطروا إلى الحلم معهما، شاؤوا أم أبوا. لم يكونوا يعرفون صفقة التأسيس. ولأنهم ليس لديهم ما يتغلبون عليه أو يخفونه، وجدوا الإيمان ثقيلاً. رأوا الفقر والكذب والضيق وفقدان الثقة. وسمعوا شعارات الآباء التي تتغنى بالمستقبل، فتلاشى قسم كبير من نشوة الفرح. وماذا عن الأحفاد؟ لقد شعروا بالفرح عندما انتهى كل شيء، دون أن يشعروا حتى بتأنيب الضمير لرفسهم هذه الدولة على مؤخرتها. ما الذي وصلني أنا من الحلم الكبير؟ ممنوعات ضيقة الأفق، مبادىء محرجة وبناطيل جينز بدت مثل استطالات لقمصان منظمة الشبيبة. خلال ثلاثة أجيال استُهلكت طاقة هذه الدولة. لقد بقيت (ج.أ.د) بلد كبار السن، الآباء المؤسسين، أما منطقهم فلم يعد له معنى عند أحد.

17. اصطدامات

عندما كنت في السادسة من عمري وقع التماس الأول بيني وبين الأمن. ما وقع كان في الواقع اصطداماً. كنت راجعاً من اللعب مع أحد رفاقي، وعبرت الشارع ركضاً، ففاجأتني سيارة. حكى لي فولف لاحقاً أن لوحة رقم السيارة، بسبب الاصطدام بي، سقطت أرضاً وظهرت تحتها لوحة أخرى. كان الأمر مزعجاً جداً بالنسبة إلى السائق، ليس لأنه دهس طفلاً وحسب، بل لاضطراره إلى أن يشرح لشرطي المرور وللشاهد على الحادث، ضرورة وجود سيارات في (ج.أ.د) بلوحتين مختلفتين. قال فولف إن سائق أمن الدولة الزفت كان يسوق بسرعة بالغة. حينذاك لم أعرف معنى "شتازي"[1]، لكنني أستطيع التأكيد على أن علاقتي به منذ البداية لم تكن جيدة.

نُقلت إلى مستشفى الحوادث في حي برنتسلاوربرغ، وأجريت لي عملية جراحية لأن طحالي أصيب بتمزق. قضيت ستة أسابيع في غرفة في الطابق الأرضي لنوافذها قضبان معدنية، لكن هذا لاعلاقة له بأمن الدولة. لم يُسمح لأبوي بزيارتي إلا مرة أسبوعياً، كي لا أنفعل جداً، حسب قول الأطباء. لكن فولف كان يأتي عدة مرات، فيتسلق على قضبان

(1) وزارة أمن الدولة في ألمانيا الشرقية.

النافذة ويلوح لي بيده من الخارج. لم أعد أذكر الآن، ما إن كان ذاك أمراً ساراً أم محزناً، أو إن تسبب بانفعالي. إلا أن صورة أبي وراء قضبان النافذة بقيت عالقة في ذاكرتي. إنها من أقدم ذكرياتي إجمالاً. عندما كنت أحكي للغربيين بعد سقوط الجدار عن (ج.أ.د) كانت صورة القضبان تقفز دائماً إلى ذاكرتي. وقد أحب الغربيون هذه الحكاية، لأنها تتطابق مع تصوراتهم عن (ج.أ.د)، طفل دهسته سيارة شتازي فعُزل عن عائلته في غرفة لنافذتها قضبان.

أتذكر الكثير من أحداث طفولتي، التي لم أفهم معناها إلا لاحقاً. كان هناك مثلاً شارع في فاندليتس محظور على السيارات عبوره، لذلك كنا نستخدمه لسباقات دراجاتنا بأيدٍ حرة. الشارع يعبر غابة من شجر الزان ويؤدي إلى بحيرة ليبنيتس. وكان في الغابة جدار مطلي بالأخضر، علقت عليه يافطات تقول: "منطقة أبحاث حيوانات برية". وفولف كان يقول إن هناك وراء الجدار تعيش حيوانات ضخمة وخطيرة. خطرت في بالي أسود وتنانين، وكنت دائماً أشعر بشيء من الخوف كلما مررنا بجانب الجدار إلى بحيرة ليبنيتس. لم أكن واثقاً من أن ارتفاع الجدار كاف لحمايتنا من الوحوش. وفي وقت ما شرح لي فولف أن الوحوش الكبيرة ما هي إلا الرجال الذين يحكمون هذا البلد، وجدار الغابة موجود لحمايتهم منا. فسألته عمن يمكن أن يخشانا، فأجاب إن الرجال الذين يعيشون في هذه الغابة يخشون كل شيء. توجد على بحيرة ليبنيتس شبه جزيرة لا يجوز لأحد دخولها، لأن إريش هونيكرفقط يسبح هناك، هذا ما سمعناه. منطقة سباحتنا لم تبعد كثيراً عن شبه الجزيرة تلك. كان بودي أن أرى إريش هونيكر بلباس السباحة، لكنه لم يظهر هناك مطلقاً، واللسان الخشبي كان دائماً خاوياً تحت الشمس. ربما لم يجد هونيكر وقت فراغ ليسبح، إذ عليه طوال الوقت مراقبة أن كل شيء في بلدنا يسير على ما يرام. وقد شعرت

بالأسف لهونيكر، لأن مكان السباحة كان جميلاً حقاً. وذات مرة سبح اثنان من فتياننا إلى شبه الجزيرة راغبين في الوصول إلى اللسان الخشبي. ولكن قبل وصولهم إلى الضفة ظهر هناك جنود بمسدسات رشاشة وصاحوا بهم ليعودوا من حيث أتوا، لأن شبه الجزيرة منطقة محظورة.

وجدت أن المناطق المحظورة مدعاة للإثارة. كان هناك واحدة منها على بحر البلطيق. كنا في عطلة آيار/ مايو نسافر غالباً إلى بريروف، حيث يوجد مكان للتخييم على رمال الشاطىء، وشاطىء العراة الذي يتردد فولف وأنيت عليه كان مسوراً بأسلاك شائكة، ووراءه تبدأ المنطقة الحدودية. ومرةً حين كان الطقس رديئاً، حفرت مع صديقين حفرة عميقة في رمل الشاطىء غير بعيد من الأسلاك الشائكة. في النهاية صارت الحفرة أعلى من قاماتنا، فاحتجنا إلى سلم من الحبال لتسلق الجدار والخروج. في اليوم التالي حدثت ضجة كبيرة، وجدنا الجنود مع كلابهم البوليسية متحلقين حول الحفرة ويريدون أن يعرفوا من حفرها. صديقاي وأنا لم نفتح أفواهنا بكلمة، ثم قام الجنود بردم الحفرة بمجاريفهم. حتى فولف نفسه كان منفعلاً، وقال إن حُفرَنا القادمة يجب تبتعد ما أمكن عن الأسوار، كي لا يخطر في بال الجنود أننا ننوي الهروب إلى الغربية.

الهروب إلى الغربية. كانت هذه أحب الألعاب إلى قلبي. تحتاج اللعبة كحد أدنى إلى أربعة لاعبين. ثلاثة أولاد يقفون صفاً أمام عوارض تسلق في ملعب أطفال ويمثلون حرس الحدود، وعلى الرابع أن يحاول اختراق صفهم وتسلق العوارض لتجاوز الحدود. إذا نجح عليه أن يصيح من الجانب الآخر: «الغرب». ومرة كنا مع تلاميذ صفنا عند بوابة براندنبورغ وكنت في الثامنة من عمري. أرادت المعلمة أن ترينا "جدار الحماية"، وبينما هي تتكلم عن النضال الاشتراكي من أجل السلام، فكرت ورفاقي في أفضل الطرق للعبور من فوقه. أحدهم اقترح بسيارة رافعة، واقترح

الثاني طائرة شراعية. في اليوم التالي وفي درس الثقافة الوطنية كتبنا موضوعاً حول "لماذا يجب الدفاع عن حدود الدولة". أمي، أنيت، ما زالت تحتفظ بمصنفي الخاص بدروس الثقافة الوطنية، وها هو أمامي بصفحاته المسطرة والسؤال المطبوع. كتبت آنذاك: "كي لا يهرب الجميع، ولأن الفاشيين موجودون هناك". حصلت حينها فقط على علامة 3، أي مقبول فقط. والجواب الصحيح مكتوب بالحبر الأحمر بجانب العلامة "لتوطيد السلام".

عندما أقلب صفحات المصنف اليوم تستيقظ ذاكرتي فوراً. رائحة جلد حقيبتي المدرسية، تصفيفة شعر معلمة الصف السيدة بانكراتس، صوت المدير غريبيش في مكبر الصوت عند تحية العلم، أول هوية للطلائع أحصل عليها، ووجه بيغي سادزينسكي التي تجلس أمامي بمقعدين. أجد أوراق أشجار مجففة، ورقة ملاحظات تتضمن أهم سمات الخنزير المنزلي، صور زيغموند ين وفالري بيكوفسكي اللذين عادا من رحلة في الفضاء الخارجي، ومهمتي الطلائعية التي أتعهد فيها بحضور أسبوع التضامن الاشتراكي وبألا أبصق بعد الآن في وجه زميلتي نيتيه راينل. هناك صفحة بعنوان "ماذا حققنا منذ تأسيس (ج.أ.د)" يتلوه تعداد على شكل لائحة: "كل شيء ملك للدولة، والدولة هي نحن. لكل إنسان حق المشاركة في التقرير. حياة جيدة وممتازة. توفير أماكن العمل. الرأسماليون والمحرضون على الحرب أصابهم الوهن. المزيد من الإعمار السكني، يوم السبت عطلة".

هناك لوائح أخرى في هذا المصنف، تبين سوء حال العمال سابقاً وجودة أوضاعهم حالياً، وكم كانت ظروف حياة الناس مريعة في روسيا قبل ثورة أكتوبر وكم صارت فردوسية بعدها. كنت أحفظ هذا كله عن ظهر قلب قبل المذاكرة في الصف ثم أنساه من جديد، مثلما نسيت أهم سمات

الخنزير المنزلي وأشكال أوراق أهم عشرة أشجار. في سنوات المدرسة اللاحقة تلقينا الكثير من اللوائح المشابهة والمختلفة. العناصر الثلاثة المحددة للحالة الثورية، عشرة أسباب لتفوق الاشتراكية، النقاط الخمس الأكثر أهمية في البرنامج الأول لـ"ح.إ.أ.م[1]". معلمون ضجرون كتبوا هذه اللوائح على السبورة، وتلاميذ ضجرون كتبوها في دفاترهم، وآباء ضجرون وقعوا على أوراق المذاكرات. كانت هذه هي الاشتراكية التي وصلتني. كلام فارغ في لوائح.

في أثناء الاستراحات بين الدروس، كنا نتبادل بوسترات برافو الغربية ولواصق دوبلو الغربية ونتحدث عن آخر حلقات مسلسل "دخان المسدسات" الأمريكي. لا أظن أن أحداً منا قد فكر في كيفية انسجام هذا كله معاً. المسلسلات التلفزيونية الأمريكية وبوسترات برافو الألمانية الغربية مع تفوق الاشتراكية. بطريقة ما كان واضحاً لنا أن هناك حقيقة المدرسة وحقيقة الحياة الفعلية. وما علينا سوى أن نقلب من واحدة لأخرى مثل قنوات التلفزيون.

بعد مدة قصيرة انتقلنا إلى حي كارلزهورست، حيث الجو أهدأ وأكثر خضرة من برنتسلاوربرغ. سكنا في دار من طابقين مع حديقة صغيرة. في الطابق الثاني تقيم السيدة كايزر مالكة الدار. لم يكن عليَّ للوصول إلى المدرسة سوى عبور الشارع، وهذا كان أمراً مهماً لوالديَّ منذ الحادث. في المدرسة الجديدة هناك اجتماع عام مرة شهرياً لتحية العلم، وقبل البدء بقليل كنا نلبس قمصان الشبيبة، لنخلعها مع آخر إيقاعات نشيد الجمهورية. لم يكن الأمر احتجاجاً، وإنما لم يكن من المحبب لنا إطلاقاً أن نبقى بقمصان الشبيبة الزرقاء.

---

(1) الحزب الاشتراكي الألماني الموحد.

ما زلت أذكر مدى دهشة جدي غرهارد عندما حكيت له مرة عن حياتي المدرسية. وكانت مناسبة فتح الموضوع هي رؤيته لكيس النايلون الغربي الذي كنت أخبيء فيه قميص الشبيبة داخل حقيبة المدرسة. فحكى لي غرهارد عن أيامه آنذاك مع الصقور الحمراء. كانوا يرتدون أيضاً قمصاناً زرقاء، وجدها رائعة لا سيما عند الانطلاق مع الآخرين إلى الاجتماع، حيث يشعر المرء بنفسه في بحر أزرق محاطاً بمن يحملون أفكارك نفسها. أعجبتني صورة البحر الأزرق، لكنني كنت أعرف أن اجتماعات من هذا القبيل ستشعرني بالخوف أكثر من الطمأنينة.

ذات يوم من تشرين الثاني/ نوفمبر 1982، اندفعت مديرة المدرسة السيدة رايشنباخ إلى قاعة تبديل الثياب، وقد أنهينا لتونا درس الرياضة. كانت عيناها تدمعان وقالت: "لقد وقع أمر بالغ السوء، الأمين العام السوفييتي ليونيد بريجنيف قد مات". حل صمت للحظات ثم اضطررنا إلى أن نقهقه بسخافة، لأن زميلنا كاي بتسولد كان وراءها عارياً ويبحث يائساً عن سرواله الداخلي. لم تفهم السيدة رايشنباخ ما جرى، بل سمعت ضحكنا السخيف فقط وغادرت القاعة غاضبة جداً. في الساعة التالية كان يفترض أن نتلقى درساً في الرياضيات، لكن السيدة رايشنباخ دخلت صفنا وقالت إن على كل واحد منا بعدما حدث أن يكتب موضوعاً حول شخصية ليونيد بريجنيف. ونتيجة لذلك اكتشفنا أن بعضنا لا يعرف إطلاقاً من هو المقصود. فبكت السيدة رايشنباخ مجدداً وصرخت إن الأمر سيكون له عواقب. لكن شيئاً لم يحدث، سوى أن أميناً عاماً آخر مات بعد بضعة شهور دون أن يخبرنا أحد في المدرسة عن الأمر.

بعض زملائي في الصف كانوا يحضرون أسبوعياً درس الديانة المسيحية، ومن بينهم فتاة كنت معجباً بها، فقررت الذهاب معهم. كان في الكنيسة قاعة مفروشة بسجاد سميك، وهناك في منتصفها خمس شمعات

ضخمة، وجلسنا في حلقة منصتين إلى الراهبة إرينه وهي تروي لنا قصصاً عن المسيح. كانت القصص جميلة والجميع ينصتون مشدودين، بطريقة مختلفة تماماً عن حالهم في المدرسة. في ختام الساعة أتت الصلاة، التي كنت أشعر بانزعاج خلالها، لأني في الواقع لا أؤمن بالرب، لكنها كانت تنطوي على ماهو جذاب وغامض. حكيت لأمي عن الأمر فصُدمت، لأنها لم تدرِ سبباً لاهتمامي المفاجيء بالدين. لاحظتُ أنها تعاني مشكلة بصدد الموضوع، فزاد هذا في اهتمامي بالديانة المسيحية، لدرجة أني صليت مرة في فراشي مساء. ما عدت أذكر ماذا قلت، إلا أنني كنت منفعلاً جداً، لأني لم أعرف إن كان هناك حقاً من يسمع صلاتي.

في درس الديانة المسيحية تشرح لنا إرينه أن على الإنسان أن يحب جاره مثلما يحب نفسه. إلى جانبي تجلس فتاة سمينة من الشعبة الثانية، تتعرق طوال الوقت بكثافة، وأنا لا أستطيع مهما حاولت أن أتخيل كيف لي أن أحب هذه الفتاة. إضافة إلى قواعد أخرى تناقشها إرينه معنا، وبدت لي مستغربة، مثل إذا هاجمك أحدهم فلا ترد الهجوم بمثله. هذا كلام لا معنى له، تماماً مثل اللوائح الاشتراكية في المدرسة. كان موعد درس الديانة يوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء بعد الظهر كان مخصصاً للشبيبة. في الصف السابع قررت المديرة راشنباخ نقل موعد الشبيبة إلى الثلاثاء، لأنها ارتأت أن على تلاميذ مدرستها أن يقرروا: الكنيسة أو الشبيبة. فأتت نتيجة ذلك أن ذهب نصف الصف في الثلاثاء التالي إلى درس الديانة. بناء على ذلك أعادت المديرة توزيع الساعات إلى سابق عهده. وعندها قالت إرينه إن الدين قد انتصر. إلا أنني أرى أننا نحن مَن انتصر في واقع الأمر.

بدءاً بالصف السابع كان عندنا مرة أسبوعياً مقرر اسمه "عمل منتِج". أخذونا إلى معمل ينتج قِطع غيار لمواقد الغاز. ربما لم يعرف المشرفون هناك ماذا عليهم أن يفعلوا بنا، ولهذا كان علينا طوال ساعات

أن نفرز البراغي، التي عادوا بعد مغادرتنا فخلطوها ببعضها، ليشغلوا بها الصف التالي. في المرات التالية صرت أذهب مع بعض رفاقي إلى الغابة الصغيرة بدلاً من المعمل. عند طرف الغابة كانت توجد ثكنة سوفيتية، وجنود الدورية الذين يحرسونها ضيّفونا سجائر لها قطعة فم كرتونية، وكانت ثقيلة جداً لدرجة أني لم أستطع حتى تنفيخها. كان الجنود يُسَرون لقدومنا، ويقولون لنا: «وطن بعيد، أولاد بعيد، زوجات بعيد»، وفهمنا أنهم هنا يشعرون بالوحدة. في كارلزهورست كان يعيش كثير من الروس، وكان يمكن تعرفهم فوراً عندما تقابلهم على الرصيف. نساؤهم يمشون دائماً بمكياج فاقع ويلبسن قبعات الفراء حتى في الربيع. ورجالهم يرتدون بذلات عسكرية لونها كالرمل البني، وهي غالباً أكبر بنمرة مما يجب. الجنود في الغابة الصغيرة كانوا أحياناً سكارى ويعرضون علينا مشاركتهم في مشروباتهم، لكننا لم نجرؤ حتى على تذوقها، إذ يحكي الناس في كارلزهورست أن الروس يشربون كحولاً يسبب العمى. وذات مرة بمناسبة رأس السنة، رمى جنود روس سكارى قنابلَ يدوية في نار مخيم. قيل بعدها إن أحدهم فقدَ نتيجتها ذراعيه وساقيه، والآخرون ضربهم رئيسهم ثم سُجنوا. يقول الناس إن الجنود الروس خنازير بائسة، لكنهم مع ذلك يبتهجون ربما لوجودهم في كارلزهورست، لأن الأوضاع في روسيا أسوأ بكثير. لم أستوعب ذلك، فالروس هم الذين كسبوا الحرب. وقد شاهدت في التلفزيون تلك الأفلام التي تعرض النضال البطولي للجيش الأحمر. كنت أعرف أن هتلر لولا الروس لما هُزم قط، وأنهم قد حررونا. لكن الجنود في كارلزهورست لم تبدُ عليهم هيئة المنتصرين.

عندما كنت في الخامسة عشرة كان على الفتيان من مستوى صفي الالتحاق بمعسكر للتدريب ما قبل العسكري، فيما سُمح للفتيات بالبقاء في بيوتهن مع حضور دورة تمريض. رأت أمي أن تعريضنا لتدريب عسكري

في هذه السن المبكرة أمر مريع، وحصلتُ على تقرير طبي يثبت عدم أهليتي جسمياً لتدريبات المعسكر. لكنني لم أرتح إطلاقاً لفكرة البقاء في البيت مع الفتيات، بل أردت الذهاب إلى المعسكر. وأخذت ألح على أمي أنيت حتى رضخت. دخلنا قرية مصنوعة من "براكات" قرب برلين. في اليوم الأول كان علينا وضع أغراضنا في خزائن معدنية وقفلها، واستلمنا بذلات عسكرية خضراء اللون، وبيّن لنا أحدهم أننا خلال الأسبوعين القادمين سنتأهل هنا لمرحلة الرجولة، وقد أعجبني ذلك. لكنني لم أكن أعرف بعدُ أن الرجال يستيقظون في السادسة صباحاً ويهرولون ثلاثة كيلومترات قبل تناول الفطور. قضينا بقية نهارنا زحفاً على بطوننا عبر الغابة وتعلمنا النظام المنضم، وكيف نحمي أنفسنا من انفجار نووي، وكان الأمر في منتهى البساطة. كان علينا أن نرتمي أرضاً بشكل طولاني ونغطي أنفسنا بشادر خيمة، وعندها لن نصاب في الواقع بأي شيء.

رافقنا إلى المعسكر مدرس الأشغال، وتبين هناك أنه يُقدِّر النظام والانضباط فوق كل شيء. فكان علينا كل مساء، تحت إشرافه، تنظيف وتلميع أبواطنا العسكرية السوداء وطي بذلاتنا على الكسرة، والإعلان عن ذلك عند الانتهاء أمام أسرتنا. في الحياة العادية كان مدرس الأشغال كروك رجلاً صامتاً قصير القامة يجلس في قاعة الأشغال بمريوله الأزرق ويكون مسروراً إن لم يزعجه أحد. أما في المعسكر فكان يتجول بخيلاء مثل جنرال ويوجه أوامر قاسية. فكرت في الوقت المتراخي الذي كان يمكن أن أمضيه مع الفتيات في برلين، وأقسمت على طاعة أمي منذ الآن. مرتان في الأسبوع كان يأتينا ضباط من التوجيه السياسي لجيش الشعب ويطلعونا على الوضع العسكري، يستعرضون أمامنا مسار الحدود وسيناريوهات حربية محتملة، ومنطلق الأفكار هو دائماً هجوم ليلي مباغت لقوات الناتو الإمبريالية. حتى ذلك الحين لم يكن واضحاً لي أننا نواجه

كل هؤلاء الأعداء الذين يتربصون بنقطة ضعف من طرفنا لينقضوا علينا. وشرح لنا الضباط أن السبب الوحيد لعدم تجرؤ العدو على مهاجمتنا هو منعة قواتنا. إلا أن هذه المنعة ليست بدهية، ففي هذه الأوقات العصيبة تحتاج الجمهورية إلى شباب مستعدين للدفاع عن وطنهم. ثم وُزّعت قوائم، يمكننا تسجيل أسمائنا فيها، كي نتطوع لأداء خدمة عسكرية طويلة. لا أدري ما إن كان الأمر قد ارتبط بزحفي في الجوار في لباس عسكري، أم بكون ضباط التوجيه السياسي قد خاطبونا ببرود وجدية، لكنني كنت فعلياً على وشك أن أوقع. غير أنه خطر في بالي أن ثلاث سنوات في الجيش تعني أيضاً احتمال الإرسال إلى الجبهة. وهذا ما لم أرده بأي حال من الأحوال.

في اليوم قبل الأخير في المعسكر سُمح لنا بإطلاق النار بمسدسات رشاشة. حصل كل واحد منا على خمس طلقات، مع وضع المسدس في وضعية دِراكاً، والتصويب على صورة جندي موجودة على مسافة خمسين متراً. كنت شديد الانفعال لدرجة أن كل طلقاتي جانبت الهدف، ومع ذلك كنت فخوراً. بعد عودتي إلى البيت أخبرت فولف عن تمرين الرمي. فاستشاط غضباً، لأنه لم يعرف مسبقاً بقيامنا في المعسكر بمثل هذه الأمور الخطيرة. قلت له إن الأمر كان رائعاً وعليه أن يهدّئ من روعه، لكنه هرع في اليوم الثاني إلى مديرتي السيدة رايشنباخ وصاح غاضباً إن هذه المدرسة اللعينة تجبر الأطفال على استخدام السلاح. وهذا بدوره أثار غضب أمي أنيت، لأن المدارس تُجري في هذا الوقت تحديداً عملية انتقاء التلاميذ للمرحلة المدرسية الأخيرة وشهادة الثانوية، وقالت له: «لقد خربت مستقبل ابنك». فكان جوابه أن هذه الدولة الخرائية هي التي تخرب مستقبل الناس.

عرفت مبكراً عن طريق والدَيّ كيف سارت الأمور. كانت نقاشاتهما

مربكة للفهم، لأنهما نادراً ما يتفقان. رأى فولف أن (ج.أ.د) هي ديكتاتورية المسؤولين، الذين خانوا الاشتراكية. ورأت أنيت أن هناك بالتأكيد مشاكل كبيرة، ولكن من الممكن التغلب عليها. غالباً ما كانت تتحول الأحاديث السياسية معي إلى شجار بين الاثنين، يتصاعد فيه موقف فولف تطرفاً، فيتحدث عن "دولة القتلة" وعن "الدولة السجن"، فتجيب أنيت بصوت تحذيري، إنه يجعل الأمور أكثر عسراً بحديثه أمامي عن هذه الأمور. علماً بأني كنت أعرف إلى حد كبير، ما الذي لا يجوز لي قوله وأين، كي أتجنب المشاكل. في مقرر الثقافة الوطنية كنت أحصل دائماً على العلامة التامة، بفضل اللوائح طبعاً. كنت أحضر لقاءات الشبيبة للتحريض ضد الإمبريالية، وأقرأ في البيت مجلة "دير شبيغل" الغربية، التي كانت أمي تحضرها أحياناً خفية من مكتب التحرير. كنت فخوراً بالاطلاع على أسرار والديَّ، دون أن يلاحظ المعلمون ذلك. أمي كانت تشرح لي بشكل رئيس الروابط التاريخية، لأنها الأكثر أهمية من وجهة نظرها، وتقول لي إن الأمور ستكون أوضح وأسهل بالنسبة إليَّ مما كانت بالنسبة إليها، وذلك بمعرفة الحقيقة قبل أن ينطق الآخرون بالأكاذيب. عرفت مثلاً أن بتاريخ 17/ 6/ 1953 حدثت في برلين الشرقية انتفاضة عمالية، أخمدها الجيش السوفيتي بشكل دموي. وكتبتُ في المذاكرة أنهم كانوا محرضين ضد الثورة وعملاء لألمانيا الغربية، ابتغوا إلحاق الضرر بالطبقة العاملة في (ج.أ.د). ولم أكن بذلك مضطراً إلى التغلب على نفسي، كما لم أشعر بأني خائن أو جبان، وذلك لأني قلت ما يتوقع الآخرون أن يسمعوه مني.

قد يعود الأمر إلى أن هذا كله في الحقيقة لم يهمني كثيراً، أو لم يهمني كفاية لأخوض مجازفة، أو للاضطرار إلى القبول بأضرار أنا في غنى عنها. اليوم بت أعرف كم عانت أنيت عند كل رضوخ وبعد كل حل

وسط، لشعورها بالارتباط بـ (ج.أ.د)، ولأنها أرادت أن تُحدث تغييراً ما. كل كذبة كانت بالنسبة إليها هزيمة، لأن قصدها تجاه هذه الدولة وبها كان شريفاً. حتى أبي يقول، إنه كان يأمل دائماً بحدوث شيء ما في هذا البلد، لأن الوضع لم يكن في أي وقت من الأوقات ميؤوساً منه كلياً. حالي أنا كان مختلفاً، لأني بالأحرى لم أكن على علاقة بهذا البلد. فبعد كل ما حكاه لي والديّ عن (ج.أ.د)، وبعد كل ما رأيته منها بنفسي، صارت بالنسبة إليَّ سيان. لا أعتقد أني حينها كنت واعياً بذلك، لكني عندما أفكر اليوم في الأمر، يلفت انتباهي أني عملياً لم أحمل مشاعر حقيقية تجاهها. لم يكن هناك كراهية ولا حب، لا أمل ولا خيبة أمل، بل مجرد لامبالاة صماء.

قد يبدو الأمر مستغرباً، لأن كل إنسان في الواقع يحمل شعوراً ما تجاه وطنه. إلا أنني فصلت مشاعري الوطنية عن (ج.أ.د): شجرة الحور أمام كوخنا الصغير في باسدورف، بقعة سباحتنا على شاطىء بحيرة ليبنيتس، حديقة البحيرة في كارلزهورست، الشارع الذي ولدت فيه، لم يكن لها أي علاقة بدولة (ج.أ.د). هذه الدولة بالنسبة إليَّ كانت تعني الآخرين: مديرتي السيدة رايشنباخ، المسؤولون الذين يشغلون المنصة في تظاهرة أول أيار/ مايو، الشرطة بلكنتهم السكسونية ومذيعة برنامج الكاميرا اليوم. (ج.أ.د) كانت تعني أوامر المنع، القواعد المعتوهة، اللافتات الحمراء المكتوب عليها "يدي لإنتاجي" أو "حسبما نعمل اليوم سنعيش غداً". لقد علمني والداي أن أقلل ما أمكن من صلاتي مع (ج.أ.د) هذه، أن أحافظ على مسافة بيني وبينها. لم يكن هناك ضرورة لأن نتكلم في الموضوع، فالأمر كان واضحاً دونما كلام. لقد رأيت كيف عاشت أنيت وفولف، وكيف كانا يتجنبان الاحتكاك بالدولة. ولم أفهم إلى اليوم مدى تعلق أنيت حقاً بـ(ج.أ.د). قالت لي إنها لا تريد أن تنقل إليَّ هذا الشعور، لأنه سبب لها شخصياً الكثير من العذاب.

أحاديث أنيت معي كانت دائماً صريحة وجادة، وكأنها تخاطب راشداً. لم تحاول أن تقنعني، بل أرادت أن أعرف وافهم وأميز بين الأمور. حكيت لها مرة عن الشعور الذي انتابني في المعسكر التدريبي، عندما كنت على وشك أن أتطوع لخدمة عسكرية طويلة. كان شعوراً غريباً جداً، أشبه بحاجة إلى الوصول إلى (ج.أ.د). فقالت حينها إن هناك إمكانيات مختلفة للعيش في هذا البلد، يمكن للمرء أن يشارك، أو أن يقاوم. ويمكن للإنسان أن يشارك قليلاً وأن يقاوم قليلاً. وقالت إنها ستدعمني دائماً، كيفما جاء قراري. ولكن لا بد من أن أكون على وضوح تام، أن على المرء أن يكون قوياً جداً لكي يدافع عن نفسه جدياً. وأن من الصعوبة بمكان الانسحاب بعد مشاركة جدية. ثم نظرت إليَّ بحزن. ربما فكرت في مدى عبثية أن يكون الأهل مضطرين إلى شرح هذه الأمور لأولادهم.

هذه كلها لحظات تكتسب معناها الآن عندما أرويها، ولا أظن أنها كانت تملكه بالنسبة إليَّ آنذاك. والحقيقة هي أن حياتي كانت غالباً طبيعية جداً. طبيعية كما لو كنت في هامبورغ أو بون. طبيعية لدرجة يمكن معها نسيان (ج.أ.د). هذه الحياة كانت تدور في البيت والحديقة وعلى البحر ومع الأصدقاء وفي ملعب كرة القدم، حيث كان الأمر يتعلق بالقفز لعباً وباصطياد سمكة وبتدخين أول سيجارة وبمغازلة الفتيات في الحديقة العامة. فيما بعد، عندما لم يعد من السهل تجنب (ج.أ.د)، عندما كادت تلمسني، بدأت أنظر إليها بعينين مختلفتين.

18. أمور بسيطة

في شتاء عام 1976، جاء إلى والدَيّ زائر شاب قدّم نفسه بصفته يعمل في قسم الاستطلاع التابع لجيش الشعب الوطني، اسمه راينر. قال فولف إنه قد ترك لديه انطباعاً لطيفاً من البداية. قال راينر إنهم قد جمعوا معلومات عنه وعرفوا أنه مواطن ناقد، لكنه ملتزم. ولهذا لديه سؤال. تحدث راينر عن عمله وعن عناصر الاستطلاع في الغربية، الذين يزودون مركز عمله بمعلومات عن الوضع العسكري في ألمانيا الاتحادية. وقال إن هذه المعلومات مهمة لحماية (ج.أ.د) من أي هجوم، ولحفظ السلام، والرفاق الذين يعرضون أنفسهم بعملهم لخطر كبير يحتاجون إلى دعم، إلى أمر بسيط في الواقع، لكن مجموعة أمور بسيطة تنتج في نهاية المطاف أمراً عظيماً. والسؤال هو باختصار، إذا كان أنيت وفولف مستعدين لوضع صندوق بريدهما في الخدمة، فيما إذا كان الرفاق في الغربية يريدون تبليغ معلومات مهمة. فسألته أنيت عن كيف سيجري الأمر، فشرح راينر، أن ما عليهم فعله لا يتعدى إخباره هاتفياً في حال وصول بطاقة بريدية إلى صندوقهما من مرسل من الغربية لا يعرفانه. وهو سيأتي لأخذها.

في تلك اللحظة حدث شيء لا تستطيع أنيت ولا فولف حتى اليوم تفسيره تماماً: لم يرفضا، ترددا، أبديا استعداداً للتفكير في الأمر، للالتقاء

براينر مرة ثانية. عندما أوصل فولف راين رإلى الباب قال له إن هذا هو أقل ما يمكن للمرء أن يسهم فيه. وودعا بعضهما بعضاً بكل ود وكأنهما صارا صديقين منذ الآن.

في الزيارة التالية أحضر راينر معه زميلاً. سألهما إن كانا يسمحان له باستخدام هاتفهما للاتصال بالغربية لأمر ملح. أحس كلٌّ من أنيت وفولف بنفسيهما قد بوغتا، لكنهما لم يستطيعا رفض طلبه. اتصل الزميل بالسنترال وطلب رقماً، لكن الاتصال لم يتم. مرت مدة بعد ذلك لم يسمعا خلالها شيئاً من راينر، ولم تصلهما بطاقات بريدية. بعد عدة أسابيع اتصل راينر ثانية، وسأل عما إذا كان ممكناً الحصول على مفتاح بيتهما، ليتمكن الزملاء من استخدام هاتفهما حتى عندما لا يكونان في البيت. واليوم يقول فولف إن الأمر كله عند هذه النقطة تراءى لهما رهيباً للغاية. وعندما سأل راينر ثانية عن موضوع المفتاح، أوضحت له أنيت أنهما لا يرغبان في ذلك، لأن الأمور تجاوزت الآن ما تحدثا بشأنه في البداية. ولدهشتهما لم يتسبب رفضهما في أية مشاكل أو لوم. ثم جاء راينر ثانية. إذ عليهما الآن التوقيع على ورقة يلتزمان بموجبها كتمان أمر الاتصال بهما. ثم انتهت القصة.

ما الذي جرى لوالديّ في شتاء 1976؟ ما الذي جعلهما يفعلان أموراً، لم يريدا في واقع الأمر فعلها؟ القصة محرجة لكليهما، لأنها غير قابلة للتفسير، ولأنها لا تنسجم مع الصورة التي يعرفانها عن نفسيهما. وخاصة فولف المتمرد الذي لم يسبق أن خاف من فعل شيء يراه صحيحاً. إنه لا يزال مندهشاً حتى اليوم، وتفسيره: لقد أمسكوا بي من نقطة يصعب فيها أن تقول لا. هذا الرجل كان لطيفاً ولبقاً، فلم أشعر أني أتعاون مع العدو. وفكرت، إن كنتُ لا أنوي الهروب إلى الغربية، فعلى المرء أن يفعل شيئاً حيث يقيم. وتقول أنيت إنها قد شعرت بالارتياح لأنهم توقفوا عن طلب شيء آخر. ولو طلبوا منها التجسس على أشخاص لرفضت فوراً، أما

مساعدة عناصر الاستطلاع في الغربية فهو عمل صحيح في رأيها. ولربما خفنا أيضاً من اعتبارنا أعداء، إذا لم نسهم معهم.

لم أعد أذكر بالدقة متى سمعت القصة من والديَّ أول مرة. لا بد أن يكون الأمر بعد سقوط الجدار. فقد تعلق الأمر بتدقيق ملفات أمن الدولة، وكانت وجهة نظر أنيت أن على المرء أن يكون هجومياً في التعامل مع تاريخه الخاص ولا يجوز أن يخفي شيئاً. وقد وجدنا في ملف أمن الدولة الخاص بأنيت تقييماً لفولف وضعه قسم الاستطلاع في وزارة الدفاع الوطني قبل الاتصال الأول: "إن موقفه السياسي الأساسي تجاه (ج.أ.د) إيجابي. شارك بفعالية في العمل الاجتماعي في منطقته السكنية وأسهم بذلك في تثبيت الروابط السكنية. وفي مناسبات الذرى الاجتماعية - السياسية يتطوع من نفسه للعمل. ليس عضواً في الحزب بعد. يعيش مع زوجته حياة زوجية منسجمة، وبعلاقات عائلية مرتبة. لهما طفلان مشتركان". تعرف قسم الاستطلاع على ليو عن طريق توجيه رسمي.

من الجلي أنهم رأوا في فولف شيئاً لم يرغب هو أن يراه في نفسه. إنها تحديداً تلك النقطة التي أسكره منها، حيث يحتاج الموضع إلى بعض الحك للكشف عما يكمن تحته. لقد كان في حاجة إلى عمل شيء ما، إلى الالتزام، كي لا يكون مناهضاً دائماً، بل أن يكون مع، ولو مرة. لو كان الرفاق أكثر مهارة، لو أنهم لم يرعبوه بمطالبهم، لكان فولف مستعداً لأكثر مما تصور هو نفسه.

هذه الحكايات عن صندوق البريد والهاتف كانت على الأغلب مجرد اختبار، ليروا إلى أي حد يمكن لأنيت وفولف أن يصلا معهم. ثم نُقل ملفا والدَيّ إلى مخابرات أمن الدولة القسم الرئيس الثاني المختص بمكافحة التجسس والذي لفت فولف اهتمامه أيضاً، إذ وجدت ملاحظة في ملفه تفيد بأنه "ناقد لكنه ليس معادياً". وسمح الجهاز بمحاولة ثانية لاحتوائه:

اعتماداً على خبرة إدارة الاستطلاع في وزارة الدفاع الوطني يفترض إجراء اتصال ثان غير رسمي مع الزوجين. ولكن عند محاولة الاتفاق معهما على موعد، تبين أن الزوجين غير مستعدين لذلك، مع الحفاظ على التعاون والكلام مع أمن الدولة. وأصرا على دعوتهما إلى مكان رسمي في وزارة أمن الدولة. وخلال ذلك كشف فولف ليو عن أن التعاون مع إدارة الاستطلاع كان "تكليفاً لايحتمل". ونظراً لهذه الظروف لم تتابع محاولة التواصل مع الزوجين.

أحاول أن أتخيل، ما الذي كان سيحدث لو أن فولف لم يجرؤ على صدّ شتازي. كان الأمر سيتابع خطوة فخطوة، أمر بسيط وراء أمر بسيط. كثيرون فعلوا ذلك، ومعظمهم لم يخامره الشعور بأنه يقوم بعمل وخيم. بعض الملاحظات فقط، بعض المعلومات، التي على أية حال قد لا تكون مهمة، والتي لم تؤذِ أحداً، حسبما يقال دائماً. لم يتوجب على المرء أن يكون خانعاً كي يعمل لصالح شتازي، إذ كان اهتمامها أكبر بالإنسان المختلف، بالمتمردين الصغار، الذين يريدون التغيير، لكنهم لا يعرفون كيف. بالذين يزعمون المعرفة، ولكن لا أحد يستمع لآرائهم. كان محتملاً أن يسقط فولف في الفخ. كان سيصير رجل شتازي، مع البقاء على ما هو عليه. في البداية سيبقى كل شيء منسجماً مع بعضه، ولكن لاحقاً لن يفهم أحد لماذا.

في ملفيّ شتازي هناك تقارير عن "حلقة نقاش غير قانونية (تشكيل مجموعات)" شارك فيها فولف وأنيت في أكتوبر/ تشرين أول ونوفمبر/ تشرين الثاني 1977. تلتقي هذه الحلقة مرة شهرياً في بيت أحد معارف والديَّ في حي تريبتوف. اليوم تقول أنيت إنها لم تعرف إطلاقاً أن أموراً من هذا القبيل غير قانونية. ذهبت مع فولف مرتين لحضور الحلقة. "دار النقاش حول مشاكل الصحافة بمضمون موجه ضد سياسة حزبنا

وحكومتنا. وفولف ليو تحدث بصورة سلبية جداً وحذر البقية من تدخل وزارة الأمن في تجمعات مثل هذه". هذا ما ورد في أحد التقارير. كان فولف يعرف إذاً أن حضور حلقات نقاش أمر ينطوي على خطورة. وكان محقاً. فقد عرف وأنيت لاحقاً أن أربعة من عشر أعضاء في الحلقة كانوا مخبرين يعملون مع شتازي. وإضافة إلى ذلك كان في الثريا في غرفة المعيشة حيث يجلسون ميكروفون لاقط. يا له من مجهود وإنفاق! علماً بأن الأمر كله كان بريئاً، حسب أنيت، وإلا لما ذهبت أصلاً. وبرأي فولف كانت مملة فحسب. بعد مدة قصيرة انحلَّت الحلقة، لخوف المضيف من نتائجها. أقيمت حفلة بهذه المناسبة التقطت فيها صور كثيرة بشكل لافت. وبعد بضعة أسابيع جاءت قوات شتازي إلى أنيت، ليروها صوراً بغية التعرف على أصحابها "كي لا يهربوا من بين أيدينا". من الواضح أن شتازي كانت لا تزال تعتقد أن والديّ ما زالا إلى صفها.

رفضت أنيت إلقاء نظرة على الصور. وبعد أسبوعين فقد مضيف الحلقة مكان عمله في أكاديمية العلوم وأزيح إلى أرشيف المدينة، حيث يعمل الكثير من المغضوب عليهم. لم يصب أنيت وفولف أيُّ أذى. لكنهما تابعا ما يجري بدهشة كبيرة، لأن حلقة النقاش كانت فعلاً بريئة. ثمة صديقة أوضحت لهما أن الأمر لا يتعلق مطلقاً بموضوع مناقشات الحلقة، وإنما بكون تشكيل الحلقة بالأساس غير قانوني. وجود عشر أشخاص في مسكن يعد جريمة بحق الدولة.

في تلك المرحلة كانت أنيت تعمل في تحرير مجلة "أفق" المختصة بالسياسة الخارجية. أرادت بعد إنهاء دراستها أن تعمل تحديداً هنا، حيث يمكنها، حسب تفكيرها، تحقيق حلمها بصحافة كفؤة ونزيهة. لكنها سرعان ما لاحظت أن الصحافة شبه مفقودة في تحرير هذه المجلة، فمعظم المحررين قادم من الحزب أو من جهاز الحكومة، وكثير منهم

كانوا رجال مخابرات. أقسام المجلة تابعة بصورة مباشرة إلى الأقسام المختصة في اللجنة المركزية للحزب أو في وزارة الخارجية. وهناك يُتخذ القرار فيما يجب أن يُكتب وكيف يُكتب. بالمقارنة مع ما خبرته أنيت هنا، كانت "جريدة برلين" صحيفة مستقلة – حرة.

كتبتُ ذات يوم مقالة عن جرائم بول بوت في كمبوديا، فاحتُفظ بها في اللجنة المركزية، لأن كمبوديا رسمياً لا تزال تعتبر واحدة من الدول الثورية الشقيقة. احتجت أنيت سائلة، ما إذا كانت (ج.أ.د) تريد حقاً أن تؤاخي ديكتاتوراً يذبح شعبه. أبدت اللجنة المركزية تفهماً لسؤالها، ومع ذلك بقيت المقالة أسابيع هناك، إلى أن جاءت مكالمة هاتفية تأمر بنشر المقالة فوراً، فالأمر ملح. سُرّت أنيت وفكرت في أن الصحافة الصادقة التي تندد بالجرائم وتشجبها ستفرض نفسها. إلى أن فهمت أن الموضوع مختلف تماماً. فقبل أسبوع هاجمت الصين فيتنام، وكمبوديا تدعم الموقف الصيني. ولأن التآزر مع فيتنام استراتيجياً أهم منه مع كمبوديا، سُمح للمقالة بالنشر الآن.

وجاء الحسم الأخير لموقف أنيت في اجتماع سيتم فيه انتخاب القيادة الحزبية الجديدة لتحرير المجلة. كالعادة كان كل شيء مقرراً مسبقاً، فعندما سأل رئيس الجلسة الحضور عمّن لديه مرشح ليقترحه، تقدم أولئك الذين قيل لهم مسبقاً أن يتقدموا. وفجأة خطر في بال أنيت أن تقترح زميلاً تقدّره عالياً. فارتبك الجميع، إذ لم يسبق أن حصل مثل هذا. ولم يدر رئيس الجلسة ما إن كان يجوز له قبول اقتراح أنيت أم لا، لذلك لجأ للتصويت. وبشكل عفوي قرر 13 زميلاً دعم اقتراح أنيت، لكن الأغلبية كانت ضد الاقتراح، فبقي كل شيء على ما كان عليه مسبقاً. بالنسبة إلى أنيت انتهى الموضوع في واقع الأمر هنا. ولكن بعد شهر، وفي الاجتماع الحزبي الثاني، جاء رجل من اللجنة المركزية، وإذا بكل من دعم

اقتراح أنيت يقفون بالتالي ويسوطون أنفسهم لنقص الانضباط الحزبي في سلوكهم: لاموا أنفسهم وطالبوا بعقوبات تُنزل بهم لسلوكهم المخزي. وكان أسوأهم هو الزميل الذي اقترحت أنيت ترشيحه، فقد مارس أقسى نقد ذاتي وتوسل المغفرة ووعد بألا يكون في المستقبل أذكى من الحزب أبداً. في ختام الاجتماع غادر القاعة 14 رجلاً منكسرين، مطأطئي الرؤوس، ذليلي النظرة وغارقين في عرقهم.

ولاحقاً، وصل إلى علم أنيت أن لجنة تحقيقٍ قد شُكلت في اللجنة المركزية بعد اجتماع الانتخابات مباشرة وحققت مع التحريفيين كافة لساعات طويلة. والتهمة هي محاولة انقلاب على الحزب أو توجيه ضربة قوية له. ولكن لماذا لم تُستدعَ هي للتحقيق؟ لماذا بقيت هي الوحيدة دون مهانة الاستجواب؟ ثمة زميل مطلع على هذه الشؤون شرح لها فيما بعد أن هذا التكتيك يُعد وسيلة محببة لعزل المحرضين. فعندما يُعاقب الجميع عدا المحرض نفسه، فلن يتعاطى الآخرون معه في المستقبل إطلاقاً، باعتباره السبب في توريطهم في هذه المشاكل. وفي الواقع منذ ذلك اليوم لم يعد يكلمها أحد من المعاقبين، وكأنها لم تعد موجودة.

19. صيحات معترضة

عايش فولف هذا كله عن بُعد. في المطبخ مساء عندما تحكي له أنيت عن مشاكلها، يجلس هناك بنظرات متسائلة دون قدرة على فهم احتمالها للوضع. هذه الأكاذيب، هذا الخوف، هذا العالم العجيب الذي لا يعرفه إلا من رواياتها. إنه لا يستوعب سبب استمرارها في العمل في هذه المجلة، في معمل الجنون هذا. يحاول أن يهزها لتستيقظ، أن يبث فيها الشجاعة والجرأة لتجريب شيء مختلف. ولكن لا جدوى، إذ لا يتمكن من التغلغل فيها. وكأن ثمة جداراً يقف بينهما، حدوداً لا يتمكنان من تخطيها. واليوم تقول أنيت، إن الضغط من جانب فولف كان يزيد الأمر صعوبة. ففي مواجهته كان لا يزال في وسعها أن تدافع عن أمور هي نفسها لم تعد تؤمن بها. فالمسألة كانت تتعلق بالمبدأ؛ إنها لا تريد استبدال رأي زوجها برأي أبيها، بل أرادت أن تقرر بنفسها ما عليها فعله. وفولف يقول: «إن (ج.أ.د) كانت دائماً في فراشي».

في بيتنا، في كارلزهورست، رتب فولف لنفسه محترف عملٍ تحت السطح. يجلس هناك إلى طاولة مكتبه ويرسم للأطفال حكايات ما قبل النوم التي يبثها تلفزيون (ج.أ.د) مساء. حكايات عن ضفادع طريفة وأميرات شقراوات ودببة تجيد الوقوف على رأسها. ويرسم صوراً

لحكايات روسية ويصمم إعلانات لأفلام كارل ماي وبطاقات بريدية ملونة عليها كسار البندق وبابا نويل يتنافسان في الضحك.

بعد المدرسة كنت غالباً أصعد إليه. في محترف فولف لم يتغير أي شيء إطلاقاً، وهناك تعشش روائح صمغ وألوان وقهوة. في الشتاء يلبس فولف صدارة من فروة خروف، وفي الصيف قميصاً مخططاً بالأبيض والأزرق من الطراز الذي يلبسه حمالو الأثاث، اشتراه من متجر الثياب المهنية. أحياناً كنت أنجز فروضي المدرسية عنده فوق، حيث أشعر بالارتياح لسماع صوت الريشة الفولاذية على كرتون الرسم بالألوان المائية، والموسيقى الهادئة من المذياع. أعتقد أنه كان راضياً حينذاك. في الخارج يمكن أن يحدث ما يحدث، أما هنا تحت السطح وعلى مكتبه فقد كان كل شيء حسبما أراد له أن يكون.

في مطلع الثمانينيات بدأ فولف بمشاريع فنية خاصة. بدأت ببطاقات بريدية يطبعها بنفسه ويرسلها إلى أصدقاء. والبطاقات عبارة عن تعليقات على العالم المحيط به. إنها صيحات اعتراض وإشارات حياة، بالرمادي والأسود. على بطاقة من عام 1983 هناك برج من مكعبات بناء، وعلى إحدى ساقي البرج هناك رباط مشدود، وساعة البرج تشير إلى ماقبل الثانية عشرة بقليل. وعلى بطاقة أخرى هناك رجل يركض، ورأسه أمامه، نحو جدار حتى ينكسر غطاء الجمجمة، وقد كتب تحتها "تحريض تفكيري". وعلى بطاقة تحية رأس سنة 1985 هناك عربة نوم من أحد قطارات (ج.أ.د)، وفولف يتمنى "رحلة موفقة". وعلى واجهة عمارة حديثة البناء رُسمت دائرة حول نافذة، وعنوان البطاقة: "نزيل".

هناك طريق طويل من كسّاري البندق الظرفاء إلى غطاء الجمجمة المكسور، ومن البطاقات الملونة إلى الرمادية. لكن هذا كله ظهر في الوقت نفسه، ولا ينفصل جانب منه عن الآخر.

أقام فولف معرضه الأول في متجر كتب في كارلزهورست. في منتصف المساحة عُلّق شكل إنسان يدور حول نفسه. وتُرى على أحد الجدران خيالات مسافرين تقترب من بابٍ دون مقبض من الداخل. صليب نافذة يرمي بظله، وغربان سوداء تخفق بأجنحتها في الظلام. وراء القضبان يقف رجل من شتازي بقبعة مدببة. "بهذه القتامة يرى ليو حاضرنا". جاء في تقرير شتازي عن المعرض. وفي صالة عرض في بانكوف يُخرِج فولف "لا حوار" بين شخصين من كرتون. في جانب يسترخي شاب يافع على كرسي وقد وضع ساقاً على ساق، وفي الجانب المقابل يجلس الأب الكظيم ضاماً ساقيه إلى بعضهما. هذا المسنٌّ ذو القبعة والنظارات ذات الزوايا الحادة يمكن أن يكون أباه أو غرهارد.

ولكن في لحظة ما اكتفى فولف من هذه العلامات المخفية. إنه يريد أن يفعل شيئاً، أن يغير شيئاً ما. وفي أيار/ مايو 1986 كانت ستُجرى في رابطة الفنانين انتخابات جديدة لإدارات الأقسام. ثمة اجتماع موسع في دار الثقافة السوفييتية في فريدريش شْتراسِه، فاتفق فولف مع عدد من فناني الغرافيك التطبيقي على تقديم لائحة خاصة بأسماء مرشحين للانتخابات في ذلك اليوم. وفي اللحظة التي كانت فيها الرئاسة على وشك الإعلان عن اللائحة الرسمية، صعد إلى المنصة وأعلن بقلب خفاق اقتراحه المضاد. خاطب فولف الزملاء المجتمعين قائلاً إن على المرء أن يحاول مرةً تطبيق الديمقراطية بنفسه، وتحدث عن التغييرات، وعن ضرورة البدء بشيء جديد مع أناس جدد. أخذت الجميع المفاجأة فصوتوا بالإجماع لقبول الاقتراح. ثم تملكت الدهشة فولف نفسه للسهولة التي تم بها الأمر، وقال: «ما على المرء سوى أن ينفخ مرة بقوة، فيتساقط كل شيء. يا لها من خبرة مفيدة!».

لكن هذا كله لم يكن خالياً تماماً من الخطورة. فمن يريد المشاركة

في تقرير الأمور، عليه المشاركة أيضاً في عالم المسؤولين هذا، وسرعان ما سيُطرح السؤال: مَن يغيِّر مَن فعلياً؟ كُلف فولف بتصميم المنصات لاحتفال "برلين 750 سنة". وعيد الميلاد هذا ليس كمثل أي حدث آخر، إنه إحدى ذرى التنافس بين النظامين، لأن برلين الغربية ستحتفل أيضاً. لذلك من المهم بالنسبة إلى حكومة (ج.أ.د) إبراز جزئها من برلين كعاصمة لائقة بدولة ألمانيا الشرقية. وقد أصبح فولف الآن بمنزلة كبير مصممي واجهات برلين الشرقية. يقول إنه لم يفكر في الأمر كثيراً، وليس هناك مَن لعب بعقله وورطه في المهمة. كان في مقدوره أن يفعل ما يشاء، وما زال يحتفظ حتى اليوم بمخططات المشروع. تبدو فيها المنصات جامحة جياشة وحديثة. أشكال حمراء وبيضاء وسوداء تتداخل ببعضها البعض وترتجف كالبرق على الجدران القماشية أو تترابط في موجات طويلة. هذا التمظهر القوي هو نقيض عالم (ج.أ.د) المكفهر، الذي قدمه فولف في معارضه. وفيما بينهما تقع البلد التي يعيش فيها.

إلا أن يد فولف لم تكن حرة تماماً. هناك بوستر صممه للاحتفال لم يُطبع. تُرى في البوستر نظارة شمسية وينعكس على العدستين كما في مرآة، نصفا مدينة برلين. يبدو أن هذا قد تجاوز الحد بكثير بالنسبة إلى الرفاق. بعد الاحتفال بأسبوعين كان يفترض بفولف استلام جائزة برلين من عمدة المدينة، لكنه لم يذهب إلى الحفل. إنه يحس بأنه قد تخطى حدوداً ما، وأنه اقترب أكثر من اللازم من منطقة رجال السلطة. إنها لمسألة صعبة، هذا اللعب بين قبول المكافأة ورفضها. «إن مبدأ الإغواء كان موجوداً دائماً». يقول فولف، «لكن السؤال المطروح دائماً هو: إلى أي حد يمكن للمرء أن يذهب، ما مقدار التأقلم مع الوضع الذي يصيبك قبل أن يؤلمك؟».

20. رفيق درب

في أيار 1978، لم تعد أنيت تحتمل، فتركت هيئة التحرير. ثم تقدمت بطلب إلى جامعة هومبولت لمتابعة الدكتوراه والعمل. وبدا لها البحث التاريخي حقلاً محمياً. لكنها تقول اليوم، إنه كان هروباً من الواقع. تحدد موضوع بحثها في تاريخ الحركة النقابية الإسبانية. لم تختر الموضوع بنفسها، لكنه بدا لها مباشراً وواضحاً، لاسيما وأنها تتجنب المشاكل. وصارت تعمل وتدرس في مكتبة معهد الماركسية – اللينينية. وطلبت مرة كتاباً فأخبرتها مسؤولة المكتبة أنه لا يغادر المكتبة للإعارة إلا بإذن خاص. وعرفت أنيت أن هناك قسماً كاملاً في المكتبة يضم الكتب الممنوعة في (ج.أ.د). وعن طريق البروفسورة المشرفة على أطروحتها حصلت أنيت على الإذن الخاص. وفي يوم شتائي من عام 1979 سُمح لأنيت لأول مرة بدخول "قاعة السم" التي تضم الكتب الخطيرة المؤرشفة. ولدهشتها وجدت أن الكتب ليست لمؤرخين بورجوازيين، بل هي دون استثناء ليساريين تحريفيين. كل أدبيات التروتسكية، إضافة إلى مؤلفات من يعتبرهم الحزب "الشيوعيين الأوروبيين" ومنظري الحركة العمالية الموسومين بـ"التصالحيين والتحريفيين". إنها الكتب التي تخيف الحزب أكثر من أي شيء آخر، والتي يكافحها بكل شدة. إن هذه المكتبة السرية هي بمثابة مدفن الخونة.

من يحصل مرة على إذن الدخول إلى "قاعة السم" يمكنه أن يطلب من هناك ما يشاء. إذ ليس هناك من يدقق على صلة الكتاب المطلوب للإعارة بمشروع البحث العلمي الذي يعمل عليه المستعير. فصارت أنيت تطلب كل ما يمكنها الحصول عليه: كتب مرتدين ومارقين لا تعرف عنهم حتى الآن إلا أسماءهم، صاروا فجأة على طاولتها. وبما أنها تتقدم بسرعة كبيرة في بحث الدكتوراه، حسبما يرى زملاؤها، فقد استغلت الوقت لتلتهم ما في وسعها من المعرفة المحظورة. قرأت تروتسكي وبوخارين وسولجنيتسين. وانفتح أمامها كون كامل من الأفكار والآراء. وجدت أسئلة كثر طرحتها على نفسها، وأجوبة حاذقة، لاختلافها تماماً عن تلك التي نشأت عليها. وأدركت أن اليقينيات والعقائد التي كانت على صلة بها حتى الآن، ليست سوى أحد التفسيرات المحتملة للماركسية - اللينينية، وهناك ما لا نهاية له من الاحتمالات المختلفة للتفكير في الاشتراكية. إن المنظرين المنبوذين، الذين دفعوا في أغلب الأحيان حياتهم ثمناً لآرائهم، بدوا لها أصدق وأشجع بمراحل من إيديولوجيي "الاشتراكية الموجودة واقعياً". فالاشتراكية لديهم ليست ديكتاتورية حزب واحد، وإنما رؤيا حلمية لمجتمع جديد، الحرية والاشتراكية فيه ليستا نقيضين. ومع كل كتاب قرأته كانت تنمو قناعتها بأن (ج.أ.د) في واقع الأمر تعيق الاشتراكية، وتخونها وتبتذلها. وكان هذا بالنسبة إلى أنيت مريحاً ومُثقلاً ضاغطاً في الوقت نفسه، لأنها باتت تعرف الآن أنها تؤمن بالقضية الصحيحة، لكنها تعيش للأسف في البلد الخطأ.

تعرف أنيت أن ثمة في أسرتها منبوذاً أيضاً، أحد الذين يصمهم التأريخ الرسمي في (ج.أ.د) بكونه "خائناً صريحاً"؛ إنه الجد داغوبرت لوبينسكي والد أمها نورا. كان داغوبرت شيوعياً يهودياً يعيش في دوسلدورف ويعمل في الصحافة الاقتصادية في جريدة الحزب "حرية". وقد فصل

من الحزب عام 1928 مع آخرين لأنه جاهر بمناهضته لسياسة الحزب. نادراً ما يتحدثون عن هذا الجد في إطار العائلة. هناك صورة فوتوغرافية له موضوعة على رف الكتب الكبير في غرفة المعيشة، يظهر فيها أصلع الرأس، يضع نظارتين بعدستين مستديرتين وإطار من النيكل، وسيكارة في طرف فمه، ينظر بثقة في النفس بعيداً عن عدسة الكاميرا. وبين الحين والآخر كانت تصل إلى سمع أنيت شذرات متفرقة عنه، عليها هي أن ترتبها مع غيرها. تعرف أن النازيين قتلوه 1943 في آوشفيتس، وأنه كان قبل ذلك في سجن دوسلدورف مدة طويلة. وتعرف أنه شارك 1928 في تأسيس مجموعة أطلقت على نفسها اسم "الحزب الشيوعي المعارض"، يرد ذكرها في كتب التاريخ الألمانية الشرقية كـ"مجموعة شظايا" انتقلت إلى معسكر العدو الطبقي، و"قامت عناصرها التحريفية المتصالحة مع العدو الطبقي بترتيب الدسائس". ولكن بعد كشفها وتجريدها من صلاحياتها أمكن البدء بفصل جديد في تاريخ الحزب، بمرحلة الوحدة والتماسك، التي لُقنت أنيت أنها مرحلة تقدم تاريخي.

ما أن تحكي نورا عن داغوبرت حتى تنهمر دموعها بعد لحظات. وغرهارد يفضل ألا يأتي على سيرة داغوبرت إطلاقاً. إن تاريخه المليء بالعذاب يشكل بقعة غامضة وملتبسة في مسيرة الأسرة. شعرت أنيت بنوع من الانجذاب السحري إلى جدها. وأحست بتضامن مع هذا الرجل الغريب، لا تجد له تفسيراً. لطالما قررت أن تبحث بصورة جدية في تاريخ هذا الرجل، ولطالما تركت المشروع جانباً. وكأنها كانت تحدس بأن داغوبرت سيغير حياتها.

في مطلع الثمانينيات تلقت أنيت من أمها نورا رسائل داغوبرت التي كتبها في سجن دوسلدورف. إنها بمنزلة تركة داغوبرت، التي صاغ فيها

آخر أفكاره. "حافظوا على الرسائل" كتب مع كل رسالة. ربما لمعرفته منذ ذلك الحين أنها مع الصورة هي كل ما سيتبقى منه.

علمت أنيت أن الحزب الشيوعي المعارض قد أصدر مجلة اسمها "ضد التيار"، فبحثت عنها في كتالوغ الكتب الممنوعة ولم تجد شيئاً، فتوجهت إلى أمينة المكتبة، التي أخبرتها بوجود قائمة كتب حصرية لا توجد حتى في "قاعة السم". إنها موجودة في مكتب مدير المكتبة وتحتاج إلى إذن خاص استثنائي للاطلاع عليها. استغرقت العملية بضعة شهور واحتاجت إلى بعض فنون الإقناع، إلى أن حصلت أنيت على الإذن المنشود. عندما وضعت موظفة المكتبة أمامها المجلدات السنوية المغبرة قالت لها إن هذا العنوان لم يطلبه أحد منذ مدة طويلة. قلّبت أنيت عبر صفحات العدد الأول الذي صدر في نهاية عام 1928. لم تجد سوى نصوص، لا وجود لصور، مع تكرار نداء مؤطر وموجه إلى القراء ليتبرعوا بالمال كي تستمر المجلة في الصدور. وشعار المجلة لفت نظر أنيت: "من يريد الرجوع إلى الينابيع، يتوجب عليه السباحة ضد التيار". وأعجبها جداً.

بحثت في ثبت الأسماء عن داغوبرت فلم تجده. لكن المؤلف الذي يتردد اسمه كثيراً في قسم الاقتصاد هو إريش لِسينغ، ويُختصر غالباً إلى "إ.ل"، ومرة وردت إشارة إلى جانب الاسم تقول: الخبير الاقتصادي من دوسلدورف. فهل كتب داغوبرت باسم مستعار؟ طلبت أنيت مجلداً من مجلة الحزب الشيوعي في دوسلدورف "حرية"، التي كتب لها داغوبرت حتى فصله من الحزب. وهنا أيضاً كانت معظم المقالات الاقتصادية باسم "إ.ل" إنه هو إذن.

استنتجت أنيت معلومات كثيرة من المجلة عن تاريخ جدها. كان سبب الشقاق بين داغوبرت والحزب الشيوعي الألماني هو قرار الأممية الشيوعية في آب/ أغسطس 1928 بالإعلان عن أن حركة الاشتراكيين

الديموقراطيين هي العدو الرئيس للحركة الشيوعية. وقد ورد في مادة صادرة عن مؤتمرٍ انعقد في موسكو أن الاشتراكيين الديموقراطيين هم كحد أدنى في مثل خطورة الفاشيين وسوئهم. وطولب العمال الشيوعيون بالانسحاب من الروابط النقابية وتأسيس روابط ثورية خاصة بهم. كان داغوبرت مشاركاً في مؤتمر موسكو، ووصف القرار لاحقاً في مقال بأنه "سياسة تُقارب الجنون"، لأنه يقسم الطبقة العاملة ويمهد بذلك الطريق لصعود النازية. كثير من الرفاق كان لهم الرأي نفسه، وحينها طرد مئات منهم من الحزب، لأنهم أصروا على رأيهم المنحرف. قائدا حركة المعارضة هما هاينريش براندلر وأوغوست تالهايمر، وقد كانا كلاهما في مطلع العشرينيات في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الألماني، ثم أقالتهما موسكو بسبب مواقف خاطئة. لقد انطلقا من أن غالبية العمال تتبع الحزب الاشتراكي الديمقراطي والنقابات، ولذلك من المهم أن يكون العمل مشتركاً. مثل هذه الآراء كانت محتملة حزبياً حتى 1928، ولكن بعد مؤتمر موسكو حدث تغيير في الاتجاه، أطلقت عليه تسمية "بلشفة" الحزب، وهو عملياً إلغاء الديمقراطية الحزبية، ليس إلا. حتئذ، حسبما عرفت أنيت من المجلات القديمة، كانت هناك دائماً نقاشات حادة في إطار الحزب. فكانت الكتل الحزبية المختلفة تتجادل وتتنازع فيما بينها، دون أن يُدين طرف الآخر أو يُكفره ويعتبره عدواً. ولدهشتها قرأت في مقالة أن ممثلي الأقلية كانوا يُمنحون وقتاً أطول للكلام كي يتمكنوا من عرض مطالبهم بالتفصيل.

لقد ذهلت أنيت من أن هذا النوع من الديموقراطية كان موجوداً ذات يوم في الحزب. فهي لا تعرف سوى الضغط لتحقيق الإجماع، والمعارضة تعادل عندها العداء. وداغوبرت عرف الحزب القديم، ومن هنا تمسُّكه وشركاؤه بآرائهم بشدة حتى النهاية. في أكتوبر/ تشرين الأول 1928،

سُرح داغوبرت من هيئة تحرير مجلة "حرية"، وبعد شهر بدأت في المجلة نفسها حملة "ضد كتلة براندلر- تالهايمر بقيادة الرفاق بيكّر وراوتنباخ ولوبينسكي وشترويِل". قرأت أنيت المقالات التي رافقت سقوط جدها. في ديسمبر/ كانون الأول ويناير/ كانون الثاني احتدت اللهجة، فلم يعد الكلام عن رفاق، بل باتت صفتهم "تصفويون يمينيون يقومون بأسلحة مسممة بتفكيك التربة تحت أرضية الحزب". وفي 8/ 1/ 1929، فصل داغوبرت من الحزب الشيوعي الألماني "بسبب استمراره في نشاطه التكتلي المعادي للحزب". وقد طُبع قرار الفصل بحروف سوداء عريضة في الـ"حرية". والجدير بالذكر أنها المجلة نفسها التي نشر غرهارد فيها مقالاته الأولى كصحفي بعد الحرب.

هذه اللهجة، وهذه الحدة الشديدة التي يُعاقَب بها "أعداء الطبقة العاملة" في الصحافة الحزبية، لا تبدو غريبة أبداً لأنيت. إنها اللغة نفسها والخطابة نفسها المشربة بالكراهية وحب التدمير، التي عرفتها بنفسها من داخل صحافة (ج.أ.د). والفارق هنا هو أن موضوع الكراهية واحد من أفراد الأسرة، واحد تعرف حقاً أنه ليس عدواً. واحد سيثبت التاريخ أنه كان محقاً، لأن استراتيجية الحزب الشيوعي الألماني بعد بضع سنوات فحسب، تبين أنها كارثية حقاً. فبسياسته ضيقة الأفق تجاه الاشتراكيين الديموقراطيين ساهم الحزب الشيوعي الألماني بصورة حاسمة في صعود هتلر، وجعل نفسه شريكاً في الذنب. لكن إدراك هذا الخطأ لاحقاً، لم يعنِ إطلاقاً، إعادة الاعتبار إلى أولئك الذين أرادوا تدارك هذا الخطأ منذ البداية. وتتذكر أنيت حلقة درسية عن تاريخ الطبقة العاملة، قال لها البروفسور فيها: «إن الحزب الشيوعي المعارض كان، بالرغم من كل شيء، على خطأ؛ لأنه لم يتقيد بقرارات الحزب». عدم الانضباط هذا كان أثقل وزناً من جميع الأمور الأخرى.

لم تعد أنيت قادرة على ترك جدها. إنه بالنسبة إليها البرهان على إمكانية أن يكون المرء مصيباً في وقوفه على الطرف الآخر. وأن الخونة المزعومين هم أحياناً الرفاق الأفضل. لقد حررها داغوبرت من خوف أن تصبح هي نفسها خائنة ذات يوم. وصار بالنسبة إليها مفتاحاً يُمكّنها من الهروب من "سجن الولاء"، وهذه هي تسميتها لهذا الشعور العميق الذي ربطها طويلاً بهذه الدولة. هذا الشعور الذي لا يجيز لها أن تؤذي (ج.أ.د)، لأنها الميناء الآمن الذي يوفر الحماية والراحة لوالديها المطاردين.

تقول أنيت اليوم إنها قد تماهت مع قَدَر والديها المطاردين، وهذا كان جوهر تبعيتها. والآن ظهر فجأة فرد آخر ينتمي إلى الأسرة وكان مطارداً أيضاً. كان شيوعياً جيداً، لكنه على الرغم من ذلك تبع قناعاته الخاصة، رجلاً له تاريخ بطولي، لكنه يختلف تماماً عن تاريخ أبيها. ومع هذا البطل الآخر، هكذا أحست، يمكنها أن تحرر نفسها من تبعيتها القديمة. وما أعاقها عن ذلك حتى الآن - التاريخ والعائلة - يمكنه أن يساعدها الآن في العثور على طريقها الخاص.

في 3/ 11/ 1936، اعتقل داغوبرت من بيته في دوسلدورف عند الساعة السادسة صباحاً من طرف رجال الغستابو. واتهم بالعمل في مجموعة شيوعية غير مرخصة قانونياً. آخر وثيقة ترتبط به وتملكها أنيت هي شهادة وفاته الصادرة عن بلدية آوشفيتس الثانية في نيسان/ أبريل 1943، وفحواها أن "الصحفي داغوبرت لوبينسكي قد مات في 22/ 2/ 1943 عند الساعة 6:45 في آوشفيتس، كازرِنِن شتراسِه".

لم يتم ترحيل داغوبرت إلى آوشفيتس بسبب عمله السياسي، وإنما لأنه يهودي. عندما بدأت أنيت تبدي اهتماماً بتاريخه، اطلعت أيضاً على تاريخ أسرته، التي عاشت في بريسلاو وبراغ وهامبورغ، والتي التأم شملها ثانية عام 1941 في غيتو مدينة ليتسمَنْشتات (حالياً في وسط

بولندا) وفي خريف 1942 تم ترحيلها مع عملية النقل الأولى إلى معسكر الإبادة خيلمنو، حيث قتلوا جميعهم في سيارات الغاز. صُعقت أنيت عندما علمت بذلك، لأنها كانت مطلعة فقط على تاريخ أقارب أبيها من اليهود، ومعظم هؤلاء تمكنوا في الوقت المناسب من توفير مأوى آمن لأنفسهم. نجت زوجة داغوبرت من الإبادة لأنها آرية، وابنتاه نورا وهَنّا نجتا أيضاً لكونهما "خليطاً من الدرجة الأولى"، وقبيل الترحيل مباشرة. حتى الآن لم تكن أنيت تعرف شيئاً عن شهور الخوف التي عاشتها أمها نورا لأن اسمها في خريف 1944 كان على قائمة الترحيل، ولم تعرف ما إن كانوا سيأخذونها في الرحلة التالية. ثمة مالكٌ لورشة صنع فخار يدوي في فسترفالد خبأها عنده. عرض عليها تركها في حفرة الصلصال مع طعام وشراب إن دعت الحاجة لذلك. بعد يوم واحد من تقدم الأمريكان في فسترفالد طالبها الرجل باعتراف خطي بمساعدته لها. كان الرجل عضواً في الحزب النازي وفي قوات العاصفة "إي.إس"، وإنقاذ نصف يهودية كان سينقذه من مشاكل كثيرة.

لأول مرة تشعر أنيت بكونها جزءاً من أسرة يهودية، وكان الشعور غريباً. بصفتها مؤرخة اعتادت أن تراقب الأحداث من مسافة، فإذا بالتاريخ يدركها. ولم تدر كيف ستصنف نفسها في هذه الأسرة. إنها بطريقة ما تنتمي إليها، ولكن أن تضع نفسها في نسق واحد مع الموتى، فقد رأت في الأمر جسارة. والداها نحّيا ونسيا تراثهما اليهودي، وحتى داغوبرت، بطلها الجديد، رفض أي صلة بأصله. وقد قال لبناته إن الاندماج هو الطريق الوحيد لليهود في ألمانيا. ذهبت أنيت إلى مكتبة الجالية اليهودية وبدأت تقرأ. حاولت أن تسمي الأشياء بأسمائها بعيداً عن رهبة العواطف، ولكن بدلاً من الخروج من حالة الامتصاص العاطفي، جذبتها العواطف أعمق فأعمق. التقت في مكتبة الجالية بأبناء ناجين آخرين. وأدركت أن

هذا كله يصعب إبعاده عن الذات ببساطة، وأن الوقت قد تأخر لمعاينته بنظرة موضوعية من مسافة. إنها في خضم تاريخها. وذات يوم سألها واحد من الجالية عمّا إذا كانت تريد أن تصبح عضوة، فأجابته بأنها منهمكة الآن في تحرير نفسها من عقيدة أخرى، "وفي هذا ما يكفي كلياً لحياة إنسان".

أذكر مرة التقيت فيها بأنيت في الشارع في كارلزهورست. أظن أني كنت في الخامسة عشرة. عندما رأتني أخذت تبكي. تعانقنا وأخبرتني أن ابن الخباز أوغُستين وصف أخي في المدرسة بـ"يهودي غبي". لم تكن لدي أي فكرة عن كيف خطر في بال أوغستين أننا يمكن أن نكون يهوداً. كذلك كان الأمر بالنسبة إلى أنيت، لكن الأمر شغلها جداً. وبعد أسبوعين قرأت في صف أخي من ذكريات أسير يهودي نجا من آوشفيتس. ومن بعدها هدأت الأمور. كان ذلك أيضاً هو الوقت الذي سألتُ نفسي فيه لأول مرة ماذا يعني بالنسبة إليّ كوني أنحدر من أسرة يهودية؟ شرحت لي أمي حينها أن اليهود لطالما كانوا دائماً أناساً بلا أوهام، ومن هنا فإن الأصل اليهودي لا يتحقق إلا عن طريق الأم، وليس عن طريق الأب. فالأب ثقة فحسب، في حين أن الأم حقيقة ماثلة للعيان. وبما أن الجدين فقط في أسرتها يهوديان، فالقليل جداً هو ما تسرب إليّ. وفي الكتاب الذي نشرته أنيت عن الجد داغوبرت قالت حول ما تعنيه مسألة اليهودية بالنسبة إليها: "ربما شعور بوصمة العار، التفكير في الذين قتلوا، وفي الناجين الذين توزعوا في جميع أنحاء العالم، وفي شيء من الغربة تجاه نفسي". أنا أرى هذا الوصف جميلاً.

في آذار/ مارس 1982، كان أمام أنيت حوار حزبي، هو بمثابة اعتراف روتيني سنوي للرفاق المؤمنين بالعقيدة الحزبية. جلست في غرفة من غرف الحلقات الدرسية في البناء الرئيس لجامعة هومبولت، وفي قبالتها ثلاثة رفاق من قيادة الحزب. وكانت قد حسمت أمرها على أن تقول هذه

المرة كل شيء، وأن تضع في الحسبان فصلها من الحزب، إن لم يكن هناك حل آخر. تحدثت أنيت عن أمور كثيرة لا توافق عليها، عن الأكاذيب والتفكير الجامد، وعن الإيديولوجيا التي في لحظة ما تجمدت. قالت إن لديها شكوكاً عديدة وعميقة. إنها تصغي لما تقوله وتحس الكلمات المنطوقة، التي تفلت من فمها لا إرادياً، على ما يبدو. وفكرت في أن أمراً سيئاً سيحصل الآن لا محالة. ولكن لم يحدث أي شيء. ابتسم الرفاق بود وقالوا إن لكل رفيق بالتأكيد شكوكه ومشاكله. المهم هو أن تبقى في أعماق قلبها اشتراكية. بدا الأمر وكأن ثمة ما قد تغير جداً. إن الحزب يلين. وكان جلياً أن لا أحد ينوي رميها خارج الحزب. وهذه الخطوة عليها أن تتخذها وحدها. إلا أن أنيت لم تفكر في ذلك مطلقاً. لقد تخففت وارتاحت لقدرتها على الاحتفاظ برأيها وأن تبقى رفيقة في الوقت نفسه.

بعد أن أنهت أنيت أطروحة الدكتوراه، جاءها عرض عمل من مجلة اسمها "المصوَرَة البرلينية الجديدة". في الواقع، لم تكن لديها رغبة في العمل الصحفي في (ج.أ.د)، ومن ناحية أخرى عليها أن تقوم بعمل ما. فقررت أن تجرب ولآخر مرة. ولكن سرعان ما تبين أن الأمور ليست على ما يرام، فقد باتت داخلياً بعيدة جداً عن هذه الأجواء. في ربيع 1986 كلفتها المجلة كتابة مقال عن نصب ماركس – إنغلز الذي وُضع قرب برج التلفزيون في وسط برلين. النصب في رأيها بشع والنحات غبي. رتبت كلاماً معقولاً وقدمته، فإذا بالنقاط التي بدت لها مهمة قد شُطبت، كما تغير العنوان ليصبح "ذاكرة الطبقة العاملة". مساء عندما غادرت مكتب التحرير، كانت قد اقتنعت بأنه لا مجال لحل وسط بعد الآن. قدمت استقالتها وبقيت في البيت منذ اليوم التالي. لم يعد هناك مجال.

في المسكن في كارلزهورست توجد شرفة جميلة ذات نوافذ كبيرة من ثلاث جهات، وأمام النوافذ تنتصب أشجار حور قديمة. وفي هذه الشرفة

تريد أنيت أن تعمل. ويبدأ فولف بتحويل مجموعة رفوف خشبية إلى مكتب ومكتبة. إنه مسرور لقرارها أخيراً بأن تعمل في البيت، حسبما نصحها دائماً: "أتشعرين بهذه الحرية؟" يسألها، وتبكي لشعورها بأنها ضائعة. تعرف أنيت أنها قد تركت كل شيء وراءها وأنه لا عودة هناك. لم يتبق لها من دعم سوى ذاتها في عالمها الصغير. يمكنها طبعاً أن تفعل الآن ما تريد، ولكن ما الذي تريده في واقع الأمر؟ استغرقت وقتاً حتى قررت أن تؤلف كتاباً عن داغوبرت، فهو في نهاية المطاف شريك معها في الذنب عن أنها لم تعد قادرة على التعامل مع الخارج في (ج.أ.د). وصورته التي كانت على رف غرفة المعيشة عند والديها، باتت موجودة الآن على مكتبها. لقد أصبح الجد المنبوذ رفيق دربها.

21. اعترافات إيمان

بعد أسبوعين من صياح فولف في وجه مديرتي رايشنباخ، بسبب الرمي بالمسدس الرشاش، بلغنا خبر رفض طلبي للتقدم للشهادة الثانوية. تسبب هذا في حزن فولف الشديد، لظنه بأنه المذنب الحقيقي في المسألة. جاء في كتاب المجلس المدرسي لحيّنا: "هناك بين المتنافسين من يحوز قدرات إنجاز دراسي أعلى مترافقة مع سلوك مثالي". كانت القاعدة المتبعة غالباً أن أفضل اثنين من كل صف يحق لهما متابعة المرحلة الثانوية. وهذان في صفي هما كريستيانِه وشَفِن، وهما حقاً أفضل مني. ففي مقرري اللغة الروسية والرياضيات كانت علامتي (مقبول)، أما سلوكي فكان (تحت المقبول). على الرغم من ذلك قدمت أنيت اعتراضاً، وقالت إنها لا يمكن أن تسمح لهذه الدولة بأن تجعل من ابنها عاملاً. وكتبت للمجلس المدرسي مهددة بأنها ستحتج لدى إريش هونيكر، إن لم يُسمح لي بالتقدم للثانوية. لكن يبدو أن المجلس لم يتأثر بالتهديد، وبقي الرفض ساري المفعول. رجوت أمي ألا تكتب لإريش هونيكر، لاعتقادي بأن الأمين العام للحزب لديه من المشاغل ما هو أهم من تأمين مقعد مدرسي لي.

مسألة الشهادة الثانوية هذه كانت صعبة علينا كلتا. أنا لم أعرف ما عليَّ فعله بعد الإعدادية، وتبين لأنيت أن هذا البلد لا يصلح لأولادها،

واستمر فولف في ظنونه بأنه المذنب الوحيد. أنا شعرت لأول مرة بسلطة هذه الدولة التي تحدد بكل بساطة مَن من رعاياها سيمشي في هذ الطريق ومَن في ذاك. كما فكرت لأول مرة أيضاً في الطريق الذي سيكون عليَّ أن أسير فيه. فحتى الآن كان كل شيء منظماً وجلياً، وفجأة احتاج الأمر إلى اتخاذ قرارات.

كل مَن سُد أمامه طريق الثانوية، عليه منذ السادسة عشرة أن يبدأ بتعلم مهنة. ويُمنع في (ج.أ.د) ألا يفعل المرء شيئاً. في واقع الأمر كنت أخطط لأصبح كيميائياً، لأن الكيمياء مسلية ولا علاقة لها بالسياسة. ويحتمل أن اهتمامي بالكيمياء نابع من أن صديقي سفن يريد أيضاً أن يغدو كيميائياً. استفسر كلٌّ من أنيت وفولف وحصلا لي على مكان تدريب كعامل في مختبر كيميائي في أكاديمية العلوم. وكانت الخطة أن يوفدني مكان عملي لاحقاً لدراسة الكيمياء. وحتى ذلك الحين يجب أن أتعلم هذه المهنة. توفر الجانب العملي في "معمل كيمياء برلين المؤمم" في حي آدلرزهوف. يبدأ الدوام في السابعة صباحاً، أي أن عليَّ الانطلاق من البيت في السادسة. وفي هذا الوقت يكون الترام الذاهب من كارلزهورست إلى شونـفايده مكتظاً، فعلى المرء أن يشق لجسمه حيزاً بالقوة. حتى ذلك الحين لم أكن أعرف أن كثيراً من الناس ينطلقون إلى أعمالهم في هذا الوقت المبكر. معظمهم كانوا عمالاً في طريقهم إلى "معمل الكبلات أوبرشـلريه". وجوههم شاحبة وعيونهم تحدق في الخواء، وبعضهم ينام واقفاً. بعد سنة أتقنت ذلك أنا أيضاً. الوضع الأسوأ كان شتاءً عندما يكون الصباح مظلماً بعد، والدرب من بوابة المعمل حتى قاعة الإنتاج لم يكن خالياً من الأخطار. ثمة أنابيب صدئة تنفث غازات كريهة الرائحة، وعلى المماشي كانت تجري جداول صغيرة من سوائل كاوية. وإن كانوا في ذلك الوقت ينتجون أنسولين لمرضى السكري فكانت تفوح رائحة مشيمة خنزير عطنة.

كان معلم المهنة يصر على الانضباط في مواعيد الشغل، ولأني غالباً أتأخر قليلاً، كان عليَّ كعقوبة تنظيف أكبر مراجل الخلط.

هذه النقلة من الطفولة المحمية إلى واقع (ج.أ.د) شكلت بالنسبة إليَّ صدمة. شعرت بنفسي ضائعاً، في مكان لا أنتمي إليه قطعاً. فكرت في الآخرين الذين يدرسون الآن في الثانوية، بغرفة الصف المُدفأة والنظيفة، بالكتب، بالفخر الذي لا بد أنهم يشعرون به لانتمائهم إلى الأوائل. نظرت إلى زملائي بستراتهم القطنية المنفوخة، إلى الأشجار الشاحبة من غبار الكلس، وإلى سحابة الدخان الكثيف المعلقة فوق المعمل. تراءى لي هذا الواقع لاواقعياً كلياً، مبالغاً في بؤسه وسوئه. لم أعد أريد العمل في هذا المعمل، لم أعد راغباً في أن أصير كيميائياً، لم أعد أريد شيئاً سوى الخروج. كنت مثل ولد مدلل، عليه أن يمشي خطواته الأولى وحده فيتعثر منذ البداية. وأدركت فجأة مدى نأي عالم والديَّ عن بقية ما يجري في هذا البلد، وإلى أي مدى كنت مظللاً بالحماية في الفضاء الثقافي بعيداً عن الواقع. وفهمت الآن إصرار أبي على العمل في البيت، مستقلاً، ولماذا أرادت أمي أن تحول دون أن أصبح عاملاً. أصدقاء أهلي كانوا مصورين ورسامين ومصممين ومعماريين أو أطباء. وكانوا يعيشون جميعهم بعيداً جداً عن الحياة اليومية في (ج.أ.د)، بمنأى عن جموع الشغيلة التي تُبقي هذا البلد متحركاً. بدوت لنفسي مثل منبوذ، مثل منفي إلى الواقع.

حتى في المدرسة المهنية كانت الأجواء مختلفة عما تخيلت. الأستاذ تُم مدرس الثقافة الوطنية، وهو رجل طويل عريض بلحية، يعلّم الرياضة كمقرر ثانٍ، كان يرى أنه لا بد للإنسان من موقف طبقي. ولم يكن يكتفي بأن نحفظ غيباً السخافات التي يدلقها على رؤوسنا، بل يطالبنا باعترافات إيمانية، ومن يخونه صوته، فسيكون وضعه عسيراً في المدرسة، لأن الأستاذ تُم كان في الوقت نفسه المسؤول الحزبي، ولم يجرؤ أي مدرس

هناك على معارضته. ولأنني اعترفت مرة بأني أشاهد تلفزيون الغربية بهدف الاطلاع، سرعان ما جعلني الأستاذ تُم عدواً. فاستدرجني إلى نقاشات يجيد توجيهها، بحيث أني في لحظة ما لم يعد في وسعي إلا أن أبوح له بأفكاري الحقيقية الخائنة. وعندها هز برأسه منتصراً مثل شرطي ضبط لصاً بالجرم المشهود، وأغمض عينيه حتى لم يبق منهما سوى شقين، وقال إنه سيخضعني ويجعلني طيعاً مثل إبهامه، وأراني أصبعه الثخين. حتى اليوم ما زلت أفكر أحياناً في تلك النقاشات، متخيلاً أني أنا مَن يوجهها ويديرها رامياً في وجهه حججي الفولاذية. وفي مخيلتي يجلس الأستاذ تُم في الختام مذهولاً عاجزاً عن مواجهة براهيني. أما حينذاك فالأقرب إلى الحقيقة هو أني كنت في الختام أجلس كالأخرس مدارياً دموعي. لقد نجح في تخويفي، وفي جعلي طيعاً نوعاً ما.

نصحتني أنيت بدراسة المرحلة الثانوية في المدرسة المسائية. كان هذا ممكناً إن امتلك المتقدم مهنة. وفي حالات استثنائية كان يمكن قبول المتدرب. سألتني مديرة المدرسة المسائية في حي تريبتوف، كيف سأوفق بين الأمرين؛ المدرسة المهنية ودراسة الثانوية، وقالت: «لن تتحمل العبء». لكني أردت على الأقل أن أحاول. يمتد تعليمي المهني من السابعة صباحاً حتى الرابعة، وتمتد دورة الثانوية من الخامسة حتى العاشرة مساء. وبكل صراحة ما زلت حتى اليوم لا أعرف كيف احتملت طوال ثلاث سنوات. لقد أردت بأي ثمن العودة إلى عالمي، ولم يكن هذا ممكناً دون الشهادة الثانوية.

في اليوم الأول في المدرسة المسائية، في ربيع 1987، كانت قاعة الصف مكتظة بالطلاب، لدرجة أن المقاعد لم تكف الجميع، فقالت لنا معلمة الفيزياء، ألا نهتم للأمر كثيراً، فخلال شهر كحد أقصى سيكون لكل منا مقعد لوحده. وهذا ما حدث. أخذ عددنا يتناقص أسبوعياً، إلى

أن بقينا 15 طالباً فقط. أستاذ الثقافة الوطنية كان اسمه إكي، وأصر على أن ندعوه باسمه. كانت له لحية وعينان صغيرتان هادئتان ويلبس صندلاً مع جوارب صوفية سميكة. كتب على السبورة في حصته الأولى قولاً للشاعر هاينريش هاينه: "نحن في حاجة إلى ألمانيا موحدة، موحدة خارجياً وداخلياً". أمضينا حصة كاملة في مناقشة هذه الجملة، التي بدت لي خطيرة، لدرجة أني لم أجرؤ على تدوينها في دفتري. لم يسبق لي قط حتئذ أن فكرت في احتمال توحيد الألمانيتين مجدداً. لأن هذا يعني أن (ج.أ.د) بطريقة ما ستتلاشى، وهذا ما لم أكن قادراً على تصوره. شرح لنا إكي أن من المهم في الفلسفة التفكير فيما هو خارج نطاق التصور، وإلا لعلق الإنسان في الحاضر إلى الأبد. "لنجرب أن نكون الآن فلاسفة ونفكر فيما يحتمل أن يأتي بعد (ج.أ.د)". تكهربنا جميعنا، إذ لم يسبق لأي منا أن حضر درس ثقافة وطنية بهذا المنحى. رسم إكي على السبورة تخطيط لائحة وطلب منا أن نذكر مزايا ومساوئ (ج.أ.د) التي تخطر في بالنا خلال دقيقة واحدة. الغريب أنه لم تخطر في بالي في تلك اللحظات سوى المزايا، لأننا حفظناها عن ظهر قلب. وهذا هو ما جرى للآخرين أيضاً. بقي الشطر الثاني من اللائحة فارغاً، فقال إكي: «يبدو أنها بلد نموذجي». وكتب في فراغ الشطر الثاني: "لا يجرؤ التلاميذ على قول ما يفكرون فيه". لم نرغب في أن تلتصق بنا هذه الصفة، وأخذنا في تعدادٍ مطولٍ للمساوئ: لا حرية رأي، لا حرية سفر، الفواكه قليلة جداً، لا انتخابات حرة، جينزات من نوعية سيئة، لا حرية صحافة. كانت هذه أهم النقاط في ذاكرتي. جلسنا هناك مستثارين، بوجوه متوهجة، فلأول مرة نتمكن من أن نقول في المدرسة ما نفكر فيه حقاً.

والمعلمون الآخرون في المدرسة المسائية كانوا مختلفين عن أولئك الذين عرفناهم حتى الآن. وتبين لنا من ثم أن بعضهم لم يعد مسموحاً له

الاستمرار في التعليم في المدارس الثانوية العادية نهاراً، وحولوهم إلى المسائية، ولكن بنظام المكافأة وليس الراتب. معلمة اللغة الألمانية السيدة بيتس أحضرت معها كتباً للسوفيتي بولغاكوف وقرأت لنا منها. ومعلمة اللغة الروسية أسفت لعدم رغبة أي منا في التكلم بالروسية، لكنها تفهمت ذلك، وصارت عند المذاكرات تغادر القاعة لنتقل من وريقات الغش بهدوء. بعد سنتين لم يتبق في الصف سوى ثمانية طلاب. وكلما قلّ عددنا اشتد تآزرنا وتماسكنا. صرنا نلتقي في العطلة الأسبوعية ونحل فروضنا معاً، فكنت أساعدهم في الكيمياء والألمانية، وأتلقى دعماً في الروسية والرياضيات. كان هؤلاء الزملاء نماذج ظريفة وطريفة. أحدهم كان يعمل حارساً في ملجأ للأطفال وهو مصر على دراسة الموسيقى. وهناك خياطة في مسرح تريد أن تصبح مصممة نسيج. كلّ منا رسب لسبب ما في النظام التعليمي لـ (ج.أ.د)، لكن كلاً منا لا يزال أمامه هدف حياتي.

قبل عيد الميلاد 1986 بفترة قصيرة، سألني غرهارد إنْ كانت لدي الرغبة في مرافقته في رحلة صيفية إلى فرنسا. قال إنه يريد أن يري أحفاده أماكن نضاله مع المقاومة الفرنسية، وبما أنني الأكبر فسأكون الأول. دُهشت في البداية لدرجة أني لم أستطع أن أعلق ولو بكلمة. فأن يقوم ابن ستة عشر عاماً برحلة إلى الغرب لم يكن أمراً عادياً في (ج.أ.د)، كما لو يظهر إريش هونيكر بتسريحة وغدٍ من شباب البانكي. وقال غرهارد إن أحد معارفه في المكتب السياسي للحزب سيدبّر الإذن، وعليَّ حتئذ تحسين لغتي الفرنسية، كي لا أخجله هناك. بعد شهر استدعيت إلى رئاسة الشرطة في ساحة ألكسندر. في الطابق الأرضي وقف الناس في صفوف طويلة منتظرين دورهم لتقديم طلبات السفر. كان غرهارد قد أخبرني أن آخذ المصعد إلى الطابق الثاني، حيث يوجد مكتب استثنائي لطلبات السفر. هنا كانت الأرضية مفروشة بألواح خشبية لماعة ودون صفوف انتظار. في

غرفة الانتظار لم أجد أحداً سوى فرانك شوبل أحد نجوم الغناء الحديث في (ج.أ.د)، والذي له صلاته أيضاً على ما يبدو. بعد برهة نودي اسمي وطلبت مني شرطية ودودة ببذلة رسمية حمراء أن أضع توقيعي على جواز سفري، ثم سألتني كم سأبقى في فرنسا وعن النقطة الحدودية الأنسب لي للمغادرة. بدا الأمر وكأن قضاء الصيف في فرنسا من أبسط البدهيات الاعتيادية. بعد عشر دقائق كنت في المصعد ثانية ومعي جواز سفر أزرق مع تأشيرة خروج. كان يفترض بي في الواقع أن أصبح فرحاً، لكني كنت كالمشلول. كل شيء كان غير واقعي، غرفة الانتظار هذه والشرطية الودودة. كيف صار فجأة تخطي الحدود الكريهة بهذه البساطة؟ بمكالمة فحسب فتح غيرهارد الجدار أمامي.

أبلغ المكتب السياسي مدرستي المهنية برحلتي المزمعة إلى فرنسا. استُدعيتُ إلى السيدة المديرة، التي كانت متأثرة جداً ومنحتني أسبوعين إضافيين. إلا أن الأجمل من ذلك كان وجه الأستاذ تُم، معلم الثقافة الوطنية، الذي فقد القدرة على فهم العالم. كيف يُسمح لواحد مثلي بالسفر إلى الغرب؟ حاول ألا يبدو عليه شيء، ولكن كان جلياً أن السيد تُم يشكك لأول مرة في حياته بقرار من المكتب السياسي.

انطلقنا في مطلع تموز/ يوليو بسيارة غرهارد السيتروين بَللاس جي إس آ، ذات اللون البني الفاتح، وكلما اقتربنا من الحدود في مارينبورن، قلّت السيارات على الأوتوستراد. قرأتُ على يافطة "المخرج الأخير إلى (ج.أ.د)". لكننا تابعنا طريقنا ولم نعد نرى سيارات شرقية، على الرغم من أننا ما زلنا في الشرقية. تقدمنا خطوة فخطوة من حواجز الأسلاك الشائكة والدبابات فإلى الجنود بمسدساتهم الرشاشة وراء الحواجز المعدنية. فتح غرهارد راديو السيارة على محطة تبث موسيقا كلاسيكية وصار يرافق اللحن همهمة، وهذا ما لم يفعله سابقاً قط. ربما كان محرجاً لرؤيتي

الحواجز والمتاريس التي تحيط البلدُ نفسها بها، ولمشاهدتي ما تبقى من حلمه بالاشتراكية.

دقق أحد حراس الحدود جوازينا وسمح لنا بالمتابعة. سألت غرهارد ما إذا صرنا في الغربية، فأجابني بسؤال: ألا تشم أن رائحة الهواء هنا مختلفة عنها في بلدنا؟ وضحك. أظنها المرة الأولى التي سمعت منه فيها نكتة عن (ج.أ.د).

سافرنا أولاً إلى العمة هنّا في دوسلدورف، إلى المدينة التي ولدت فيها أمي أنيت. أعطتني العمة هنّا خمسين ماركاً غربياً، فخرجت أتمشى قليلاً واشتريت علبة سجائر ماركة الجمل، وشعرت بنفسي عظيماً. في اليوم التالي تابعنا طريقنا عبر مدينة آخن نحو بروكسل، وذهلت لعدم وجود نقطة تدقيق جوازات على الحدود إلى بلجيكا. وحكى لي غرهارد كيف هرب آنذاك مع والديه قرب آخن عبر الحدود البلجيكية. أنصت إليه، لكني كنت عملياً منشغلاً جداً باستيعاب كل جديد تراه عيناي: الألوان والروائح والسيارات. في بروكسل أكلنا قواقع مع بطاطا فرنسية مقلية، وأوضح لي غرهارد أنه مع والديه آنذاك قد أكلوا قواقع أيضاً.

لم يتبين لي إلا اليوم أن هذه الرحلة ما هي إلا تعقب آثار تاريخي. فالأمر لم يتعلق بالغربية والغرب، وإنما بتاريخ غرهارد. يحتمل أن أمله بي قد خاب قليلاً، لأن اهتمامي بالماضي حينذاك كان أقل بكثير من اهتمامي بالحاضر. "الرايخ الثالث" كان أمره سيان بالنسبة إليَّ. فقد كنت لأول مرة في الغرب، وهذا هو المهم.

عندما وصلنا بعدئذ إلى فرنسا أضحى غرهارد إنساناً آخر، صار فجأة مسترخياً وفكهاً، يحكي بلا توقف ويبدو كمن استعاد شبابه. بدا في أفضل أحواله هنا وليس في (ج.أ.د). حينذاك لم أفكر في الأمر كثيراً، لكني أعتقد اليوم أنه في فرنسا يشعر بنفسه في بلده، في بلد شبابه محاطاً بالحكايات

والمغامرات القديمة، بذلك الزمان الذي كانت الحقيقة التاريخية فيه لا تزال بسيطة. من المؤكد أن ليس من باب الصدفة كونه أمضى معظم حياته في الخارج وأنه أراد دائماً أن يخرج. وحتى عندما كان يقنع نفسه بأن هذه الدولة الألمانية الشرقية مناهضة للفاشية ومتفوقة تاريخياً، كان يعرف حق المعرفة أن في (ج.أ.د) يعيش ألمان هللوا لهتلر. وماذا عن تحقيق التماثل في التفكير الذي انتهجته (ج.أ.د)، ألا يبدو بالنسبة إليه مألوفاً بطريقة ما؟ أولم يقشعر جسمه عندما كانت مواكب الشبيبة الألمانية الحرة تسير على طول شارع ستالين المشجر حاملين المشاعل؟

وكذلك فإن الكراهية غير المنضبطة ضد إسرائيل في البروباغندا الألمانية الشرقية، ما كان يمكن أن تتركه هادئاً. في ملف غرهارد لدى أمن الدولة هناك ملاحظة تعود إلى حزيران 1967 تشير إلى حادثة وقعت في التلفزيون الألماني الشرقي. في ذلك الوقت كان غرهارد يُعد ويقدم برنامجاً في السياسة الخارجية عنوانه "بموضوعية"، ويُبث مرة شهرياً. وقد ورد في ملاحظة لدى شتازي: "بصدد برنامج "بموضوعية" اليوم، تم تحضير مقال يفضح الأسباب الخفية لعدوانية دولة إسرائيل. ويقدم المقال الدليل على أن دولة إسرائيل هي رأس حربة الإمبريالية العالمية في المنطقة العربية وتوسِع على نحو منتظم مهماتها الموجهة ضد العرب لمصلحة احتكارات النفط. لكن الرفيق ليو أوضح قائلاً: ما هكذا يُعالج الأمر. ورفض قراءة المقال في بث اليوم، زاعماً أنه معادٍ للسامية. ومن المعروف أن غرهارد ليو من أصل يهودي، ويُرجَح أن له أقارب في إسرائيل. فلم يتم بث برنامج "بموضوعية" بتاريخ 15/ 6/ 1967، وتم عرض مقاطع من تظاهرة الانتخابات في لايبتزيغ مع الرفيق فالتر أولبريشت بدلاً عنه، حيث ورد فيها أيضاً ذكر سياسة إسرائيل العدوانية. إن غياب برنامج "بموضوعية"

عن موعده يعتبر حدثاً فريداً ولا مبرر له. لذلك تم تجريد ليو من وظيفته في التلفزيون فوراً".

ترى ما الذي انعطب في داخله عندما اضطر فجأة لاتخاذ موقف اليهودي ثانية؟ هو الذي كان بوده نفض كل هذا عن كاهله، يضطر إلى الدفاع عن إسرائيل، لغياب مَن يدافع عنها، لأن معاداة اليهود لم تزعج أحداً سواه. لقد عوقب اليهودي لأنه لم يحتمل العداء للسامية. من الممكن أن يكون قد نحّى هذا كله جانباً، لكنه حتماً لم ينسه. إني أتصور علاقته بـ (ج.أ.د) في تلك المرحلة مثل زيجة تفاهم، لأن حبيبته تقيم في فرنسا.

لقد سحرته هذه الحبيبة خلال الأسابيع التي جلنا فيها عبر بلد شبابه. شربنا شمبانيا في كورّيز مع رفاقه في المقاومة، وعندما انتشى غرهارد أخذ يغني معهم الأغنيات والأناشيد القديمة. روى حكايات عن نساء جميلات وولائم عامرة. وعندما وقفنا في محطة القطارات في ألاسّاك، حيث حرره الفدائيون، بللت الدموع وجهه. بدا فجأة في منتهى الإنسانية وبالغ الحساسية، وسعيداً جداً. جلسنا في مطعم في المرفأ القديم في مرسيليا وطلب محاراً ونبيذاً أبيض وقال إني لا شك قد تعلمت في المدرسة أن الرأسمالية تشارف على الموت، ثم سكت لبرهة وابتسم وتابع: «ولكن عليك أن تعترف معي بأنه موت جميل». لم أعد أعرف جدي. عندنا في البلد كنت أحس بأن صدره مطوق بحزام فولاذي، وهنا، ها هو يجلس في الشمس ويبتسم مثل تلميذ مدرسة.

نزلنا ضيفين عند صديقه جيل بيرو، الصحفي والروائي المشهور في فرنسا، الذي يمتلك بيتاً ريفياً قرب أفينيون يشتمل على مسبح أيضاً. في هذا البيت المحاط بالكروم كان هناك ضيوف آخرون مثل ريجيس دوبري، وهو رجل قصير ممتلىء حكى لنا في أثناء العشاء عن كفاحه مع تشي غيفارا في بوليفيا. وحكى لنا أيضاً عن تمارا بونكِه من (ج.أ.د) التي

كانت تناضل مع غيفارا، وقال: «امرأة تلفت النظر، مناضلة حقيقية». لم أفهم كل ما قيل، لأن فرنسيتي لم تكن جيدة جداً، لكن ما فهمته هو أن كل مَن في هذا البيت يجد (ج.أ.د) رائعة. قال لي بيرو أن عليَّ الشعور بالفخر لكوني أعيش في بلد ثوري، لأن الثورة وحدها هي ما يحرر الإنسان. لم أجرؤ على معارضته، لرؤيتي كم تسعد هذه الجمل جدي غرهارد. لكنني لا أفهم الوضع كله. كيف يمكن لإنسان يعيش في فيللا كهذه أن يهيم بـ (ج.أ.د)؟ أم هل على المرء أن يجلس في فيللا كهذه كي يمكنه ذلك؟ أنا لا أدري ما هي الصورة التي لدى هؤلاء الناس عن (ج.أ.د)، ولا أعرف إنْ كانوا قد زاروها مرة. كشف لنا ريجيس دوبري سراً، إذ قال إنه يعمل مستشاراً للسياسة الخارجية لدى الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران الذي يُقدِّر (ج.أ.د) عالي التقدير أيضاً. وأضاف: «لولا (ج.أ.د) لكانت ألمانيا أكبر مما يجب». وذكّرنا بيرو بقول الكاتب فرنسوا مورياك: إنه من شدة حبه لألمانيا يحبذ وجود اثنتين منها. ضحك الرجال ورفعوا أنخاب بعضهم بعضا. وأنا من جهتي فكرت في أنه من الممتع أن يكون الإنسان ثورياً في جنوبي فرنسا.

في طريق الرجوع إلى (ج.أ.د) الثورية سافرت وحدي من دوسلدورف بالقطار، فهذا سيمكنني من التوقف بعض الوقت في برلين الغربية. أريد أن أرى الجدار، فهذه بالنسبة إليَّ هي ذروة هذه الرحلة، أن أرى الجدار من الجانب الآخر. أمضيت النهار كله ماشياً على طول الحدود، ألمس بيدي الإسمنت البارد الممتلىء بالرسوم الملونة من الجهة الغربية. صعدت عدة أبراج لأطل نحو الشرق وبقيت هناك ساعات. شاهدت قطاعات الموت المرتبة مثل شرائط متوازية، ودوريات حرس الحدود المتحركة، والثابتة في أبراج المراقبة وهي تراقبنا بالمناظير. رأيت كرة برج التلفزيون تلمع في الشمس. كل شيء كان قريباً جداً، ومع ذلك بعيداً نائياً.

ركبت الميترو الذي يعمل فوق الأرض خمس أو ست مرات ذهاباً وإياباً بين محطة فريدريش شتراسة ومحطة ليرْتر. تقع محطة فريدريش شتراسة في الشرقية، ولكن مَن يبقى على رصيف الميترو يمكنه العودة به إلى الغربية. لم أستطع الاكتفاء من شعور النوسان هذا، أن أركب إلى الشرقية لأعود منها فوراً. شعور مثير ومقبض في الوقت نفسه، مربك ومبهج، رائع ومحزن. أشعر بتسارع خفقان قلبي كلما عبر الميترو جسر نهر شبريه متجاوزاً مبنى الرايخستاغ الذي يرفرف فوقه العلم الهائل بألوانه الأسود والأحمر والذهبي. ما عدت أذكر أي السفرات كانت أحب إلى قلبي، المتجهة إلى الشرق... إلى الوطن – السجن، أم تلك المتجهة إلى الغرب... إلى الحرية الغربية. أفكر، كيف سيكون الأمر إنْ لم أعد، إن بقيت ببساطة في الغربية. يمكنني أن أفعلها الآن، ولن يعيقني عن ذلك أحد. لربما سأضطر إلى البقاء بضعة شهور في دار الأطفال إلى أن أبلغ سن الرشد. ولكن يمكنني تقديم الشهادة الثانوية الغربية وإيجاد صديقة غربية. أما إذا عدت فإني سأطلق ثانية، ولا مخرج. ولكن من الناحية الأخرى، ماذا سأفعل وحدي في الغربية؟ بصفتي لاجئاً لن يحق لي العودة ثانية إلى البيت، وعائلتي ستُمنع من السفر إلى أي مكان. ومؤكد أن غرهارد سيواجه مشاكل، وكذلك أنيت وفولف، فهل يستحق الأمر؟ لا أعرف.

قبل منتصف الليل بقليل، قبل انقضاء موعد تأشيرتي بدقائق، اتجهت بالميترو لآخر مرة نحو فريدريش شتراسه، بلا رجعة هذه المرة. مشيت عبر الدهاليز الطويلة المغلفة جدرانها بالسيراميك، والتي يجلس فيها متسكعون غربيون مع كلابهم، ويشربون الكحول من زجاجات كبيرة يشترونها من متاجر البضائع الخاصة التابعة لـ(ج.أ.د) في المحطة، لأن الكحول فيها أرخص من الغربية. مرّرتُ جواز سفري تحت لوح زجاجي فنظر إليّ شرطي الحدود نظرة متفحصة ثم نزل الختم بصوت مدوٍ على

ورق الجواز، وتابعت طريقي حتى الباب الحديدي الذي لا أكرة له إلا من الداخل. انخبط الباب ورائي مثل مصيدة الفئران. هَأنذا في الوطن مجدداً.

كان قراري صائباً طبعاً، بما أنني صرت في الوطن. ومن ناحية أخرى بت موقناً الآن أني أريد المغادرة إلى الغربية، حالما أبلغ السن التي تخولني البحث عن وطن جديد. ولم تكن هذه محض فكرة، بل خطة أنا مؤمن بتنفيذها.

عندما أخبرت أنيت وفولف ذات يوم بعد العشاء بخطتي، حل الصمت فجأة على الطاولة. ربما لشعورهما بمدى جديتي. بأني مستعد في لحظة ما لمغادرتهما. قالت أنيت إنها شخصياً لن تذهب قطعياً إلى الغرب، مهما حدث في الشرقية، لكنها تتفهمني. وإن عليّ ألا أقْدِم على خطوة دون تفكير، فما زال أمامي وقت. وحكى فولف عن وقوفه بنفسه في ذاك اليوم عند سور الأسلاك الشائكة في تِلتوف. كانت المرة الأولى التي أسمع فيها بهذه الحادثة منه. حكى عن أمه التي لم يرد تركها وحدها، ولم أعرف ما إذا كان ذلك رجاء كي لا أذهب.

يصعب عليّ الحديث حول أمور كهذه مع غرهارد. ربما لم يفكر حتى فيما فعله بي الرحلة إلى فرنسا. هو أراد أن يريني الأماكن التي ناضل فيها، وكنت أنا على وشك خيانة (ج.أ.د) - حلمه. ولكن كيف فكر يا ترى في تعاملي مع الأمر؟ أم أنه لم يكن قادراً على تصور أن مَن نشأ في الشرقية قد يريد المغادرة إلى الغربية؟

بعد رجوعي تبدت لي (ج.أ.د) أشد بؤساً مما كانت عليه، وطوال الأيام الأولى رأيت الشرقية ربما مثلما يراها الغربيون دائماً. وكأنما قد سلب أحدهم فجأة الألوان من الدنيا. حتى صور فرنسا، التي وضعتها للتظهير في متجر القرطاسية في كارلزهورست، بدت على ورق الشرقية شاحبة. صرت أرى كل شيء سخيفاً وبشعاً، وأعجبت بنفسي في دور

الرحّالة، الذي يُشعِرُ سكانَ بلده الهامشيين المساكين باحتقاره لأسلوب عيشهم. لكن المشكلة هي في عدم تحسن أي شيء. وأنا ما عدت أجد طريق الخروج من هذا الدور. إني أرفض أن أعود إلى طبيعتي. ربما لأن ذلك تراءى لي مثل انتكاسة أو هزيمة.

في ذلك الوقت، وكنت في السابعة عشرة، بدأت تلك اللعبة العجيبة، لعبة اختلاط الحلم والحقيقة، إلى أن لم أعد قادراً على التميز بينهما. لأني لم أعد أحلم بالغرب فحسب، وإنما لسلوكي وكأني غربي. كغربي في الشرقية. بدأت الحكاية مع خريطة للمدينة صادرة عن دار نشر فالك الغربية المشهورة، أحضرتها معي من برلين الغربية. بعد شهرين من عودتي كنت أقود أحد المعارف من ميونيخ كدليل عبر برلين الشرقية، وأنا أحمل بيدي الخريطة الملونة. فلفت نظري أن الناس ينظرون إليّ بطريقة مختلفة تماماً عن المألوف. إنهم يعتقدون على ما يبدو أني سائح من الغربية، وولّد هذا في داخلي شعوراً رائعاً. هذه الطريقة التي ينظر بها الشرقيون إليّ من زوايا أعينهم، وكيف تلاحقني نظراتهم بفضول، جعلتني سعيداً.

لست متأكداً في الواقع مما إذا كان الأمر، لربما، يتعلق فقط بالغربي الحقيقي، الذي كنت دليله عبر المدينة. ولهذا السبب سألت زميلين من المدرسة المهنية عما إذا كانت لديهما الرغبة في لعب دور الغربي، على سبيل التجربة بعد الدوام. كانت لدى أحدهما نسـخة قديمة من جريدة "فرانكفورتر ألغيماينه تسايتونغ"، جلبتها عمته معها قبل سنوات. لبسنا ثلاثتنا جينزات غربية، الأمر الذي يسهل الأداء، ثم انطلقنا برفقة الخريطة والجريدة إلى بوابة براندنبورغ وأخذنا نتحادث بصوت عالٍ عن أن الحدود من الجانب الشرقي تبدو مختلفة كلياً عما هي عليه من عندنا. وفوراً أحاطت بنا تلك النظرات. قمنا بزيارة للكاتدرائية الفرنسية وتركنا السكان المحليين يرشدوننا إلى الطريق. أخذت طوال الوقت أتحدث بلكنة غربية

بعيدة عن عامية برلين وبصوت أعلى من الطبيعي. وصرت أمرر بين الحين والآخر بعض المفردات الرائجة بين الشباب في الغربية. جلسنا في مقهى الأوبرا وسألنا عما إذا كان في وسعنا أن ندفع بالمارك الغربي، ما أدى إلى نزاع بين النُدل، لأن كلاً منهم أراد خدمتنا. وفي الختام كانت خيبتهم كبيرة، لعثورنا على بعض الماركات الشرقية المتبقية من تبديل العملة الإجباري على الحدود، حسبما قلنا.

أخذنا نطور لعبتنا باستمرار كغربيين، مرة في الأسبوع. سافرنا مرة إلى قصر سانسوسي في بوتسدام، ومرة إلى المقبرة اليهودية في فايسنزيه، صعدنا إلى برج التلفزيون وزرنا متحف برغامون، مثلما يفعل الغربيون عندما يزورون الشرقية. ابتكر كل منا لنفسه سيرة ذاتية غربية، كي لا نضطرب في أثناء الحديث مع الشرقيين. فجعلتُ أمي صحفية في مجلة "شتِرن"، وأبي مالكاً لصالة عرض أعمال فنية في شارلوتنبورغ، وأنا شخصياً أقدم الشهادة الثانوية حالياً في ثانوية خاصة في شتِغليتس تركز على اللغتين اليونانية واللاتينية. كذبة لن يكشفها أحد في الشرقية في أي حال من الأحوال. وعائلتي تنتمي إلى البورجوازية اليسارية. بيتنا من نمط العمارة القديمة، لبابه مصراعان، نمضي إجازة الصيف في فرنسا وإجازة التزحلق على الثلج في النمسا. نحكي لمعارفنا الجدد من الشرقيين عن حياتنا في الغرب، عن المجتمع الأنيق المسترخي، الذي يقرر كل فرد فيه بنفسه ما سيفعله. غربنا بلد يلبس فيه الناس ثياباً ممتازة ويقودون سيارات مريحة، وحيث الرائحة في كل مكان هناك كرائحة المتاجر الخاصة بالبضائع الغربية هنا. إنه النقيض الكامل للبؤس الرمادي في (ج.أ.د). ربما ليس في وسع سوى غربي مزيف، أن يشطح بخياله عن الغرب أمام شرقي بهذه الطريقة. إننا نعرف أشواق الشرقيين بدقة، فنحن وهم أبناء بلد واحد. وكلما أطلنا الحديث، غرقنا أكثر فأكثر في عالم أحلامنا.

بالنسبة إلينا نحن الغربيين صار اللعب على البنات الشرقيات بمنتهى السهولة، غير أن الأمور لم تصل إلى غاياتها النهائية، لأننا مضطرون عند منتصف الليل إلى "عبور" الحدود إلى الغربية. ذات مرة رافقتنا فتاتان من مدينة بِنا حتى قاعة الدموع في محطة فريدريش شتراسه، وكانتا حقاً تبكيان. وقفنا في صف المغادرين ورجونا الفتاتين أن تغادرا كي يسهل الوداع، ثم انسللنا من الصف خفية وغادرنا. شعرنا بعدها بالدناءة، فتخلينا عن اللعبة، وأخذت أفكر لأول مرة جدياً في المغادرة.

في ذلك الوقت في ربيع 1988 بدأ الجميع تقريباً، ممن أعرفهم، بالتفكير جدياً على نحو ما، في كيفية خروجهم من هذا البلد، بالطريقة الأسرع والأقل إزعاجاً. لم تعد تمضي أية حفلة إلى نهايتها دون التطرق إلى هذا الموضوع. ثمة من يحكي عن آخرين نجحوا في ذلك أو ما زالوا يحاولون. وصديقتان من حلقة أصدقائي تريدان الزواج برجلين غربيين لتتمكنا من الخروج، وهناك من ينتظر عيد الميلاد السبعين لجدته الغربية ليجرب حظه. وسمعت عن أناس يذهبون إلى الممثلية الدائمة لألمانيا الاتحادية في برلين الشرقية، ليتم ترحيلهم من ثم بكتمان إلى الغربية. ويشاع أن في سفارة ألمانيا الاتحادية في براغ توجد غرف مبيت للاجئين الشرقيين. وأن من كان طلبه للمغادرة قيد الدراسة يربط شريطاً أبيض على هوائي سيارته، ثم يختفي الواحد تلو الآخر. والذين يبقون يحسون بأنهم فاشلون. في تلك الآونة أطلق على (ج.أ.د) لقب "البقية الغبية". أنا كنت مكتفياً بانشغالي بمسألة المغادرة، بتقليب الإمكانات في رأسي. فعندما أفكر في الموضوع أشعر بدغدغة لطيفة في بطني.

يضاف إلى ذلك أن الشرقية في ذلك الوقت قد أضحت مثيرة أيضاً. إذ ظهر فجأة عدد من الفرق الموسيقية الرائعة، لم يسبق لي السماع بأسمائها، ولم نعد نسمع في النوادي سوى موسيقى غربية، إضافة إلى أعداد لا

تحصى من الحفلات المجنونة. أظن أن الأمر قد ارتبط أيضاً بالحالة النفسية التي رافقت آنذاك الشعور باقتراب يوم الدينونة، على الأقل في حي برينسلاوربرغ، فأخذ الناس يحتفلون وكأنها المرة الأخيرة. صار الإنسان يعيش للحظته، مادام المستقبل لن يأتي بشيء. أتذكر الآن عرض أزياء أقيم في المسبح القديم في شارع أودربرغ، حيث أخرجت مجموعة من مصممي الأزياء عرضاً مرعباً بجماله، ثم دار الرقص في حوض السباحة الفارغ. كان لأحد معارفي صلات جيدة مع الغربية، ولهذا لم يخلُ بيته قط من الحشيش، وبيته هذا كان واسعاً جداً، في شارع مارينبورغ، يصلح للحفلات، مرة على الأقل في الأسبوع. على شاشة تلفزيون يُعرض فيلم "الجدار" لـ فرقة بينك فلويد فيما نحن مستلقين نحشش ونتغازل. وكان معنا دائماً بعض أبناء الدبلوماسيين الغربيين من الممثلية الدائمة. وذات مرة أحضر ابن السفير البريطاني والديه معه. كان الوقت صيفاً ونحن نحتفل على السطح. وقد تأثر السفير جداً لما رآه في أثناء الحفلة وما يتناقض كلياً مع الصورة التي في ذهنه عن (ج.أ.د).

بمرور الوقت تفقد حتى هذه الحفلات المجنونة سحرها. صحيح أنها تنسي المرء لبضع ساعات كل ما تبقى، ولكن عندما تنتهي السكرة وتتلاشى النشوة يعود كل ما تبقى للمثول أمامك. وكلما أفرط المرء في الاحتفال، كبرت خيبة الأمل. في أثناء إحدى هذه الحفلات تعرفت على ممثلة تزوجت نمساوياً، فصار معها جوازا سفر، لأن (ج.أ.د) في حال الزواج بنمساويين تسمح بازدواج الجنسية. تقيم الممثلة في برلين الشرقية ويمكنها أن تسافر إلى الغرب متى شاءت. بدا لي أن هذا هو الطريق الأكمل لربط الحرية الغربية مع الطمأنينة العائلية. ثم إن أخت غرهارد تعيش في فيينا، وأعتقد أنه لن يكون عسيراً العثور على ابنة عمة من الدرجة الثالثة تقبل الزواج بي. نصحتني الممثلة بمراجعة المحامي لوتار دي ميزيريه

الذي كان وسيط زواجها أيضاً. بعد أسبوع، في آذار/ مارس 1989، كنت جالساً في مكتب المحامي في شارع شوسّيه قبالة الرجل الذي بعد سنة واحدة سيكون أول رئيس وزراء منتخب بانتخابات حرة في (ج.أ.د). كان دي ميزيريه يقف عند النافذة ويصغي إلى مرادي. ثم سألني: «أيتعلق الأمر بقصة حب أم بجواز سفر؟». لم أكن قد هيأت نفسي لسؤال من هذا القبيل، فأخذت ألف وأدور. فقال لي إن القضية ستستغرق كحد أدنى سنتين، أفليس هناك احتمال لأن تُحل مشكلتي من نفسها بطريقة أخرى خلال هذا الوقت؟ لم أفهم قصده. فجلس دي ميزيريه وراء طاولة مكتبه، ابتسم ثم قال إن الجنسية المزدوجة تفترض وجود دولتين. في حال النمسا لا حاجة للمرء لأن يقلق، ولكن هناك دول أخرى مستقبلها ليس مضموناً. وتابع: «وفر الزواج للمرأة التي تحبها حقاً. هذه نصيحتي». وصرفني.

22. مشاعر ربيعية

في أكتوبر/ تشرين الأول 1986، سافر فولف إلى بحر الجنوب، أي أنه يذهب في الواقع العملي إلى مكتبة المدينة ويستعير بعض الكتب. كان يبغي أن يبتعد ما أمكنه ذلك، وبحر الجنوب هو الأبعد، حسبما خطر في باله. ستكون رحلة متخيلة، مغامرة في الرأس. وخلال هذه الرحلة سيرسم لوحات وقد يقيم معرضاً لاحقاً. معرض أشواق، استفزاز بسيط، مزحة. بقي مسافراً طوال شهور، غارقاً في هذا العالم الآخر، متخيلاً حكايات. حالماً بمياه ذات زرقة مضيئة، وبحيرات ساحلية بيضاء، بزوارق خشبية منحوتة ونساء عاريات الصدور، تشكلن وروداً في شعورهن. قدمت لوحاته بحر جنوبٍ، ربما كان أجمل مما يمكن للحقيقي أن يكون عليه. رسم فولف بطاقات بخطوط رحلات، وكتب يوميات قاربه، دوَّن فيها أهم ما مر به. لقد تغير أسلوبه كلياً، وحتى حكايات رجل الرمل التي يكتبها للتلفزيون صارت أحداثها تقع تحت أشجار النخيل. رسم بطاقات بريدية بنباتات عجيبة وتزيينات ملونة. ونزلت هذه البطاقات إلى السوق تحت عنوان "بولينيزيا". وفي الوقت نفسه عاد فرسم بطاقة رمادية: أنيت وهو يجلسان على الكنبة وأمامهما نخلةُ غرفة صغيرة، والستائر ذات الشفرات أمام النوافذ مسدلة.

يقول فولف إن هذا اللعب مع الدولة ومع نفسه خلال السنوات الأخيرة من عمر (ج.أ.د) أخذ يزداد إثارة باطراد. لم يعد هناك قواعد واضحة، والحدود تنمحي. بدأت تظهر فضاءات حرة وإمكانات، لتختفي من جديد أحياناً. لم يعد يعرف أحد ما المسموح وما الممنوع. فعلى الإنسان أن يجرب. حكى فولف عن نهاية أسبوع فنية في المدينة الصغيرة كوزفيغ قرب دريسدن، حين تمكن رسام من زملائه بحجة ما أن يستأجر دار الثقافة هناك، وفجأة جاء مئات الفنانين من جميع أطراف البلد إلى الدار. وطوال يومين ضجت الدار بالموسيقى والرقص والرسم والاحتفال. الشرطة المحلية لا طاقة لها وشتازي لا علم لها بشيء. وبعد شهرين أقيم احتفال صيفي هائل في مزرعة في منطقة أوكرمارك، حيث امتلأت المزرعة بالخيام وبمواقد الشواء، وأخذ المحتفلون يسبحون عراة نهاراً ويعزفون الموسيقى ويرقصون ليلاً. تخلل ذلك برنامج مونولوجيست ساخر مع الفنان الشهير فولفغانغ كراوزه تسفيباخ، الذي تعدُ عروضه ممنوعة في (ج.أ.د)، لكن هذا لا يهم أحداً في هذه الأمسية. في اليوم التالي حضرت الشرطة وسجلت أسماء الجميع، ولكن في هذه المرة أيضاً لم تكن هناك أية عواقب. يقول فولف: «آنذاك كان يخامرهم أحياناً الشعور بأنه لم يتبق من هذه الدولة سوى واجهتها، التي لا يوجد وراءها أي شيء».

ولكن ذات يوم وقف رجل عند باب بيتنا في كارلزهورست وقال إن على فولف أن يحسم أمره ويحدد الجهة التي يقف معها. طلب الرجل حواراً مع فولف، لكن فولف رفض الكلام مع شتازي. وعندما نزلت الجارة على الدرج، انسل الرجل إلى داخل البيت كي لا تراه. فأمسك به فولف من سترته ودفعه على الدرج. وبعد وقت قصير توقفت أمام بيتنا سيارة فارتبورغ بيضاء وفيها أربعة رجال يراقبوننا بصمت. وعندما تغادر، سرعان ما تحل محلها لادا رمادية، يجلس فيها أربعة رجال آخرين.

حينذاك كان عندي صندوق منظار فلكي، فصرت أراقب الرجال الأربعة بالمنظار. الذين يجلسون في اللادا كانوا سماناً جداً، ويجلسون محشورين داخلها لساعات. ويبدو أن الترجل من السيارة في أثناء المراقبة ممنوع. بعد بضعة أيام على هذا المنوال لم يعد فولف يجد الأمر مسلياً إطلاقاً. والخوف الذي زال لفترة من الوقت، عاد.

في الوقت نفسه، في آذار/ مارس 1988، صدر قرار عن رابطة الفنانين ينص على منح الزميل الفنان فولف ليو جواز سفر والسماح له بالسفر إلى برلين الغربية لمدة ثلاثة أيام في السنة. لم يكن الأمر واضحاً تماماً، ما إن كانت هناك صلة ما بين السيارة الواقفة أمام بيتنا وبين جواز السفر في جيب فولف. أيريدون أن يبقى فولف في الغربية؟ بالنسبة إليه كان الأمر سيان، لقد استمتع بالأيام الثلاثة في برلين الغربية، وتعرف هناك على رسام يسمي نفسه نيل الأجنبي ويملك صالة عرض في ساحة سافيني. وهو شخص خشن السلوك، يقدم نفسه بكل وعي على أنه بروليتاري، وقد علق في صالته رسوماً نصفية لأقارب يهود، لا وجود لهم في الواقع. وفكرة أن يرسم المرء لنفسه ببساطة عائلة جديدة لاقت إعجاباً لدى فولف. توادَّ الاثنان، وعرض نيل على فولف أن يقيم له معرضاً في صالته. في البداية بدا الأمر مثل حلم بعيد، ولكن في السنة التالية، عندما حصل فولف على تأشيرة ثلاثة أيام إلى برلين الغربية، قرر أن يفعلها. في 14 أيار/ مايو 1989 توجه بسيارتنا "ترابانت" 601 ذات اللون البني الفاتح إلى المعبر الحدودي في شارع هاينريش هاينه. السيارة مملوءة بالرسومات واللوحات والأشكال. وعلى حامل سطح السيارة هناك شكل كرتوني بطول ثلاثة أمتار، إنه الراقص، الذي يحق له الآن للمرة الأولى السفر إلى الغربية. شرطة الحدود الشرقيين أدهشتهم الحمولة الفنية غير المعلن عنها مسبقاً، لكنهم سمحوا له بالعبور، بكل بساطة. وكان نيل ينتظره وراء الحدود بسيارته فولكسفاغن – بولو.

سافرت السيارتان بشكل استعراضي نحو شارلوتنبورغ. وعندما توقفا عند أحد التقاطعات نظر المشاة بدهشة إلى السيارة الكرتونية وإلى الراقص الكرتوني على ظهرها.

مساء، عند افتتاح المعرض، اندفعت بورجوازية شارلوتنبورغ وفي أيديها كؤوس النبيذ الأحمر مستعرضة بسرعة الأعمال الفنية الشرقية. أعلن نيل باحتفالية أن هذا هو أول معرض خاص لفنان من (ج.أ.د) في الغرب. فانتبه سكان شارلوتنبورغ إلى أن هذا كله جديد ومثير، وكثيرون منهم أبدوا رغبتهم في شراء بعض الأعمال. لكن فولف لا يعرف إن كان مسموحاً له أن يبيع، ولا يريد أن يرتكب خطأ ما، فتخلى عن الموضوع. أما نيل فوجد الموقف غبياً ومسلياً في الوقت نفسه.

في وقت لاحق ليلاً، اقيمت حفلة في طابق من معمل في كرويتسبرغ، حيث ضيّفه أحدهم سيكارة حشيش، وفولف ظنها سيكارة عادية فداخ بعد بضعة أنفاس. ونحو الساعة الثالثة صباحاً جرجر نفسه برأس ثقيل إلى المعبر الحدودي هاينريش هاينه، فوجد كل شيء هناك مطفأ. قرع فولف الباب وصاح، وانتظر مدة حتى ظهر أحد شرطة الحدود وفتح له ليعبر عائداً إلى الشرقية.

كثر تردد أنيت على مكتبة الجالية اليهودية. إنها تشعر بالارتياح هناك. كما بدا لها الحزب مؤخراً أكثر وداً. فصارت تذهب أحياناً إلى اجتماعات المنطقة السكنية في كارلزهورست، فتلتقي هناك بمتقاعدين يجلسون أيضاً في بيوتهم ويودون ببساطة أن يتحدثوا قليلاً. ولأول مرة لم تشعر أنيت بالخوف من هذه الاجتماعات. بات الحزب الآن رجالاً عجائز ودودين يساعدونها في خلع معطفها. بدا الأمر وكأن النظام فقد سلطته عليهم، وأن ذراع الدولة لا تطول شرفتها ذات النوافذ. قرأت أنيت نص شاعرة تصف

فيه انسحابها إلى داخل ذاتها، وتقارن هذا الانسحاب بسُبات شتوي: "الخارج ميت، الداخل حي، القلب يخفق ببطء بانتظار الربيع".

وخامر أنيت شعور باقتراب الربيع، شعرت بأن البلد بأسره يصير أكثر لطفاً وليونة وقابلية للنفاذ. صدر قانون جديد للسفر يسهل زيارة الأقارب الغربيين، فسافرت أنيت إلى دوسلدورف وهامبورغ وفيينا والقدس. وبصفتها صحفية مستقلة صارت تكتب مقالات لا تتعرض ببساطة للحذف والشطب. أحد هذه المقالات نشر في أيلول/ سبتمبر 1988 في المجلة الثقافية "زونتاغ". يتعلق موضوعه بعلاقة مؤسسي دولة (ج.أ.د) بأبنائهم. تصف فيه طريق المناضلين ضد الفاشية، الذين صاروا حكاماً بعد الحرب، دونما استراحة. "كيف كان في مقدورهم دفن حقدهم عندما خرجوا 1945 من معسكرات الاعتقال واستلموا المسؤوليات عن الشعب؟ كم منهم كان في وسعه أن يثق بآخر لم يعش مثل مصيرهم؟ ألا يتصرفون تجاهنا، نحن جيل الأبناء، مثل آباء حازمين لا يرون نصب أعينهم بداهة سوى خيرنا؟ ألا يريدون في معظم الحالات أن يقرروا بدلاً منا شكل هذا الخير؟". هذه الأسئلة كان يمنع طرحها علناً حتى ذلك الحين، لأنها تمس الجوهر، لأنها موجهة إلى كبار السن، الذين ما زالوا يحملون المسؤولية.

ومن المحتمل أيضاً أن يكون هذا المقال بالدرجة الأولى حواراً مع أبيها، حواراً لا يمكنها أن تجريه معه مباشرة، لأن غرهارد ما كان ليسمح بذلك. حاولت أنيت مراراً أن تحرك شيئاً ما، كي تخرج أباها من تصلبه. غير أن كل هذه المحاولات كانت تنتهي بخصام. في أكتوبر/ تشرين الأول 1988، وبعد مرور وقت طويل، قامت أنيت مع فولف هذه المرة بزيارة لوالديها. بدا جو الزيارة ودوداً متحفظاً، فهم لا ينوون الشجار. ومع ذلك، أفلت زمام الأمور عندما قال غرهارد إنه يستحسن ما يجري الآن في الاتحاد السوفيتي، وإن الشفافية وحركة الإصلاح ضروريتان لـ(ج.أ.د)

أيضاً. فعلق فولف بقوله إنهما ضروريتان على صعيد العائلة أيضاً، فصعدت بذلك كل النزاعات القديمة إلى السطح ثانية. قال فولف إن ما يحاول غورباتشوف تنفيذه الآن في موسكو، طالب هو به قبل عشرين عاماً، وهذا هو ما جعل غرهارد يعتبره عدواً. وفي الختام جلسوا صامتين قبالة بعضهم بعضاً. يبدو أنه لا وجود لدرب مشترك.

وفي هذه المرة أيضاً لم تستطع أنيت تحرير نفسها من أبيها. إن ارتباطها به يماثل حبلاً يربطها بحياتها القديمة ويعيقها عن أن تكون نفسها فحسب، وغرهارد هو آخر ما تبقى من تبعيتها. وقالت لاحقاً إن انهيار (ج.أ.د) هو ما خلصها بصورة نهائية من تبعيتها لطفولتها. وفي مقابل ذلك قطعت من جهتها حبلاً آخر، فقد انسحبت من الحزب. والرسالة التي كتبتها إلى رئيس مجموعتها الحزبية آنذاك ما زالت موجودة في مصنف داخل غلاف نايلوني شفاف، كوثيقة مهمة. وقد كتبت فيها: "إن موقف إنكار الواقع، الذي تتخذه قيادتنا، لم أعد قادرة على القبول به. لقد أدت تنحية الحقيقة جانباً إلى شلل الحياة الاجتماعية. ومثل هذا الوضع لا يؤسف له فحسب، بل إنه خطير. إن استمرار البقاء في هذه المنظمة المتصلبة كلياً يبدو لي بلا جدوى".

يتزايد عدد الذين يختفون من هنا ليظهروا في الغربية. ونتيجة لذلك تمكنتُ من الحصول على مسكن، كان لصديقة تعمل راقصة في دار الأوبرا الكوميدية، ولم تعد من عرض زائر للدار في برلين الغربية. وفي الصيف امتلأت سفارات ألمانيا الاتحادية في بودابست وبراغ بالاجئين من الشرقية. وفي الوقت نفسه ثمة ما يحدث في (ج.أ.د). نشأت هناك قوة محركة لم تكن ملحوظة في البداية، لكنها أخذت من أسبوع لآخر تنمو وتقوى. مثل موجة هائلة، تتشكل ببطء وتجرف معها كل ماهو غير راسخ وثابت. على سطحها لا يُرى الكثير بعد، أما في قلبها فإنها تسحب

معها كميات كبيرة من البشر. أذكر إحدى الأمسيات في آب/ أغسطس 1989 في كنيسة المخلص في حي ليشتِنبرغ، التي ذهبت إليها مع أنيت. تواجد هناك أناس يطلقون على أنفسهم تسمية "جماعة حقوق الإنسان". لهم تسريحات شعر عجيبة ولحى وتميزوا بلغة أثرت فيَّ عميقاً لصدقها ووضوحها. إنهم يعبرون علناً وببساطة عما يدفعهم ويحركهم. كان هذا جديداً بالنسبة إليَّ، إذ إني اعتدت من تنويهات حاذقة وأنصاف جمل وظل معنى أن أستنتج رسالة موارية. في المسرح كان الأمر غالباً بهذه الطريقة، جملة مقتضبة، كلمة مفتاحية، يمكن أن تحمس المشاهدين، لأنهم هم الذين أكملوا الفكرة، أكملوها بصمت في رؤوسهم وابتهجوا بها من ثم بصمت أيضاً. إن فن النقد عن طريق التورية والكلمة المقاومة على ما يبدو لم يعد ضرورياً الآن. يقول جماعة حقوق الإنسان في كنيسة المخلص إن الهدف الآن هو المطالبة بالحريات الرئيسة، وألا نسمح بمعاملتنا كأطفال. لقد ولّى زمن التوسل، يجب علينا الآن بصفتنا مواطنين واعين أن نطالب بحقوقنا.

إني أتوقع أن ثمة ما سيحدث الآن، أن الجماعة ستُعتقل فوراً، أو سيمنعون على الأقل من الكلام. إلا أنه لم يحدث شيء، وزوار الكنيسة يصفقون ويطلقون صيحات الإعجاب. ويرددون «هذا هو ما نريد» و«هذا ما سنفعله الآن». بدا الأمر وكأن الممنوعات والخوف الخانق قد اختفوا فجأة. كانت أنيت مندهشة مثلي من هذه اللهجة الجديدة، من هذه الشجاعة والقوة السائدتين في هذه الكنيسة. وفجأة توضح لي أن البقاء هنا في برلين أكثر إثارة من السفر إلى براغ أو بودابست للهروب عبر الحدود. لقد أمسكت الموجة بي وأخذت تسحبني معها. بعد بضعة أيام ذهبت إلى كنيسة معصرة الزيتون في حي برنسلاوربرغ. هنا أيضاً كان الناس واثقين بأنفسهم ومرحين، بل في فيض من البهجة. كان جلياً أن الجميع يحس

بحدوث شيء ما، بأن حدود البلد لا تنهار في الأماكن البعيدة فقط، بل إن حدودنا الخاصة أيضاً تُرسم الآن من جديد. رأيت رجلاً في الشارع قبالة الكنيسة ويصرخ بملء حنجرته دون توقف وكأنه قد اكتشف صوته لتوه، وكأن إحساسه بنفسه يسعده بلا حدود. على مسافة من الكنيسة يقف رجال شرطة. وفي الشارع تقف عدة عربات شرطة فارغة، وأمام الكنيسة مباشرة يتجول رجال شتازي بطريقة تلفت النظر إليهم، وكأنهم يقولون لنا "نحن هنا"، إلا أنهم لا يتدخلون.

في كل مرة أغادر فيها كنيسة أو اجتماعاً أجد نفسي مشحوناً بطاقة جديدة، على الرغم من تكرار الكلام والمطالب. لكن الشعور جديد كل مرة، مثل نشوة لا تتلاشى. لم يعد ضرورياً الذهاب إلى أي اجتماع لتشعر بهذه النشوة، يكفي أن تتبادل النظرات أو الابتسامات مع الركاب في الميترو، لتعرف أن الآخرين يفكرون مثلك. ثمة حالة نفسية عجيبة في المدينة، توتر كالذي يسبق انتفاضة عظيمة. وينتابني إحساس بأننا في واقع الأمر لن نصاب بشيء ما دمنا بهذه الكثرة. ولكن حتى ذلك الوقت لم يكن الأمر واضحاً تماماً.

في الصين أطلق الرصاص على المتظاهرين في ساحة السلام السماوي. "الحل الصيني" يجول في رؤوسنا نحن أيضاً كسيناريو محتمل. ونحن لا نعرف كيف سيكون رد فعل حكومة (ج.أ.د). هل ستترك نفسها لتجرفها الحركة، أم ستحاول كسر الموجة بالعنف؟

في أيلول/ سبتمبر 1989، دقت امرأة باب بيتنا في كارلزهورست، إنها تجمع تواقيع لـ"المنتدى الجديد". وقعت أنيت، وأخذت منها بعض اللوائح الفارغة لتقوم بنفسها بجمع تواقيع. صارت تلتقي بأصدقاء ومعارف في مقهى "إسْبرسّو" في شارع أونتر دِن لينِدن. لائحة التواقيع موضوعة علناً على الطاولة. لم تعد تخاف، مع أن "المنتدى الجديد" لا

يزال محظوراً، وعلى الرغم من أن ليس هناك من يعرف إلامَ قد يؤدي مثل هذا التوقيع في النهاية. وفي 6/ 10/ 1989، ذهبت أنيت لحضور أول اجتماع لجماعات المعارضة في كنيسة المخلص. تواجدت هناك محطات تلفزيونية من جميع أنحاء العالم لتوثيق الانتفاضة. جماعات المعارضة عرضت برامجها. قالت امرأة إنه لا بد من إجراء انتخابات حرة في (ج.أ.د) بإشراف الأمم المتحدة. رأت أنيت في الأمر مبالغة. انتخابات حرة. كان يكفيها أن يسمع الحزب الرأي الآخر. عند انتهاء الاجتماع كان هناك من يبحث عمن يتكلم الفرنسية، لوجود صحفي من إذاعة بلجيكية يرغب في إجراء مقابلة. تطوعت أنيت معتقدة أنها ستقوم بالترجمة. وعندما تبين أن المقابلة ستُجرى معها بالذات، ارتبكت وخافت أن تخطأ في الكلام. لكن الوقت فات ولا مجال للانسحاب. سألها الصحفي إن كانت تشعر بنفسها عدوة لـ(ج.أ.د). فأجابت أنيت إن أعداء البلد يتمثلون في الحكومة والمكتب السياسي. وأصابتها الدهشة من كلامها وتأثرت كذلك، وأحست كأنها تطير على بساط الريح. شعرت بنفسها قوية وسعيدة.

سافر فولف مع بعض أصدقائه إلى لايبتزيغ، حيث رسم ولوّن منصة لحفلة موسيقية لإحدى فرق الـبانكي. أقيمت المنصة في منطقة خاضعة للهدم في شرقي لايبتزيغ. رأى الفراغات الميتة بين الأبنية والشوارع المهجورة، ومساء عند بدء الحفلة توهجت الواجهات المكسرة تحت إضاءة المنصة الشديدة، فأحسوا بأنفسهم كما في مدينة أشباح. في أحد مقاهي منطقة الرينغ في وسط البلد، شتم نادل سكرانٌ الزبائن بلغة فنتازية ذات وقع فرنسي، وهناك مجموعة من الغربيين يجلسون هناك مرهوبين، فعلّق فولف قائلاً، بأن عليهم ألا يأخذوا الأمر على محمل الجد كثيراً، فقريباً على أية حال سينتهي كل شيء. لم يفهم الغربيون ما نوّه إليه، إنهم جائعون فحسب.

قامت أنيت مع آخرين بتأسيس فرع "المنتدى الجديد" في كارلزهورست، وفي الاجتماع الأول انتُخبت ناطقةً باسمهم. ويومياً صار يأتي إلى بيتنا صحفيون غربيون ومؤرخون، يجلسون في المطبخ، يشربون القهوة ويدخنون ويتحادثون. في هذه الأحاديث لا وجود لـ(ج.أ.د) القديمة إطلاقاً، إذ نهض في محلها بلد آخر، ديموقراطي بأحزاب مختلفة، ولكن دون ملكية فردية، فهذه المرة يجب حقاً أن يكون كل شيء ملكاً للشعب. ودار الحديث حول الطريق الثالث، كحل وسط بين الرأسمالية والاشتراكية. بدا كل شيء ممكناً في تلك الأيام، فيما إذا تُرك تحقيقه حقاً للشعب.

أخذ فولف يعمل بلا هوادة. ففي رأسه أفكار كثيرة والوقت ضيق. رسم لافتات ثورية لـ"مسرح الشعب" وصوراً على قماش لأمسية احتجاجية في كنيسة المخلص. وفي أثناء الليل ألصق في ساحة ألكسندر بوسترات تدعو للتضامن مع رومانيا. قال إنه كان ينطلق صباحاً ولا فكرة في رأسه عما قد يحدث، فالأيام تسابقه. هناك عملا غرافيك لا بد أنهما يعودان إلى تلك الأيام: شخصان، أولهما منكمش على ذاته متردداً، وثانيهما بكتفين مفرودتين ورأس مرفوع. أطلق فولف على هذين العملين اسمي "خوف" و"فخر"، إنهما الروحان اللتان تسكنانه الآن.

23. هتافات

أشاهد في التلفزيون صوراً من مظاهرات أيام الاثنين في لايبتزيغ. بالمقارنة معها لا تزال الأوضاع في برلين هادئة. هناك شائعة تقول إن أول مظاهرة ضخمة في برلين ستكون يوم 7/ 10. وهو يوم الذكرى الأربعين لتأسيس (ج.أ.د). وسيكون مكان التجمع عند نصب الساعة العالمية في ساحة الكسندرفي الساعة الخامسة. وأنا على موعد في 3/ 10 في إدارة شرطة حي ليشتنبرغ لأستلم تأشيرة خروجي إلى بودابست، التي تقدمت لطلبها قبل شهر. وكنت مندهشاً لكونهم ما زالوا يمنحون تأشيرات الخروج، لأن رئيس وزراء هنغاريا كان قد أعلن مؤخراً عن فتح الحدود إلى النمسا، وبالتالي فإن كل مواطن من (ج.أ.د) يصل إلى هنغاريا، يمكنه المغادرة إلى النمسا دون أي عائق. إن هذه الاستمارة الصغيرة ذات اللون الأخضر، والمكتوبة بالألمانية والروسية، يمكنها أن توصلني إلى الغرب. لكنني لن أستخدمها، إلا إذا هيمنت الظروف الصينية في برلين في 7 تشرين الأول/ أكتوبر. يبدو واضحاً بطريقة ما أن هذا اليوم سيكون حاسماً.

كنت مستثاراً منذ صباح يوم السابع من أكتوبر. بث الراديو خبر أن غورباتشوف وقادة الدول الاشتراكية الأخرى قد وصلوا إلى برلين. المنطقة المحيطة بساحة ألكسندر تحرسها الشرطة. فهل ستتمكن من

الوصول إلى الساعة العالمية؟ وكيف سيكون رد فعلهم إذا أزعجنا احتفالهم بميلادهم؟ بعد الظهر توجهت مع صديقتي كريستينه إلى ساحة ألكسندر. الساعة العالمية تشير إلى الرابعة والنصف، عدد المتظاهرين قليل جداً مقابل كميات من رجال الشرطة. خاب أملي وتساءلت عن سبب عدم نجاح الاحتجاج في برلين. لقد أرانا اللايبتزيغيون[1] كيف تكون المظاهرات. اقتربنا أكثر من الساعة العالمية، فالتقطت عيناي عدداً كبيراً متناثراً في أطراف الساحة في انتظار فلحظة البداية الحقيقية. بعد الخامسة بقليل تشكل جسم المظاهرة وبدأ يتحرك، وفي تلك اللحظات اندفع الناس من جميع الاتجاهات إلى قلب الساحة. بعد قليل لم يعد نظري يستوعب موكب المظاهرة كله. سرنا باتجاه مجلس البلدية الأحمر، على طول قصر الجمهورية. يا له من شعور جميل أن تكون مع هذا العدد الهائل من الناس! لقد اختفى الخوف. من يستطيع أن يوقفنا الآن؟

عند قصر الجمهورية وقف سور من شاحنات الشرطة، وقد رُكب على مقدمات الشاحنات قضبان معدنية مشبكة، مهمتها على ما يبدو دفع المتظاهرين وتفريقهم. في القصر كان إريش هونيكر يستقبل قادة الدول الشقيقة. تعالت هتافاتنا "غوربي، غوربي"، لأننا نريد أن نرى غورباتشوف. لكنه لم يظهر، وبدلاً من ذلك حاولت الشرطة تفريقنا، فتحركت الشاحنات دافعة الحشود إلى الخلف. ورجال شتازي يصطادون متظاهرين متفرقين ويسوقونهم بعيداً. دبت الفوضى ولم يعد يعرف أحد ما الخطوة التالية. أحد المتظاهرين كان يحمل مكبر صوت وصاح أننا سنتابع المسير نحو برنسلاوربرغ. أعاد الموكب تشكيل نفسه وتوجه نحو شارع كارل ليبكنيشت. حاول رجال المخابرات والشرطة والشبيبة إيقافنا، بأن

(1) نسبة إلى مظاهرات مدينة لايبزيغ التي شهدت أولى وأكبر المظاهرات.

شبكوا أذرعتهم ببعضها، لكن الموكب اكتسحهم. رأيت صبية بقميص الشبيبة تقف في الطريق منهارة باكية وهي تصيح: «لماذا تفعلون هذا؟».

إلى جانبنا مباشرة حاول رجلا أمن سحب أحد المتظاهرين، فقفز ثلاثة متظاهرين آخرين وضربوا رجلي الأمن. سقط أحدهما على ظهره وبقي حيث هو، فكر الثاني قليلاً ثم ركض هارباً. وحتى اليوم ما زلت أرى وجه الهارب أمامي، هذا الرعب في عينيه، الذي يقول: «ويجرؤون على الدفاع عن أنفسهم!». الشرطة على الرصيف تنظر ولا تتدخل. «إنهم خائفون»، صاح أحد المتظاهرين «الشرطة مرعوبة».

كلما تقدمنا في المسير، ازداد شعورنا بالقوة. والهتافات تدوي في الشوارع الخالية. يخرج من الأبنية أناس راكضون ويلتحقون بموكب المظاهرة، وهناك آخرون يلوحون لنا من النوافذ. الجو السائد منطلق، فقد زال التوتر والخوف. تابعنا المسير حتى كنيسة معصرة الزيتون، حيث انحل الموكب، وجلس بضع مئات من المتظاهرين على الأرض، أشعلوا شموعاً وأخذوا يغنون. من جميع الجهات تتقدم شاحنات الشرطة ذات القضبان الشبكية. يهتف أحد رجال الشرطة بمكبره إن هذا التجمهر غير قانوني، ومن لا يذهب الآن سوف يعتقل. فجأة عاد الخوف ليهيمن. فكرنا صديقتي وأنا فيما علينا فعله. ما الفائدة من البقاء؟ لقد نجحت المظاهرة، وستليها مظاهرات أخرى. فغادرنا، وضميرنا يؤنبنا لأننا تركنا جماعة الشموع وحدهم، تركنا وراءنا من هم أشجع منا.

تسكن كريستينه في شارع أنكلام قرب الجدار. نزلنا إلى شارع إيرسفالد لنرى مئات الجنود مصطفين كتفاً إلى كتف أمام الجدار، صامتين تحت أضواء مصابيح الشارع، المسدسات الرشاشة على ظهورهم وأيديهم مفرودة على بطونهم، فيما عيونهم تحدق أمامهم بجمود. إنهم يغطون الشارع كله. وعندها فحسب توضح لي مدى الخطر الذي تشعر

هذه الدولة أنه يتهددها، ومدى سوء فهمها للمتظاهرين. ففي هذا المساء لم يخطر في بال أحد إطلاقاً اقتحام الجدار، في حين أن القضية الرئيسة هي تغيير الأوضاع الداخلية. دقق ضابط بطاقتينا الشخصيتين ليتأكد من أنه لا بد لنا من المرور من هذا الشارع للوصول إلى بيتنا. مشينا على طول صف الجنود الصامتين، لا نسمع سوى صوت خطواتنا على حجارة الطريق الرطبة. وقبل قليل كنا نغني ونهتف عبر شوارع برلين، قبل قليل كانت الشوارع ملكنا. وها نحن ثانية مواطنون مؤدبون نشكر الضابط بكل تهذيب، ونحن فرحون لتركه إيانا نذهب إلى بيوتنا.

في اليوم التالي كان كل شيء طبيعياً على نحو مرعب. التقيت على درج البناء بجارتنا عائدة مع مشترياتها اليومية، ولم تسمع شيئاً عن مظاهرتنا. في الشارع الذي ينتصب فيه الجدار كان الجنود قد انسحبوا وعاد الأولاد للعب بالحبل على الرصيف. والحياة تتابع مسيرها كأن شيئاً لم يحدث. أخبار إذاعة الشرقية لا تأتي على ذكر المظاهرة ولو بكلمة. وتلفزيون الغربية يعرض صور ليلة الأمس، رجال شرطة يضربون بالهراوات وصبية تغطيها الدماء لكنها تبتسم وتتحدث عن نصر. بعد الظهر زرت مع كريستينه صديقة لوالديّ اللذين كانا هناك أيضاً، وحكينا عن ليلة الأمس. بدا لي كل شيء وكأنه ينتمي إلى ماضٍ بعيد. أبدت أنيت قلقها وقالت إن علينا توخي الحذر، لأن الدولة الآن لن تُحجم عن فعل أي شيء. لقد رأت أفعال الشرطة في التلفزيون. لكني أعتقد أنها فخورة بنا نوعاً ما. أما فولف فقد كان ممتعضاً لأنه لم يسمع شيئاً عن المظاهرة. كان بوده أن يشارك معنا، فيما قالت أنيت إن الأمر بالنسبة إليها حامٍ أكثر يلزم، التظاهر ضد الدولة وفي يوم ميلاد الجمهورية، هذا استفزاز صريح. «وهذا هو المطلوب». قال فولف وأخذ يهز برأسه.

أعطتنا صديقة والديّ نسخة من جريدة كنسية محظورة، تصف فيها

سبب انسحابها من الحزب مؤخراً. وضعت كريستينة النسخة في جيب معطفها، لأني لا أحمل حقيبة. على طريق العودة أردنا ركوب ميترو الأنفاق من ساحة ألكسندر. على رصيف المحطة تقدم إلينا رجل مدني ووقف آخر وراءنا، طالبنا الأول بهويتينا، فسألته عن السبب ولم أتلقَّ جواباً. اختفت الهويتان وأمرنا الرجل بالذهاب معه. لفت نظري على رصيف المحطة أن شباناً آخرين يساقون أيضاً.

فكرت في أنهم لا يريدون أن نتوجه إلى كنيسة معصرة الزيتون. دفعنا الرجل بخشونة باتجاه مخرج الميترو. صعدنا الدرج لنرى شاحنات الشرطة في الساحة. فتشتنا الشرطة خارجياً، ففكرت بجريدة الكنيسة في جيب معطف كريستينه. أردت أن أهمس لها بالأمر، ولكن كان الوقت قد فات. رفع شرطي أوراق الجريدة بيده وسألنا من أين لنا هذا. «من الميترو»، قالت كريستينه. ساقها الشرطي أمامه، فيما كان عليَّ الصعود إلى إحدى الشاحنات، حيث وجدت نحو عشرين شاباً جالسين على مقاعد في مؤخرة الشاحنة، بدا لي الامر كله مثل حلم مزعج. إني لا أستوعب ما يحدث، ها نحن رهن الاعتقال، حتى قبل أن نفعل شيئاً.

انطلقت الشاحنات. سألت شابين يجلسان إلى جانبي، إنْ كانا يعرفان ما الذي يجري. قالا إنهما لا يعرفان أكثر مما أعرف، كانا في السينما وبكل بساطة سيقا مع الآخرين. ثمة فتاة تبكي وتسأل إنْ كنا جميعنا سنسجن الآن. وأنا أفكر طوال الوقت في كريستينه والجريدة. لا أستطيع أن أتبين اتجاه سيرنا، لأن غطاء الشاحنة القماشي كان مسدلاً ومشدوداً. من خلال شقوق الغطاء يتسرب هواء بارد، وجو الشاحنة يعبق بروائح مازوت وتعرق. بعد نحو نصف ساعة توقفت الشاحنة، ورفع الغطاء، وصاح شرطي أن علينا أن نترجل ونصطف وقد شبكنا أيدينا وراء رؤوسنا. وقفنا في باحة محاطة بالجدران المسورة أعلاها بأسلاك شائكة. هل صرنا في

السجن؟ ومن حولنا يقف نحو ثلاثين شرطياً مسلحاً. ثمة رجل قصير ونحيل بجزمة جلدية سوداء يصيح إننا نعرف جميعاً سبب وجودنا هنا، ويصفنا بأننا "قطيع" و"حثالة" ويهدد باللجوء إلى القسوة الشديدة إذا خطر في بال أحدنا التصرف بعكس أوامره. علينا أن نقف في ثلاثة أرتال في كراج واسع جيد الإضاءة مع المحافظة على مسافة متر عن الذي بجانبي والذي أمامي، النظر إلى الأمام فحسب والأفواه مكتومة.

وقفنا طوال الليل في الكراج، ونظري معلق طوال ساعات على كتفي الذي أمامي، فحتى النظر إلى الأرض ممنوع. الذي يقف أمامي شعره بني ويلبس جاكيتاً أزرق فاتحاً، لكني لا أعرف شكل وجهه حتى اليوم. فكرت فيما سيحدث لنا وفي التهمة التي سيرموننا بها. لولا مسألة جريدة الكنيسة لما قلقت. وكلما أمعنت في التفكير ازداد خوفي. قد يرموننا في السجن طوال أسابيع أو شهور دون اتصال بالعالم الخارجي. فليس لدى الحكومة الآن ما تخسره أكثر. ويحتمل أنها بعد مظاهرة 7 تشرين الأول/ أكتوبر قد قررت اللجوء إلى الحل الصيني. علامَ يمكن أن يُقدِم الديكتاتور إذا حُشِرَ في الزاوية؟ وأطوّر في ذهني سيناريوهات مرعبة؛ فأنا أفعل هذا دائماً عندما أشعر بالخوف. ربما لأتمكن من الإيحاء إلى نفسي بأن الأمر لن يتطور إلى هذا الحد. ثم أفكر في جدي غرهارد وفي أنه سيخرجني لا شك من هنا، إن استدعى الأمر ذلك. يا ترى، إن تمكن غرهارد من رؤية حفيده هنا، معتقلاً دون ذنب، فهل سيستمر في الدفاع عن هذه الدولة، أم أنه سيخجل؟ لكنه على كل حال سيساعدني. هذه الفكرة تريحني قليلاً.

وفي وقت ما جلس أحد الموقوفين على الأرض ببساطة، قائلاً إنه لم يعد قادراً على الوقوف. فجاء شرطيان ونتراه عالياً وساقاه بعيداً، لا أدري إلى أين. عند الفجر طلبتُ من شرطي الذهاب إلى المرحاض. تلفتُ حولي في أثناء الطريق، فتبين لي أننا على ما يبدو في ثكنة للشرطة.

فهذا على الأقل ليس سجناً. قلت للشرطي إننا في الواقع لا نعرف سبب وجودنا هنا، فأجاب: «هذا ما سنراه». وأعادني إلى مكاني في الكراج. بعد بضع ساعات أخذوا يسوقوننا بالتالي إلى البناء الرئيس "للاستجواب". وعندما نادوا اسمي شعرت ببعض الارتياح لانتهاء هذا الانتظار اللعين. اقتادوني إلى غرفة توجد فيها طاولة مكتب وفوقها على الجدار صورة لإريش هونيكر مبتسماً، أما الجالس وراء المكتب فزمجر بما معناه أن أجلس. إنه متقدم في السن إلى حد ما، له صلعة محاطة بتاج من الشعر الأشيب. لايبدو شريراً، بل كمن يزعجه الأمر كله. قال: «كلما أسرعت في قول الحقيقة هنا، كان الأمر لصالحك». أراد أن يعرف ماذا كنت أفعل في المساء السابق لاعتقالي. فأخبرته عن الزيارة لصديقة والديَّ وأننا أردنا بعدها ركوب ميترو الأنفاق إلى البيت. فسألني عن مصدر الجريدة التي وجدوها مع كريستينه، فأجبت أننا وجدناها في الميترو، مثلما قالت كريستينه. فصرخ الرجل، أن من الأفضل ألا أستغبيه، لأن صديقتي اعترفت بكل شيء، «فلا تتذاكى الآن». لاحظت أن يدي بدأتا ترتجفان وأن وجهي يتأجج ويتصبب عرقاً. «هيا، تكلم!»، قال الرجل. لم أعرف ما عليَّ فعله. يحتمل أن كريستينه لم تعترف بشيء، وأنه يريد الإيقاع بي. لكني أشعر بما يدفعني لإخباره بكل شيء، كي أنهي هذا الأمر وحسب. عرض الرجل عليَّ سيجارة وفجأة تدفق الكلام مني. فأخبرته أنني حصلت على الجريدة من صديقة والديَّ وأن لا علاقة لكريستينه بالأمر كله. وبهذا انتهى التحقيق، واقتادني شرطي إلى غرفة انتظار. وهنا فقط انتبهت إلى أني أسبح في عرقي. شعرت بنفسي يائساً ودنيئاً. كان بودي أن أكون شجاعاً، لكني لم أصمد. إني فاشل خائب.

بعد ساعتين سمحوا لي بالذهاب. خابرت أهلي من كشك هاتف عمومي، فقالت لي أنيت بأن عليَّ القدوم فوراً، لأن كريستينه هناك أيضاً.

ركبت الميترو إلى كارلزهورست ثم مشيت من المحطة إلى بيتنا. كان كل شيء هادئاً، عدا بعض الغربان تطير ناعقة فوق جسر الميترو السطحي. شعرت وكأني كنت غائباً منذ زمن بعيد. قبل أن أروي في البيت تفاصيل الليلة الماضية أحضرت أنيت آلة تسجيل قائلة إن هذا كله يجب أن يوثق. إنها الآن مؤرخة أكثر منها أم، وربما لأن في هذا ما يخفف عنها. قبل أن أبدأ في تأليف هذا الكتاب أعطتني أنيت الكاسيت الذي سجلته حينها. كان غريباً سماع صوتي ثانية بعد كل هذا الوقت. كنت أحكي بهدوء وبحيادية وكأن ما أرويه ليس قصتي أنا شخصياً. أظن أني كنت محرَجاً لكوني ضحية. لقد أصابوني، ألحقوا الأذى بإحساسي بنفسي. لم أذكر شيئاً عن الجريدة المحظورة ولا عن خوفي وهزيمتي. ولهذا بقيت لمدة طويلة أعاني تأنيب الضمير. ذاك التحقيق بقي نقطة سوداء. استرجعته في ذاكرتي لاحقاً عدة مرات، وقدمت الأجوبة التي كنت في واقع الأمر أتوقعها من نفسي، تماماً مثلما فعلت مع مناقشات أستاذ الثقافة الوطنية. لقد خاب أملي في نفسي، وكان هذا أسوأ من الليلة في الكراج.

فيما بعد حكت لي كريستينه أن أباها كان يعمل لحساب شتازي، قالت إنها قد خافت منه في تلك الليلة أكثر من الشرطة. ومع ذلك كانت أشجع مني. وبعد مدة طويلة عرفنا أن صديقة والديَّ التي أعطتنا جريدة الكنيسة كانت أيضاً تعمل لحساب أمن الدولة. كان من الصعب فهم الأمر، والتمييز بين الخير والشر.

آنذاك، وفي سياق ما كان يجري يومياً، كانت هذه الأمور ترسب إلى الأسفل. ففي كل مكان وعلى كل صعيد كان يجرؤ الناس على أمور جديدة. كان هناك مظاهرات عفوية دون تنظيم مسبق، كما تأسست أحزاب ونقابات جديدة، وكُتبت نداءات، وجمعت تواقيع. لقد انفلت زمام الأمور في البلد. ولأول مرة تعقد نقاشات حرة علناً. أذكر أمسية

في "دار المعلم" في ساحة ألكسندر، حيث كان يجلس مئات المربين والطلاب والأهالي ليناقشوا معاً حقيقة ما جرى في المدارس طوال تلك السنين. كانوا يناقشون الأكاذيب والضغوط التي مورست لتمرير تلك التمثيلية التي أدوها كلهم معاً. وقفت معلمة تاريخ وقالت باكية إنها تود الاعتذار مِن جميع مَن أساءت إليهم، ثم انهارت وتدخل الطبيب المناوب لإسعافها. في "المسرح الألماني" وقف الممثلون صفاً واحداً على الخشبة وهتفوا معاً للشجاعة في التغيير. وفي ساحة أوغست بيبل صفر الناس وجه دعائيي الحزب ومروجي سياسته. إن الموجة التي راكمت طبقاتها خلال أسابيع وشهور كسرت السدود ودفعت الخوف والحذر جانباً وزوبعت من الأعماق تراكمات الماضي إلى السطح. لم يعد هناك يقين ولا حقيقة، وما اعتبر إيماناً دائماً ومقدساً أبدياً تهاوى وتداعى. لم تحدث صدمة مزلزلة، بل تحلل كل شيء من دون ضجيج تقريباً، حتى ما كان يُظن أنه باطون مسلح. وقد تسارعت الأمور بحيث أن دهشة الناس وفهمهم لم يعد يواكب سرعة الأحداث. أربعون سنة محيت خلال أيام. وكلما فكر الناس في أنهم بلغوا أرضاً صلدة للوقوف عليها كانت تنفتح أمامهم هاوية جديدة.

حتى اليوم ما زلت مبهوراً بسرعة وعي الناس آنذاك بكرامتها وقوتها، بيقظة غرائزها وبمدى جوعها إلى الحرية والحقيقة، هاتين الكلمتين العظيمتين اللتين استعادتا آنذاك معناهما الأصلي. ما كان على الإنسان سوى أن يتلفت حوله ليفهم ذلك. كان هناك ذلك الاعتزاز في عيون الرجال والنساء، الذين جلسوا حول الموائد المستديرة مع ممثلي الدولة المفلسة للتفاوض على المستقبل. كان هناك الصوت الصريح لابنة الأربعة عشر عاماً التي وقفت في كنيسة المخلص وحكت عن توزيعها مناشير كتبتها مع أختها الصغرى بخط يدها، وكانت هناك دموع النساء اللاتي أفرج عنهن

من سجن شتازي في هوّنشونهاوزن، وكانت هناك النظرة المنطفئة في عيني إريش هونيكر عقب سحب الثقة منه في المكتب السياسي.

كنت مساء 9/11 أتابع مع كريستينه البرنامج التلفزيوني الغربي "مواضيع المساء"، حين قال المذيع هايو فريدريكس إن بوابات جدار برلين قد فتحت الآن. لبسنا ثيابنا بسرعة ونزلنا إلى الشارع، حيث وجدنا آخرين من الذين شاهدوا البرنامج نفسه. أخذنا أحدهم معه بسيارته إلى المعبر الحدودي هاينريش هاينه. عند الحاجز قبل قاعة ختم الأوراق كان يقف المئات. قال حرس الحدود إنهم لم يسمعوا شيئاً عن فتح الجدار. ثم جاء ضابط وقال إن علينا التوجه إلى "مكتب السفر" في ساحة ألكسندر، حيث يُصدرون الآن تأشيرات خروج. فركض البشر إلى سياراتهم. وذهبنا في سيارة زوجين. كانت يدا الزوج ترتجفان من شدة الانفعال وخفتُ أن يتسبب هذا بحادث، فيفوتنا فتح الجدار. وجدنا "مكتب السفر" مغلقاً والأضواء مطفأة. وعندما أدركنا أن الضابط أراد كسب الوقت لا غير. ما أغبانا لنصدق أن الإنسان في مثل هذه الأوضاع يحتاج إلى تأشيرة خروج.

توجهنا إلى معبر "مركز تشارلي"، وكان واضحاً قبل أن نصل أن الجدار مفتوح، فالناس تهلل وتصيح. إلى جانبنا وقفت امرأة تبكي ثم قالت: «كنت في العشرين عندما بنوا الجدار. فصار ببساطة موجوداً، وها هو يزول الآن ببساطة أيضاً، مثل حياتي التي انقضت أيضاً هكذا ببساطة». كانت تبكي غضباً وفرحاً معاً، وتمنيت لو أبكي أنا أيضاً. ولكن كعادتي في مثل هذه الحالات، التي يجب فيها أن يكون الإنسان متأثراً بعمق، لا أتمكن من البكاء. هذه المشاعر ترتد عني ولا تصل إليّ، فأقف وأراقب كل شيء وكأني لست منه ولا أنتمي إليه. كريستينه تشبهني، نوعاً ما. أمسكنا أيدي بعضنا وتركنا أنفسنا تنجرف مع الحشد إلى البوابة المفتوحة، دون قدرة على أن نعبّر عن حالنا بأي كلام. حراس الحدود لا يريدون حتى

أن يروا هوياتنا، يؤشرون بأيديهم لنعبر فحسب. مشينا على طول براكات التفتيش، تجاوزناها ورأينا شريط الموت المضاء بشدة، وعلى بعد عشرين متراً منه انتصب الجدار وقد جلس عليه شباب يلوحون لنا. عبرنا الخط الأبيض الذي يفصل الشرق عن الغرب. حاول رجل أن يعانقني فرحاً، لكني وجدت في انفعاله شططاً. أشعر أن رأسي في غاية البطء ليستوعب كل ما يجري، وكأن كل هذا شريط سينمائي يمر أمام عيني. بكت كريستينه وتعانقنا، وأحسست بالحاجة إلى سيجارة.

أنيت وفولف شاهدا في هذا المساء البرنامج التلفزيوني الشرقي "أخبار اليوم"، ورأيا فيه عضو المكتب السياسي غونتر شابوفسكي يقرأ تصريحاً عن قواعد جديدة للسفر إلى الغرب. وأنيت المدربة على فهم تصريحات المكتب السياسي فهمت آن المقصود هم مواطنو (ج.أ.د) الذين يريدون مغادرة الوطن. اقترح فولف الذهاب إلى الجدار، لكن أنيت كانت متعبة إضافة إلى أنها لا ترغب في الذهاب إلى الغربية. «وما الذي سيكون عند الجدار؟». قالت لـفولف الذي اقتنع معها بالبقاء في البيت. وتوجها للنوم في العاشرة والنصف. وعندما استيقظا في صباح اليوم التالي كانت (ج.أ.د) قد اختفت تقريباً.

خاتمة

في يوم الاثنين، بعد سقوط الجدار، ذهبت إلى مديرية شرطة في حي كرويتسبرغ - برلين وقدمت طلباً للحصول على جواز سفر غربي، على سبيل الاحتياط. أردت أن أمتلك شيئاً بيدي، تحسباً لإغلاق الجدار ثانية. أريتهم هويتي الشخصية الصادرة في (ج.أ.د)، فنهض الموظف عن كرسيه وصافحني قائلاً، إنه مسرور لوصولي أنا أيضاً إلى الحرية أخيراً. ونادى بعض زملائه فجاؤوا وصافحوني أيضاً بوجوه مشرقة. أحرجني الأمر جداً، إذ بدوت لنفسي مثل البوشمَن[1] البري الذي يستقبله الرجال البيض إلى الحضارة. قال لي الموظف إن موضوع الجواز سينجز فوراً، لأني مبدئياً من حيث الولادة مواطن من جمهورية ألمانيا الاتحادية، لم يتمكن من استلام جوازه إلا الآن، بسبب الأوضاع الشاذة. وما قصده بالأوضاع الشاذة هو (ج.أ.د). بعد نصف ساعة استلمت جواز سفري بيدي، كان لونه أخضر وكتب فيه بحروف ذهبية اللون أني الآن غربي أصلي.

بعد بضعة أسابيع دخلت إلى الشرقية بجوازي الغربي. وكان هذا حالة في غاية الغرابة، لأني لطالما حلمت بذلك، في حين أن كل شيء الآن مختلف. (ج.أ.د) ما زالت موجودة ظاهرياً فحسب، وكل شرقي يحق له

(1) قبائل بدائية تعيش في افريقيا، كانت منعزلة حتى العام 1950.

الآن أن يكون غريباً. يضاف إلى ذلك أن الغربيين بدؤوا يثيرون أعصابي. إنهم يتكلمون عن (ج.أ.د) كمن يتكلم عن منطقة موبوءة بالكوليرا. فيقولون إن الديكتاتورية أفسدتنا، وشخصيتنا ضعيفة وتعليمنا رديء. أخذت الأمر على محمل شخصي، ما زعزع ثقتي بنفسي، لأني لم أبغ أن تكون لي أية علاقة بـ(ج.أ.د). إلا أن هذا الشعور الذي لم أعرفه سابقاً تخلق فجأة، هذه الـ"نحن" التي خرجت بصعوبة بالغة من بين شفتي. أعتقد بأني لم أكن في أي وقت من الأوقات قريباً من (ج.أ.د) مثلما صرت بعد انهيارها.

بعد سقوط الجدار كان بودّ أنيت أن تبقى في البيت، مع إبريق شاي وكتاب غارقة في مقعدها الوثير في الشرفة ذات النوافذ، وكأن شيئاً لم يحدث، وكأن العالم خارج شرفتها وغرفة عملها لا يزال على حاله دون أي تغيير. ولكن ما هكذا تسير الأمور، كان لا بد من أن تخرج، لأن أخي الصغير مصر على رؤية الغربية. فولف كان يعاني آلام ظهر أقعدته رهين الفراش عدة أيام. وهكذا في أول نهاية أسبوع عقب سقوط الجدار مشت أمي مع أخي على جسر أوبرباوم. وتقدمهم كان شديد البطء، إذ بدا أن الشرقية كلها موجودة في برلين الغربية. حشد بشري هائل يمشي بطيئاً عبر الشوارع، ومن المستحيل الخلاص منه. قالت أنيت إنه كان من ألعن أيام حياتها. رأت كل هؤلاء الناس، هذه الوجوه السعيدة، وشعرت بأن ثمة ما انتهى الآن، ولم يبدأ بعد. الإصلاحات، الطريق الثالث، هذه كلها لم تعد أكثر من أحلام. بعد بضع مئات من الأمتار في الغربية لاحظت أنها لم تعد قادرة على النطق، لم يعد يخرج من حنجرتها سوى بحة خافتة. لقد جعلها الغرب عاجزة عن الكلام.

قالت أنيت إنها خشيت حينذاك أن يكون كل مغزى حياتها قد ضاع مع انهيار (ج.أ.د). لم تستطع تصور البقاء دون هذا البلد الذي كان موجوداً.

شعرت بنفسها وكأنها على خشبة مسرح دوّارة تتحرك، وفجأة تشكل أمامها عالم جديد، هناك تماماً، حيث كان القديم قائماً. لكنها دهشت لأنها في الواقع لم تشعر بحزن، ولم تشعر بحاجة إلى البكاء. كان الحال وكأن عبئاً قد سقط عن كاهلها. إنها لم تعد في حاجة إلى (ج.أ.د)، إلى حب اليفاعة التعيس. لقد نضجت الآن.

عندما استعادت أنيت صوتها صارت ناطقة باسم "المنتدى الجديد" في حي ليشتنبرغ، ثم ناطقة باسم كتلة تحالف 90 / الخضر في مجلس ممثلي مدينة برلين – شرق. لمدة من الزمن وجدت الأمر مثيراً، ثم لم تعد راغبة في أن تنطق باسم آخرين، بل باسم نفسها فحسب. لم تكن تعرف كيف ستتطور الأمور، لكنها شعرت بمتعة الجو المفتوح والإمكانات الجديدة. يكفيها ما كان لديها من يقينيات. أخرجت من درج مكتبها النصوص التي كتبتها خلال السنوات الأخيرة من عمر (ج.أ.د). تطورت النصوص إلى كتب وصارت أنيت مؤرخة مرموقة، إذ قامت بتشريح هذا البلد الذي أحبته وعانت بسببه، حللته من منظور عالم متجرد، وهذا المنظور ولّد الحياد الضروري، الذي سهّل عليها الوداع. بالنسبة إليها صارت (ج.أ.د) تاريخاً.

أما فولف، فلم يستطع الاستمتاع بالحرية الجديدة، إنها ترهقه. لم يستطع النوم طوال ليال وهو يفكر في المستقبل. فالذين كانوا يكلفونه بالعمل قضي عليهم، وثمة شرطي من بيلفلد ورث البيت في كارلزهورست ويريد إخلاءهم، وهناك مجموعة ورثة في برلين الغربية تطالبهم بالكوخ الصيفي في باسدورف. وفي أثناء سهاده ليلاً يرى نفسه مقيماً تحت أحد الجسور، فناناً بلا مأوى، فاشلاً من الشرقية. إنه يفتقد الأمان، الذي كان يحس به مثل قيد. إنه يفتقد تلك الدولة، التي كان يحك جسمه بها، فالغرب لا يوفر أطرافاً قاسية تصلح للحك ولا يبدي ردود أفعال. بوسع فولف الآن

أن يفعل ما يشاء، وليس ثمة من يعترض أو يستجيب. البلد الجديد أشبه بكتلة من الإسفنج، يمكن للمواطن أن يوجه إليها ضرباته، لكنها لاتترك أثراً. فلمن سينتج فناً الآن؟ وبالأحرى ضد من؟

في أثناء مرحلة "الانعطافة"، صارت رسومه ولوحاته أشد حزناً، شخوصه تركع برؤوس منكسة، أو تستلقي بصدور عارية تحت غربان تحوم فوقها، وفي البعيد ترمي بوابة براندنبورغ ظلالاً طويلة. كتب أسفل اللوحة "فتح الجدار". وبمناسبة يوم الكنيسة في المعرض الذي أقيم في بوتسدام 1993 شارك بتصميم أرفقه بالنص التالي: "الإيمان بالتقدم اهتز، التوجه نحو المستقبل من حيث المعنى، مسألة معدلات النمو بارتباطها بمغزى الحياة والكوارث البيئية باتت تنتج ذهنية التيتانيك. الصراع من أجل زاوية في قارب النجاة يتقدم، إنه الخوف من الماء البارد".

بدأ مشروعاً مع صديقه الرسام نيل صاحب صالة العرض في ساحة سافيني. ففي خريف 1990 عُلقت على باب الصالة في حي شارلوتنبورغ لوحة سوداء صغيرة كُتب عليها "نيل – غرب، ليو – شرق". كان المشروع تجربة، أرادا أن يُبينا من خلالها أن الشرقيين والغربيين يمكنهم معاً أن يحركوا شيئاً في الوسط الفني. لكن المشروع انهار، لأنه لم يحرك شيئاً. كان فولف يريد أن يُنمّي شيئاً ببطء وأن يتكلم كثيراً عنه، في حين أراد نيل الانطلاق فوراً لخلط سوق الفن كله من جديد. اتهم فولف نيل بالاهتمام بالمال فقط، واتهم نيل فولف بالتأني الزائد عن الحد. كلا الرجلين اللذين أرادا أن يحققا شيئاً طليعياً تيسا في كليشيه – شرق – غرب. بعد بضعة شهور نزع نيل اللوحة السوداء عن باب الصالة. فالمشروع قد انتهى. وخاب أمل فولف بالغرب مثلما خاب أمله سابقاً بالشرق. أراد أن يفعل شيئاً جديداً، أن ينطلق، لكن إبداعه غرق في الهموم. ساهم في مشاريع إعمار وانتسب إلى دورات تأهيلية يتحمل مكتب العمل كلفتها. كان مثل

ذئب في حديقة الحيوانات عليه فجأة أن يتدبر أموره في البرية، لأن حديقة الحيوانات قد أغلقت.

استمر فرنر في العيش، كدأبه دائماً. يُمضي الصيف في كوخ بناه عام 1970 على أرض الاتحاد الرياضي على شاطىء بحيرة تسيزن. كوخ خشبي بسيط، بمساحة أربعة أمتار مربعة، دون ماء ولا كهرباء. "هذه جنتي" كتب فرنر على رسم ملون للكوخ 1992. يجلس أمام الكوخ إلى طاولة عامرة في الأمسيات الدافئة، ومن باب الكوخ تخرج امرأة حاملة صينية وتبتسم له. الرسم معلق على جدار غرفة نومه في برلين إلى جانب لوحة نصفية لابنته كارولا وصورة لزوجته الثانية المتوفاة هيلدِغارد.

سبق لـفرنر أن استلقى على شاطئ هذه البحيرة مع جدتي زيغريد، قديماً في أواخر العشرينيات. سبحا هناك ولعبا الكرة الطائرة مع آخرين. أحياناً كان ينظر فرنر إلى سطح البحيرة الأملس المتلألىء ويتمنى أن يستمر كل شيء على حاله دونما تغيير إلى الأبد. هذا ما جاء على كل حال في قصيدة للبحيرة نظمها "ذات ليلة مسهدة من كانون الأول/ ديسمبر 1989"، وتنتهي القصيدة بالأبيات التالية:

أيتها الصديقة الجميلة الوفية الوحيدة،

نحن لم نفقد واحدنا الآخر أبداً.

مهما كان ما سيأتي من أحداث،

أنتِ مَن جعلني محظوظاً.

لا أعرف لماذا كان فرنر في تلك الليلة من ديسمبر1989 مسهداً. هل كان يفكر في حياته الماضية، أم كان قلقاً بشأن المستقبل؟ هذه القصيدة لبحيرة تسيزن تبدو مثل جردة حساب رجل أدرك في ختام حياته أن لا جدوى من أي شيء. يقول في الفقرة الثانية:

هل ثمة ما لم أؤمن به،
أو لم يُسلب من ثم كل أمل!
أما أنتِ يا عجوزي فلم تخيبي أملي،
كنت هنا عند الحاجة، لم تهربي.

توفي فرنر في 30 كانون الأول/ ديسمبر 2008. الغريب هو أن هذا الجد الذي اكتشفته لتوي قد غاب الآن إلى الأبد. حضرت الدفن ونثرت رملاً على تابوته ولم أشعر بشيء. أحد عازفي المدافن عزف "أغنية عازف الترومبيت الصغير"، الأغنية التي تعلمتها في المدرسة والتي يقول شطرها الأخير:

"نم الآن يا عازف الترومبيت الصغير، يا سليل الحرس الأحمر المرح".

صار لدى غرهارد الآن مدربة لغوية فرنسية، لأنه منذ إصابته بالجلطة الدماغية بات يفهم الكلمات الفرنسية أفضل من الألمانية. يقول الأطباء إن دماغ غرهارد لم يعد قادراً على الربط إلا بين الكلمات ذات الصلة المهمة بخبراته العاطفية. ولربما صارت فرنسا في وقت من الأوقات وطنه الفعلي حقاً، فقد كانت في كل الأحوال ملجأه، منذ أن اتجهت (ج.أ.د) نحو نهايتها، عندما كانت لغته لا تزال حاضرة، لكنه ما عاد يعرف ماذا عليه أن يقول. آنذاك أمضى أسابيع طويلة في رحلة قراءات عبر فرنسا. كان كتابه عن مرحلة نضال المقاومة قد صدر بالفرنسية، وربما فضَّل أن يتكلم عن تلك المرحلة أكثر من أن يحكي عما يجري حالياً. هذه الوحدة الألمانية كانت عملاً فظيعاً من وجهة نظر غرهارد، ففجأة عادت ألمانيا الكبرى إلى الحياة، بينما ضاعت إلى الأبد جمهوريته الاشتراكية الصغيرة المناهضة للفاشية. قال لي مرة إنه مرتاح لشكوك وتخوف الفرنسيين مثله من كل ما يجري. في فرنسا كان يشعر بنفسه ومخاوفه وخيبة أمله آمناً مطمئناً.

أعتقد أن (ج.أ.د) قد أخذت تتلاشى من أفكاره تدريجياً خلال السنوات اللاحقة. فعندما كنت أسأله عنها، بدا الأمر وكأن عليه أن يبحث طويلاً في ذاكرته. ومرة على سبيل المزاح هنأته في 7/ 10 بعيد ميلاد (ج.أ.د)، فلم يستوعب إطلاقاً عما أتحدث. حتى أسماء رفاق مهمين وأشخاص يعرفهم شخصياً انمحت من ذاكرته. وعوضاً عن ذلك أخذ ينسحب أكثر فأكثر إلى مرحلة شبابه، إلى زمن المقاومة. فصار يذهب مجدداً إلى المدارس ويحكي عن النضال ضد الفاشية، وظهر في مؤتمرات واجتماعات كشاهد على العصر. وسافر مراراً وتكراراً برفقة فريق تلفزيوني إلى مواقع نضاله، وكأن حياته كلها قد انكمشت إلى هذه السنوات القليلة، التي كانت الأهم على ما يبدو بالنسبة إليه.

زرته مؤخراً في فريدريكس هاغن. وكانت مدربته اللغوية موجودة تعلمه المفردات، كما آنذاك في مشفى الأطفال الباريسي. كان يقظاً جداً وشديد التركيز، وكان يضحك أحياناً. ربما لتذكره الطبيبة الجميلة، أو الحب الأول، تلك المرأة التي جعلته فرنسياً.

وأنا شخصياً صرت كثير التردد على بامسدورف، على البيت الصغير ذي الحديقة الكبيرة. قبل بضع سنوات كنت هناك لأرى ماذا حل بفردوس طفولتي. وجدت الحديقة مهملة تماماً، في حين بدا البيت كما عهدته. اتصلت بأحد الورثة في برلين الغربية، الذين استعادوا قطعة الأرض بعد سقوط الجدار لأنها كانت ملكهم قبل بنائه. قال الرجل على الهاتف إنه لا يدري ما يفعله بالكوخ الصغير، وعنى بذلك بيتنا. فسألته إنْ كان مستعداً لتأجيري قطعة الأرض، وبعد أسبوعين حصلت على المفتاح. فتحت الباب ووجدت في الشرفة الطاولة التي صنعها فولف بيديه عندما كنتُ في

الرابعة من عمري. في غرفة الأطفال لا تزال ستائر الكارّو معلقة وكذلك الرائحة، تماماً كتلك الأيام.

في نهايات الأسبوع غالباً ما نخرج على دراجاتنا على طول الطريق الذي يخترق غابة أشجار الزان ويؤدي إلى بحيرة ليبنيتس. لم يعد يوجد هناك حيوانات كبيرة، لقد اختفى الجدار واللوحات. وصار بالإمكان زيارة الدور الموجودة في الغابة والتي كان يسكنها أعضاء المكتب السياسي. إنها مساكن بسيطة ذات واجهات رمادية. في شبه الجزيرة، حيث كانت بقعة سباحة إريش هونيكر، يوجد مرج حشيش واسع للاستلقاء، حيث نلعب مع الأطفال في الشمس ونقفز إلى الماء من اللسان الخشبي، الذي كان الجنود بمسدساتهم الرشاشة يقفون عليه. وبين الحين والآخر أحكي للأولاد عن الأيام الخوالي، فيذكرونني بأنهم سمعوا القصة مني عدة مرات، وعندها أبدو لنفسي مثل رجل هرم باكراً، كرجل ترك حياة وراءه.

نهايات الأسابيع هذه في باسدورف جميلة، ومربكة في الوقت نفسه، إذ إن كل شيء في هذا البلد تغير، أما هذا البيت وهذه الطاولة في الشرفة وستائر الكارو فقد بقيت، إنه مثل متحف للطفولة، قطعة من (ج.أ.د) استمرت متجاوزة كل شيء. حتى شجرة البتولا وراء البيت، التي كنت أتسلقها، لم تتغير. قد يعود الأمر إلى أن كلينا قد كبرنا.

انتهت

مكسيم ليو

كاتب ألماني، مواليد برلين الشرقية 1970. حاصل على شهادة في العلوم السياسية ويعمل كمحرر كصحفي منذ العام 1997.

حصل على عدة جوائز أدبية وصحفية منها جائزة Theodor-Wolff-Preis في العام 2009. وحاز كتابه «ليكن قلبكم مستعداً» على جائزة الكتاب الأوروبي في العام 2011.

نبيل الحفار

مواليد دمشق 1945. حاصل على إجازة في الأدب الألماني 1969 لايبزيغ، وماجستير في الأدب الألماني 1971 لايبزيغ ثم دكتوراه في العلوم المسرحية 1989 برلين. عمل رئيساً لقسم الدراسات المسرحية في المعهد العالي للفنون المسرحية - دمشق، ورئيس تحرير مجلة «الحياة المسرحية» - دمشق. كما أنه عضو اللجنة العلمية العليا في هيئة الموسوعة العربية - دمشق. حاز نبيل الحفار على جائزة الأخوين غريم للترجمة - برلين 1982، وجائزة معهد غوته للترجمة، فئة المحترفين - لايبزيغ 2010. له ترجمات كثيرة في المسرح والرواية والقصة والبحوث من الألمانية، كما له مقالات وبحوث في النقد المسرحي.

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع



صعود الرايخ الثالث، الحرب العالمية الثانية، سقوط النازية، تفكك ألمانيا، قيام ألمانيا الشرقية، خريف الدول الشيوعية، سقوط جدار برلين، تفكك الاتحاد السوفييتي. مصطلحات قد تمر بشكل عابر في كتب التاريخ. لكنها تحمل عشرات الأسئلة: ماذا حدث فعلاً؟ كيف عاشت العائلات التي وجدت نفسها على طرفي نقيض موزعة بين أفكار متضادة ودول متحاربة؟ ماذا يعني أن تعيش في بلد يختفي فجأة، ويصبح العدو جزءاً من الوطن؟

كان أول ما تعلمه مكسيم ليو هو الامتناع عن أي أسئلة، حتى عن تاريخ أسرته. وبعد عشرين عاماً على سقوط جدار برلين، يقرر هو أيضاً أن يحطم جدار الصمت كي يفهم ما الذي حصل حقيقة هناك، مع أسرته، ومع جديه، ووالديه، ومعه هو نفسه. وليجيب عن السؤال الأصعب: ما الذي كان على تلك الدرجة من الأهمية، حتى جعلنا غرباء عن بعضنا بعضاً حتى اليوم؟


9 789933 540296 >





